الهروب إلى الظل

الهروب إلى الظل

روايـــة

فريد عبد العظيم

تصميم الغلاف/ عبد الرحمن ناصر

المراجعة اللغوية: محمد كرم

التصميم الداخلي: أحمد العزازي

الطبعة الأولى، القاهرة 2025

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : 2024/32934

الترقيم الدولي / تدمك: 978-977-8880-32-8

1 - القصص العربية القصيرة.

أ- العنوان : 01/813

جميع الحقوق محفوظة للناشر

المرايا للثقافة والفنون

تليفون : 023961548 2 +

موبايل: 01030319318 2 +

البريد الالكتروني: elmaraya@elmaraya.net
https://elmaraya.net/

العنوان: 23 عبدالخالق ثروت، الطابق الثاني، شقة 17، القاهرة، ج.م.ع.

الآراء الواردة بالكتاب تعبر فقط عن رأي المؤلف
ولاتعبر بالضرورة عن رأي المرايا للثقافة والفنون.

فريد عبد العظيم

الهروب إلى الظل

روايـــة

EL MARAYA
for Culture and Arts
المرايا
للثقافة والفنون

2025

إلى

فريد وديع حداد

1922 – 1959

شكر وتقدير

جزيل الشكر للدكتور يوسف سميكه، فقد كان مقاله عن طبيب الفقراء هو بداية تعرفي على فريد حداد، وللكاتب الصحفي سيد محمود على ما قدمه لي من معلومات عن نشاط اليسار المصري والحزب الشيوعي وحركة حدتو في حقبة الأربعينيات والخمسينيات والصديق إسلام عبد الغني على مراجعته لمسودة الرواية وملاحظاته التي أفادتني للغاية.

(1)

هجرتْني بسبب قبلة.

قالت بأسى: أخاف الارتباط برجل يخشى التقبيل.

لسنا بمراهقين يا «حياة»، رتبت كل شيء وبالنهاية تركتِني بلا حتى تحية وداع.

أنسيتِ حديثك؟!

قلتِ: ينقصك الشجاعة يا بهيج، كررت جملتكِ مرارًا وتقبلتها بصدر رحب، استقبلت الطعنات وبالوقت ذاته رسمت الابتسامة على شفتي.

لماذا؟!

أنتِ غبية. أحبك، وحده الحب هو ما جعلني أتحمل ترهاتك، رعونتك وكلماتك التي كالرصاص.

نعتِني بالجبن فاستجمعت شجاعتي، قلت لنفسي: سأثبت لها خطأ رؤاها، اتصلت بك وحددت موعدًا للقاء، اشتريتُ خاتمًا وحجزت منضدة على النيل بمطعمك المفضل، احتضنت بيدي أناملك، نطق لساني صراحة بكل ما أحمله لك بقلبي، لم أتخيل قط أن تكون ردة فعلك بتلك الطريقة.

لماذا انتفضتِ وحررتِ أصابعك؟ لَمَ قطّبت جبينك وهببتِ من على الكرسي؟

جريت كالمراهقات عندما ناديتك، ركضتِ واندفعت داخل التاكسي وكأنني أطاردك.

لم أتخيل أنك بمثل هذه القسوة، لم تلتفتي حتى لتري دموعي.

ما المشكلة؟!

طالما أكدتِ أن السن ليست بعائق، قلتِ: العمر الحقيقي للإنسان يقاس بالأيام السعيدة.

لو طبّقت مقياسك للعمر عليّ سأكون رضيعًا، ليس بيني وبين السعادة وفاق.

حسنًا، لنكون أكثر دقة؛ عمري ستة وستون، عشت أغلبها في كدر، بالفعل تصغرينني بخمس سنوات وثلاثة أشهر لكن وفقًا لحسابك أنا ما زلت طفلًا.

تعرفين يا حبيبتي لو أنك تركتِني لسبب مقنع؛ رفض ابنتك مثلًا، المظهر الاجتماعي، أي شيء من هذا القبيل، لكنت تقبّلت الأمر على مضض، أيام من الحزن ثم أعود إلى طبيعتي الأولى، وتصبحين ذكرى لأيام سعيدة لم تدم، لكن أن يكون السبب قبلة، قبلة توقعتِها ولم تحدث...

لماذا لم تصارحيني؟ أنت جريئة كما تدعين دائمًا، لِمَ لم تطلبيها؟ أنا لا أضرب الودع يا حبيبتي.

لم يكن لحياتي طعم قبلك، لا أتذكر هل صرّحت لك بذلك من قبل أم منعني غروري، لأقرّب لك المعنى، أعرف أنك لا تفضلين

تلك التعابير، بطريقة أكثر ركاكة؛ كانت الحياة قبلك أشبه بالطعام المسلوق، شوربة خضراوات على الطريقة الأوروبية خالية تمامًا من النكهات، كهل ينتظر النهاية، كن صريحًا يا بهيج، شيخ بمرحلة الأفول يمرر الوقت بصبر حتى تأتي اللحظة.

صدفة جعلتني أقابلك في آخر العمر، أعتقد أن أفضل قرار قد اتخذته بحياتي هو القدوم إلى تلك المدينة الجديدة.

أمضيت أغلب عمري بمصر الجديدة، ولدت وعشت بها، لم أتخيل يومًا مغادرتها على قدمي، جدي شيّد المنزل، أعتقد في عصر الملك فؤاد، سكنه وأنجب الأولاد، كبروا وصاروا رجالًا، تزوجوا فيه، ملأوه بالأطفال، حديقة رائعة ما زلت أتذكرها، نافورة أنيقة وأرجوحة أثرها لم يفارق فخذي الأيسر إلى الآن، ندبة لي وأخرى لابن عمي.

كبر الأحفاد، رحل ملكان، اعتقل رئيس وسُمّ آخر، اغتيل ثالث وأتى رابع أمضى ربع قرن ونيفًا.

من الواضح أن كل شيء قد تغير وأنا ثابت، كنا أقارب وأصبحنا مجرد ورثة، أبناء الأعمام اتخذوا القرار وأبلغوني، للأمانة هم ليسوا أصحاب الفكرة، أبناؤهم أرادوا المغادرة، ليس الرحيل بالطبع هو الهدف وإنما الأموال، أقنعوا آباءهم بحتمية البيع، رجل سمين صاحب مال ونفوذ ويريد التوسع... حقه، ومن يقدر على الرفض! المنزل الذي عشنا فيه لسنوات هدم بأيام، برج آخر ذو مدخل رخامي يفتقر للجمال انضم إلى الصف، متأكد من

أن مصر الجديدة ستتحول خلال سنوات قليلة إلى كتلة أسمنتية غاية في القبح.

اشتروا فيلا، تحديدًا كل واحد منهم شيّد واحدة لأبنائه، اجتمعوا في المدينة الجديدة على تخوم القاهرة، قالوا بثقة: المستقبل هنا، هززت رأسي ووافقتهم، لا أعرف لماذا طاوعتهم، ربما طمعًا في ونس.

عرضوا عليّ بصدق السكن معهم، شقة صغيرة لك يا ابن العم، السن كبرتْ وستحتاج يومًا إلى من يقوم بخدمتك، هززت رأسي ثانية لكن هذه المرة بالرفض، على بعد خمسة كيلو مترات منهم سكنت، اخترت شقة مشمسة تطل على حديقة، لم نتقابل منذ انتقالنا من فيلا مصر الجديدة، مشاغل الحياة هي الحجة، لا أنكر أنني قد ارتحت لذلك. لا أعرف هل أنا من اخترت الوحدة أم أنها قد كُتبت عليّ.

لم أعد أفاجأ بألاعيب الدنيا، رحل أبناء العم قبل أن يهنؤوا بالعيش في المدينة الجديدة، لم يستمتعوا بالنقود، الغنيمة راحت كاملة للأبناء، ارتكبوا الإثم، أيدوا هدم الماضي وشاركوا طواعية في بناء مستقبل غاية في القبح.

لم نتزاور، لم أقابلهم إلا مرة وحيدة، وهم ممددون على أسرّتهم غير قادرين على النطق، حملت نعوشهم واحدًا تلو آخر وتصدرت سرادق العزاء.

انعزلت بشقتي، وحيدًا أزداد وحدة لا أمل بكسرها، ثم أتيتِ،

جئتِ فأنرت لي الحياة، دبت عصاك على سقف الغرفة، فأحدثت شقًا من نور، كغارق تشبثت بك، نجوت بفضلك، ذقت حلاوة الدنيا متأخرًا.

لو كنت إلى جواري ستقولين هازئة: كفاك تفلسفًا.

حسنا سأقولها بطريقة أكثر بساطة؛ ودعت شوربة الخضراوات بفضلك وتذوقت طعامك الشهي. تأقلمت ببطء، تعودت على مذاق الشطة والتوابل الحارة، تغاضيت عن تقلص معدتي، فالمذاق المدهش يستحق بعضًا من التضحية.

تريدين أن أعود كما كنت؟!

طلقت الماضي، أنت حاضري ومستقبلي، سنعيش أيامنا المتبقية معًا وسأودع الدنيا وأنا بحضنك.

(2)

للمدن الجديدة مميزات.

هذا ما قالوه لي فصدقته وانتقلت، بالفعل الهواء نقي هنا، مساحات شاسعة من الخضرة ومبان على الطراز الأوروبي، أوهمت نفسي بأنني سعيد؛ أستيقظ مبكرًا كل يوم، أمارس التمارين الرياضية، أعد قهوتي وأتناول إفطاري ببطء، أجلس بالبلكونة وأستمتع بالهدوء. تمر الساعات فأملّ، تلسع الشمس جبهتي فأنسحب إلى الداخل، أفتح التليفزيون وأقلب بين القنوات، أحاول إضاعة الوقت فلا يضيع، أشرب الشاي، الينسون، النسكافيه، تؤلمني معدتي فأتوقف.

أدخل رأسي في شاشة اللاب توب، الإنترنت بطيء والعناوين مكررة، أقرأ الخط الدقيق بصعوبة، أدرك أن لا جديد لديهم ليقولوه فأغلق مواقع الأخبار، أمر إلى الصندوق الأزرق، أحرك الفارة وأضغط بعشوائية على الأيقونات، لا أعرف هل أنا غبي أم أن الفيسبوك قد صُمم لتسلية أناس غيري، يؤلمني ظهري فأجدها حجة جيدة لإغلاقه.

أجلس على كرسي المكتب، أراقب عقارب الساعة التي تأبى التحرك، يؤذن لصلاة الظهر فأدرك مصيبتي، استنفدت كل حيلي لتمرير الوقت ولا أمل، أغلق عيني وأحاول التأمل، أظن أن جرس الباب قد رن فأنتفض، أهرول نحوه فأدرك أنني لن أتأقلم

أبدًا، كل يوم على هذا الحال، أفتح فلا أجد أحدًا، لا أعرف هل أذني قد شاخت أم أن حاجتي إلى ونس باتت مفضوحة؟!

لا زيارات لمن لا يمتلكون عائلة، معلومة صحيحة اختبرتها بنفسي، لم يطرق أحد بابي منذ وطأت قدمي تلك المدينة الجديدة، باستثناء محصلي الكهرباء والغاز والمياه لم يظهر أحد، المرة الوحيدة التي حضر فيها واحد من أبناء الأعمام، أقصد أبناء أبناء الأعمام، كان لإبلاغي بقرار بيع العشرين فدانًا، شربَ الشاي في عجالة ثم توجهنا إلى الشهر العقاري، يومها أخبرني أنني حَسن الحظ.

شقتك سيتضاعف سعرها بالمستقبل يا عمو، سيشيدون «كومباوند» ضخمًا أمام بلكونتك، «فيو» رائع سيجعل كثيرين يعرضون عليك أضعاف ما دفعته.

الحظ، دعونا نسميه حظًا، أؤمن بالقدر، أشياء غير منطقية تحدث وغالبًا ما تفتقر إلى العدل، العجوز المنفي إلى مدينة جديدة مضطرًا سيرتفع سعر شقته التي يكرهها، سيمتلئ سور الكومباوند بالمطاعم والكافيهات، سينتهي الهدوء وسيكون الزحام على أشده، سأقاطع البلكونة مرغمًا، بعدها بسنوات قليلة سأموت، ستفوح رائحتي وستزعج السكان، سيبلغون حتمًا البوليس، ستنشر الجرائد الخبر، سينعيني اتحاد الكتاب وربما يقيمون حفلًا لتأبيني.

سيظهر أبناء أبناء العم بملابس الحداد، سيرمون كراكيبي ويبيعون مكتبتي لأحد بائعي اللب والسوداني، لن يضيّعوا الوقت، سيضعون إعلانًا على أحد المواقع المختصة ببيع

العقارات، سيكتبون: شقة بموقع غاية في التميز، بسعر مغرٍ وذلك لسرعة البيع.

لولا دبيب عصاك يا حياة لكنت مت.

يوم كغيره من الأيام، جلوس بالساعات على المكتب وتمرير الوقت بلا طائل في مراجعة مقالي الشهري اليتيم. نقر على الحائط، لا، دبيب مصدره سقف الغرفة، أكذب أذني، أرفض خداعها لي، أكره مقالبها المتكررة، يرتفع الصوت، أنهض، أغادر الغرفة، أتأكد من إغلاق النوافذ والأبواب جميعًا.

أعود وأسترق السمع، أتساءل: الشقة بالأعلى خاوية، منذ انتقلت إلى البناية وأغلب الشقق خالية من السكان، خمسة أدوار، عشر شقق، أربع منها فقط مأهولة، لا أحد بالدور الخامس متأكد من ذلك.

اختفى الصوت فعاد الملل، سلّيت نفسي برسم سيناريو؛ عصابة من شخصين قد استوليا على الشقة، عادل إمام وأحمد مظهر، سيصنعان فجوة بالسقف وينتظران الوقت المناسب لتنفيذ العملية، في اليوم الأول من الشهر سيهبطان، سأخرج كما المعتاد لتسلُّم المعاش وقبل أن أعود سيكونان قد نهبا كل شيء.

سيناريو مبتذل لا يليق بمثقف مثلك يا بهيج، اشغل وقتك بأشياء أكثر رقيًا.

راجعت المقال لساعة، لا معنى لما أقوم به، فقد أرسلته للجريدة عبر الإيميل أمس، عاد النقر ثانية فنهضت، غادرت شقتي

وانطلقت إلى الأعلى، لا أعرف حتى الآن كيف واتتني الجرأة لطرق الباب، مرت دقيقة ولم يفتح أحد فقررت الهبوط، وأنا على أولى درجات السلم عاد الدبيب، بات أكثر وضوحًا وانتظامًا، ارتفع فاقتربت ثانية، قبل أن أضغط على زر الجرس فتحتِ، رأيتكِ للمرة الأولى يا حبيبتي.

دعيني أحدثك عن مشاعري، لنكون أكثر وضوحًا ليست مشاعر وإنما مجرد انطباعات، امرأة بمنتصف العمر عادية الملامح، وجه بلا مساحيق وشعر قصير، لم أنبهر وإنما توترت، أدركت الورطة، ما لي أنا بالجيران؟ صعبت عليّ نفسي، هل وصل بي الحال إلى فعل أشياء صبيانية لتمرير الوقت.

دفء صوتك هو ما جعلني أقاوم رغبتي في الركض، ترحيبك كان مبالغًا، أعرف أنك ستقولين: ليس كل الناس مثلك، حسنًا كلكم ودودون وأنا الفظ الوحيد.

منذ الوهلة الأولى أدركت أنك وحيدة مثلي، لو تملكين عائلة لما اضطررت إلى فتح الباب بنفسك، العكاز الذي تستندين عليه هو سبب النقر على سقف غرفتي، استغربت نفسي عندما وافقت على المرور إلى الداخل، ليس بسبب إصرارك دخلت، وإنما للألم البادي على وجهك، استندتِ إلى عكازك حتى وصلت إلى الكرسي، جلستِ وطلبت مني بود إعداد الشاي.

امرأة غريبة لم تكد تعرفني وتعاملني كأنني قريب، هكذا قلت لنفسي وأنا أسألك عن موضع السكر والبراد.

ثرثارة أنت، فمك لم ينغلق لساعة كاملة أمّا أنا فلم أنطق بكلمة، شكرتِني لا أعرف لماذا وصرحت برغبتك في رد الزيارة، ودّعتك وهرولت هاربًا، خططت وأنا أهبط درجات السلم في كيفية الإفلات من صداقة محتملة.

قررت قضاء بقية اليوم في التجول، المشي مفيد لمن هم في مثل عمري، ولو تعبت سأجلس على المقهى، فكرت في الذهاب للسينما أو تجربة تناول الطعام في المطعم الصيني القريب، أرهقت عقلي بالتفكير وبالنهاية دخلت إلى شقتي مستسلمًا لقضائي.

تصرفت كمراهق، لا أستطيع وصف شعوري ساعتها، تحركت كما المجنون، غسلت المواعين وكنست أرضية الصالة وغرفة المكتب، نفضت الغبار من على الأثاث، رتبت المكتبة بحيث تظهر مؤلفاتي بالصدارة، وضعت عددًا قديمًا من الجريدة على المنضدة، وتعمدت إظهار المقال الذي تتصدره صورتي، شذبت ذقني وارتديت بنطالًا وجاكيت لم ألبسهما منذ سنوات، جلست على الكرسي أقرض أظافري وأنا أنظر لعقارب الساعة.

كطفل ينتظر أن يمر الوقت ليحصل على لعبة جديدة، كنت أعتقد أن عقلي كان مغيبًا، لو أنه قد عاد إلى العمل ساعتها لانتهت قصتنا قبل أن تبدأ، كنت سأعود لطبعي الأول، أغلق أضواء الشقة وأحبس نفسي بغرفة المكتب، ستطرقين الباب ولا أجيب، فأنا معتاد على الهرب مرة تلو أخرى وستنسين جارك البرّاوي عديم الذوق.

رن الجرس، أصبعك ضغط عليه فانتفضت، لم أعط فرصة لعقلي كي يفكر، فتحت الباب بسرعة كي أخادعه، دخلتِ حتى قبل أن أنطق: تفضلي، جلستِ على أقرب كرسي وأشعلت سيجارتك.

اِعمل لنا فنجانين قهوة ولا أنت بخيل؟ هكذا قلتِ فضحكت وانسحبت إلى المطبخ.

أنت مجنونة ويبدو أنني أحتاج لبعض من جنونك.

(3)

وحيدا كعادتي، أجلس وعيني مصوبة نحو سقف الغرفة، أنتظر حدوث شيء، بدأت أكره الجمود، كنت مرتاحًا قبلك يا حياة، جئتِ كالطوفان، زلزلتِ حياتي الساكنة ثم رحلتِ.

بعد أن عدت شابًا ينبض قلبه بالحب غادرتِ، أوصدت باب شقتك على غير العادة، رحتِ إلى ابنتك والله أعلم متى ستعودين، أغلقتِ هاتفك واكتفيتِ برسالة مقتضبة حملها إليّ حارس العقار.

مظهرك مخز، بت مثيرًا للاشمئزاز، اعتزلت الحياة منذ زمن، اكتفيت منً الدنيا ومقالبها، فما الداعي للمحاولة مرة أخرى؟ الهدوء نعمة، عَيْش الحاضر دون آمال مستقبلية مريح، انسها، اجلس في سلام واستعد أمجادك الغابرة، بهيج داود المثقف الموسوعي، مؤلف كتب النقد الأدبي والروايات، صاحب الإسهامات الثقافية البليغة.

حياتك لم تكن كلها كدر كما تدعي، الكثيرون اعترفوا بمنجزك، حصدت جائزة الدولة وأشاد بك مجمع اللغة العربية ذات مرة، كنت فارسًا من فرسان جيل الستينيات وخضت معارك كبرى، ستموت وتبقى كتبك، أفكارك ورؤاك سوف تعيش، سيأتي جيل جديد ويفرز الغث من الثمين، مؤلفاتك ستوضع بمكانها الطبيعي يومًا ما.

كفاك تمثيلًا، دور العاشق لا يناسبك بالمرة، ما قالته لك حقيقي، لم تتمتع يومًا بالجرأة، أنت غير مهيّأ للارتباط بامرأة وخصوصًا لو

كانت حياة.

لست بقادر على النسيان، عقلي لا يستطيع وقلبي لا يقبل، ستعودين يومًا، سأحضر لك مفاجأة، بدلًا من إعادة ترتيب المكتبة للمرة المائة سأكتب إليكِ، ربما القلم هو الوحيد القادر على التصريح، أنت جريئة، أما أنا فأتحسس كلماتي، سأملأ دفترك، هديتك لي بمناسبة يوم ميلادي سأستعمله أخيرًا، أول ما أسمع دبيب عصاك سأصعد وأسلمه لكِ، لن أفتح فمي، سأضعه على باب شقتك وأنسحب، بعد أن تقرئيه لك الخيار.

أنت صاحبة الفكرة، ألا تتذكرين؟ قلتِ: طالما أنت مؤلف لم لا تدوّن مذكراتك؟ استعد شغفك القديم يا عجوز. سأكتب إليك يا حبيبتي، لا جمهور أنتظر رأيه، فقط أنتِ.

عزيزتي حياة

أكتب إليكِ بعد مرور يومين على رحيلك، اشتقت إلى نكاتكِ وقهوتكِ ورائحة سجائركِ، سأهجر طريقتي القديمة وسأكون أكثر صراحة. اتسمت مؤلفاتي السابقة بالمواربة، وصف النقاد أغلب أعمالي بالرمزية والتجريب.

أعرف أنك ستطلقين ضحكة مجلجلة بعد قراءتك لتلك الكلمات، ستسعلين ثم تلقين واحدة من نكاتكِ.

بتعبير أكثر سوقية اتسمت كتاباتي بالجبن الشديد، كنت ألف وأدور وأرص الجمل الأنيقة بلا داع، أعمالي الأدبية والنقدية ليست بالرديئة لكنها آمنة. أعشق الحرية لذا التزمت تجنب الشبهات.

أعرف أنك ستستنكرين قولي. ستقولين: أين الحرية فيما تقول؟!

حريتي أنا، أن أتمتع بالأمان، أخاف السجن، الاعتقال، التعذيب، أخشى النبذ المجتمعي.

لست مناضلًا، لا أود أن أكون بطلًا، أنا مجرد إنسان عادي يهوى الكتابة ويريد العيش في سلام.

أظنكِ ستصرخين فيّ: للحرية ثمن!

دفعت الثمن يا حبيبتي.

أحد معارفي القدامى قالها لي صراحة: ما دمت تكتب في مساحتك الآمنة لن يلتفت إليك أحد، لن تسجن ولن تترقى، لن تطرد من عملك وبالوقت ذاته لا تنتظر مكافأة.

سأزيد الشرح. ليس للحياد ثمن؛ يُدفع ببذخ للمؤيدين كي يبرروا الأخطاء، يُجزل العطاء للمعارضين لشراء صمتهم، المحايد ظل، السير بجانب الحيط يجعل المرء بلا ثمن، أتفهمين؟!

دفعت عمري كي أكتب، خسرت الكثير لتجنبي النفاق، لست جبانًا كما تظنين، لو أطال الله عمر عبد الناصر لأيام لأمضيت الباقي من حياتي بالسجن، كانوا سيدفعون بي إلى أحد المعتقلات وربما يعذبونني حتى الموت، قُبض عليّ مرة، حُقق معي لساعات طويلة، سمعت آهات الأبرياء وصوت كرابيج الجلادين.

لطالما قلتِ: أريد أن أعرفك أكثر، الآن قد حانت الفرصة، سأعود بك إلى فترة طفولتي.

كنت ولدًا مطيعًا ودمث الخلق، هكذا كانت تقول أمي، طفل مجتهد في دراسته ويحصل على الدرجات النهائية بامتحان الشهر، يأمل أبواه أن يصبح طبيبًا بالمستقبل، كانوا ينادونني بـ»فريد الصغير» وكأنني سأكمل مسيرة عمو.

ستسألين من فريد؟

جارنا الشاب الذي يعالج الفقراء بالمجان.

كنت مزهوًا باللقب، يشبهونني بعمو، صديق بابا الذي يزورنا بانتظام ويعطيني الحلوى، الساحر الذي أعاد جدو إلى الحياة بمعجزة، تمنيت أن أصير مثله عندما أكبر، محبوبًا ووسيمًا وطيب القلب، فجأة امتنع الجميع عن مناداتي بذلك الاسم، استغربت، قلت لأمي: درجاتي لم تنخفض مطلقًا، سألتحق يوما بكلية الطب، لمَ لم تعودي تناديننني بفريد الصغير، ردت باقتضاب: فأل شؤم.

اختفى عمو، أغلقت عيادته، ارتدت زوجته ملابس الحداد ثم رحلت هي وأطفالها عن الحي، سأوضح لك القصة، بالتأكيد لا تعرفين من هو عمو.

اسمه فريد حداد، شاب وسيم وأب لثلاثة أبناء؛ أكبرهم وديع وأوسطهم سامي وأصغرهم منى، مات في ريعان شبابه، في عمر السابعة والثلاثين قُتل. ستسألين: لماذا قتل؟

في بلادنا القتل مثل شكة الدبوس، لم يقتنع الضابط بردوده، أحسّ أنه يتفلسف فغضب بشدة، أمر العساكر بتكسير عظامه ليتأدب،

أخذتهم الحماسة في تنفيذ الأوامر فهشّموا بالخطأ جمجمته.

ستستفسرين: أي حوار هذا بين شخصين الذي ينتهي بالموت؟

حسنا، سأنقل إليكِ نص الحوار كما رواه من سمعوه.

الضابط: اسمك إيه يا ولد؟

فريد: أنا الدكتور فريد حداد.

– دكتور إيه يا ابن الق...، أنت شيوعي يا واد؟

– أنا مصري أؤمن بالاشتراكية.

– يعني شيوعي.

– أنا مصنوع من طين مصر ومعجون من عرق العمال والفلاحين.

لعلك ستستغربين من تلك النهاية المبتورة، ستطلبين مني أن أكمل الحوار، خلاص، انتهى، توتة توتة خلصت الحدوتة.

مات، انقطعت أنفاسه فضربوه ثانية بقسوة.

ستسألين: لماذا؟

وسأرد: ليتأكدوا من أنه قد فارق الحياة، ربما يُمثل الموت هربًا من التعذيب، لم يتحرك، لا آه ولا صرخة أو أنين، بعدها حملوه ووضعوه في تابوت، أغلقوه بالشمع الأحمر وسلّموه إلى عائلته، حضر أحد المسئولين الجنازة وقبّل أبناءه، شد على يد زوجته وأبلغها بخالص تعازي السيد الرئيس.

كفى نبشًا في الماضي، لنغير الموضوع، ما الداعي للكآبة! أنت

مفعمة بالأمل وتشعّين بهجة، لا أريد لدموعكِ أن تسقط بفعل حكاياتي.

بالمناسبة ظننتكِ مسيحية في بادئ الأمر، بمقابلتنا الأولى خمنت ذلك، التمسي لي العذر يا حبيبتي، فأغلب النساء الآن محجبات وخصوصًا من هم في مثل عمرك، استغربت شعرك المنسدل وذراعيك الظاهرتين، لا تضحكي على استنتاجاتي الحمقاء، فأنت الأخرى حسبتني مسيحيًا.

جريئة يا حياة، بادرت بسؤالي في لقائنا الثاني: اسمك مبهم، بهيج داود، لا علامة صلاة بجبهتك ولا صليب محفور برسغك.

ضحكتِ بعدها: أنت يهودي ولا إيه؟

جاوبتك: أنا مسلم.

بعدها ظللنا نتجادل لساعة في أمر تافه، ما لي أنا بآراء الفقهاء، ما علاقتي بحكم الصلاة دون إزالة طلاء الأظافر؟!

رغم تصنّعي الرصانة كنت منشرحًا، هبطت إلى شقتي وقلبي يرتجف، ليست رجفة الخوف ما أقصدها وإنما شعور آخر لم أختبره من قبل، هناك شيء ما قد بدأ.

سأكتفي بهذا القدر، لتكن رسالتي الأولى مختصرة.

وأخيرًا- استوقفتني اليوم مقولة دونتها منذ فترة بدفتري، يقول هنري إبسن: الرجال كائنات عجيبة، لا غنى لهم عن شيء يعبثون به.

هل تعتقدين أن كلمات الأخ إبسن تنطبق عليّ؟

(4)

حبيبتي حياة

أمضيت يوما آخر بدونك، لن أبالغ في وصف الوحدة والملل، أول ما استيقظت قررت هجرانهما، استبدلت بهما الذكريات، استرجعت ماضيّ البعيد وشرعت في كتابة نبذة عن بهيج الشاب.

ما الهدف؟

لا أعرف، ربما أريد أن نتشارك الأسرار، بالتأكيد كل منا لديه ما يخفيه، سأبوح إليك بأسراري الصغيرة التي لا يعرفها أحد.

أقل قرعة باب

أخفي قصائدي مرتبكًا في الأدراج

لكن كثيرًا ما يكون القرع

صدى لدوريات الشرطة التي تدور بشوارع رأسي

ورغم هذا فأنا أعرف بالتأكيد

فهم سيقرعون الباب ذات يوم

وستمتد أصابعهم المدربة كالكلاب البوليسية إلى جوارير قلبي

لينتزعوا أوراقي و... حياتي

ثم يرحلون بهدوء

هل أعجبتك تلك الأبيات، لست أنا المؤلف، دونتها منذ فترة بدفتر صغير لا يفارق جيبي، كتبها شاعر ثم غادر وطنه، رحل إلى مكان يستطيع فيه التعبير بحرية عن آرائه. للأسف هذا هو حالنا.

ستقولين: جبناء.

وسأرد: نعم كلنا بلا استثناء.

لن أغامر بحياتي مقابل لا شيء، لا أمل، اقرئي كتب التاريخ وستدركين صدق حديثي.

كنت طالبًا متفوقًا، كبر الطفل وصار شابًا، لم أصبح طبيبًا، رفضت أمي أن ألتحق بكلية الطب وأيّدها أبي، اسم «فريد» فأل شؤم وكذلك مهنته، التحقت بكلية الآداب، أحببت الدراسة وأغرمت بالمعارك الفكرية التي كانت دائرة وقتها، التهمت كل كتاب وقع في يدي، لم أشارك بأي أنشطة سياسية وقت الجامعة، أمي قد جعلتني أقسم بالابتعاد عن السياسة طيلة حياتي.

ستقولين: ولِمَ كل هذا الخوف؟

وسأرد: كنت وحيد أبي وأمي وذكرى فريد ما زالت قائمة.

كان الزعيم الملهم يخطب أمام الحشود وكنت أنا أستمع إلى أم كلثوم، ممنوع الإنصات إلى «ناصر»؛ لا تأييد ولا معارضة، يكفينا أسطوانات الست وعبد الوهاب، هذه أوامر أمي.

حصلت على تقديرات مرتفعة، شجعني أساتذتي على الكتابة، أرسلت مقالات أدبية إلى الصحف فرحّبوا بنشرها، أحببت

«مكسيم جوركي»، اقتنعت بأفكاره واحترامه للإنسان، بعد سنوات قليلة ألّفت كتابي الأول عنه، حققت بعض النجاح، تعرفت على صحفيين وكتاب رأي ومثقفين، توسعت دائرة علاقاتي ورشحت للسفر إلى روسيا ضمن وفد من المثقفين الشبان.

مؤتمر ضخم سيحضره مئات الأدباء والمفكرين، فرحت بشدة، شاب في مقتبل عمره يحلم برؤية العالم، أعددت ورقتي عن «جوركي» وتجهزت للسفر، مسحت أمي دموعها ودعت الله أن يحفظني من كل سوء، ودعتني وهي تستحلفني أن أحذر.

بنات روسيا فاتنات، كدن أن يُنسينني الهدف من سفري، قاومت الشقراوات وأمضيت ساعاتي في المذاكرة، شاب أرعن يظن أنه لو حفظ خطابه عن ظهر قلب ونحى الورقة جانبًا سيبهر الحضور.

بدأت كلمتي بصوت وجل، كنت متهيبًا الحضور الضخم.

رددت مقولات جوركي: ما أروع الإنسان!

كل إنسان له وزن وقيمة، مهما تكن هذه القيمة ضئيلة.

كل الأشياء جزء من الإنسان.

الإنسان وحده هو الكائن وكل ما عداه هو من صنع يديه وعقله.

صفّقوا فتشجعت، كنت نجم اليوم بلا منازع، وكأنني عبد الناصر أخطب في الحشود.

الحفل الأنيق صاخب، لا وجود للبروليتاريا هنا، لم أكن أعلم أن موسكو مليئة بالبرجوازيين، انتشيت، سكرت من جمال الحلوات،

كأي أرعن حلمت بممارسة الجنس بلا قيود.

عيني لم تر غيرها، أنثى كاملة، شعر أسود منسدل ونهدان عارمان، ابتسمت عندما لاحظت نظراتي فتشجعت.

من الواضح أن لخطابي مفعول السحر، الفتاة أعجبت بالشاب الأسمر القادم من الشرق، جلست إلى جواري وتعارفنا، تجاذبنا أطراف الحديث بمرح، شعرت ساعتها أنني ملك، انطلقت واستعرضت ثقافتي؛ إيفان تورجنيف، جوجول، تشيكوف، بوريس باسترناك، تولستوي. تشجعت أكثر وأطلقت النكات ببراعة، دعوتها للرقص، وتلامس جسدانا.

ونحن نتناول العشاء تطرق الحديث إلى مصر وأحوالها، سهّمت، انطفأت أول ما جاءت سيرة الوطن، ردودي المقتضبة لم تعجبها، تريد فهم الشرق الأوسط وها أنا أمامها، استفسرت عن أزمة السويس والنكسة، عن رأيي الشخصي في ناصر ومدى تأثيره في الحكام العرب، حاصرتني بالأسئلة فحاولت تغيير مجرى الحديث، اقلبها مزاحًا يا بهيج كي تهرب من أسئلتها التي تثير المشاكل.

لولا زجاجة الفودكا لمر اليوم بسلام، مفعولها قوي وخصوصًا على المبتدئين، بعد رابع كأس صرت مهرجًا، ضحكاتها جعلتني أستمر، تخليت عن حذري وارتجلت، ذكرتْ اسم ناصر ثانية فرددتُ: ده صعيدي قفل، ابتلعت المتبقي من كأسي ثم غرقت في عرقي.

زملائي صمتوا فجأة فأدركت فداحة خطئي، اثنان انصرفا

متعجلين وثالث نكّس رأسه، ظنت الحلوة أن لصمتي معنى، السكوت في عرف ذات الجسد الممشوق يعني الانتقال إلى الخطوة الثانية.

نهضتْ، أمسكتْ بيدي وسحبتني كالطفل، مشيت وراءها كالمغيّب، خرجنا من القاعة الرئيسية، بدأنا بصعود درجات السلم الموصل للغرف، اللحظة التي طالما حلمت بها قد اقتربت بشدة، قبل أن نصل إلى غرفتي ضغطت على يدي ثم ذُبنا في قُبلة طويلة، أول ما التحمت شفتانا سمعت اسمي يتردد، التفت فوجدت أحد أعضاء الوفد يشير إليّ.

لحق بي وحدثني غاضبًا: ما دمت لا تستطيع التحكم بلسانك فلا تشرب أبدًا، ما قلته غير مقبول، سيصل إلى القيادة السياسية، فالمخبرون هنا كثر، ادعُ الله كي ينجيّك.

لم ينتظر سماع ردّي، تركني وانطلق وكأن الوقوف بجانبي أصبح وصمة عار، الحلوة تستفسر، تسألني: ما الأمر؟ فلا أرد، للصمت في عرفها معنى آخر، ينغلق فمي فتعانقني ثانية، تشير إلى باب الغرفة، تضغط بأصابعها على جيب بنطالي، تغمز لي: أخرِج المفتاح يا مثقف الشرق. أمسكُ بالمفتاح بيد مرتجفة، أفتحُ فتمر إلى الداخل بسرعة.

الخوف والجنس لا يجتمعان، متى ارتجف القلب خوفًا؛ انطفأت الاستثارة. للأسف فشلت العلاقة حتى قبل أن تبدأ، أمر عادي كثيرًا ما يحدث خصوصًا في التجارب الأولى، الأزمة أنني لم

أحاول حتى، كنت مجرد جثة لا تنبض بالحياة، جسدان يلتقيان ثم لا شيء، لا، هناك شيء، ماء دافئ يتسلل.

ماء بمعناه الحرفي، ابتل بنطالي فلاحظتْ، تجاهلتْ الأمر، أملتُ في علاقة عابرة مع ثور همجي أتى من الصحراء، شفتاها أغرقت أنحاء وجهي بالقبلات وأنا ساكن، لم تستطع الاستمرار في التجاهل بعد ابتلال حذائها، الروسية الفاتنة تقف وسط بركة مياه ولا تفهم ماذا حدث، شاب ألقى كلمة عظيمة عن جوركي منذ ساعة لا أكثر، والآن يتبول على نفسه وينتحب، انسحبت، تمتمَت بكلمات لم أتبين معناها وجرت هربًا من الشاب غريب الأطوار، أغلقتُ الباب ولم أحاول اللحاق بها، جلست على أرضية الغرفة غارقًا في مائي، تذوقت ملوحة ما ينسال من عيني وعلَا نشيجي.

يوم مؤلم أكره أن أتذكره، لا أفهم لماذا بعد مرور كل تلك السنين أشعر بغصة في حلقي؛ كلما رأيت شابة بشعر أسود منسدل ونهدين عارمين، لم أغادر غرفتي حتى موعد العودة، لم أستغرب أن أحدًا من زملائي لم يأتِ ويطمئن عليّ، بت أقضي ليلي في كوابيس ونهاري في رسم سيناريوهات عدة، هل سيتم القبض عليّ فور عودتي؟ ربما سوف يتركونني أذهب إلى المنزل ثم يأتون، هل سيحضر زوار الفجر في اليوم الأول أم بعد ذلك، ما ردّة فعل أمي عندما يأخذون ابنها؟

انزلقت بغبائك إلى مستنقع السياسة يا بهيج وستكرر مأساة فريد حداد.

شهر يا حياة، أطول شهرٍ مر على إنسان، أقصى درجات الرعب هي انتظار المجهول، لو أُعدمت فور وصولي المطار لكان أفضل.

لم أصرّح لأسرتي بالأمر، أيام أتحجج بالإرهاق، تستفسر أمي فأكذب مضطرًا: كتاب جديد يا ماما، الفكرة تطاردني ويلزمني الاعتزال بغرفتي، كنت كالمسجون بإرادتي أنتظر تنفيذ حكم الإعدام في استسلام.

كُتب لي عمر جديد، نادتني أمي بإلحاح، صرخت فيّ: اخرج بسرعة، فخرجت، سمعت اسم ناصر في بيتنا لأول مرة، المذيع في الراديو ينعى القائد إلى الشعب، أصوات أنهكها البكاء ترتجل، فنانون ومفكرون وسياسيون يعددون مآثر البطل خالد الذكر، الجماهير تملأ الشوارع والميادين، حليم يجهز لأغنية، وأم كلثوم تستعد لتقديم قصيدة رثاء تليق بالقائد، ناصر مات وأنا صرتُ حرًّا.

انطلقت دموعي، دموع الحرية يا حياة، استغربت أمي ردة فعلي ثم اندفعت في موجة بكاء هستيرية، للموت حرمة وأمي رغم عن كل شيء تحترم ذلك.

ملحوظة: هل تتذكرين دفتري الصغير؟ بالصفحة الثانية دونت هذه الجملة التي لا أتذكر قائلها الآن.

«هناك صنف من الناس في هذا العالم يهوي إلى الدرك الأسفل بمجرد أن يتلقى لطمة قوية، ولا تراه ينهض من سقطته».

أتعرفين، أخشى أن تكون تلك السطور قد كتبت خصيصًا لتشخيص حالتي بدقة.

(5)

الغالية حياة

اليوم قد حظيت باكتشاف جديد، لاحظت أن التفكير في أيامنا معًا مبهج للغاية، الحكي عن بهيج الطفل والشاب جعل قلبي منقبضًا طوال الوقت، من الواضح أن كتابة مذكراتي فكرة ليست بالجيدة، أظن أنه ليست هنالك أي فائدة من معرفتك لأيامي الغابرة، لا شيء أفضل من الحب، كلما استرجعت الحوارات التي دارت في جلساتنا الطويلة يخفق قلبي، يمر الوقت كما الصاروخ ولا أشعر لحظة بملل.

اليوم أجّلت كتابة مسودة مقالي الشهري، أيام وأيام يا حبيبتي أضيعها في مراجعة كلمات لا تهم أحـدا، لا جمهور يقرأ، كما أخبرتك من قبل الجريدة تحتضر منذ سنوات، لولا الدعم الحكومي لأُغلِقت منذ زمن.

أفكر باعتزال الكتابة، مقال أخير لن يقرأه أحد، أستأذن فيه للانصراف، سيتصل بي رئيس التحرير ويتصنع الحزن، بعدها سيتنفس الصعداء فقد فرغت مساحة وسيستغلها أفضل استغلال، سيدفع بكاتب شاب ليحل محلي، يجيد تبرير الأخطاء وتثمين حكمة السيد الرئيس، سيكتب بشغف يليق برجل يهوى «التطبيل».

حديثي ممل؟

أعرف أنه يجلب التثاؤب، إذن دعينا منه.

هل تتذكرين غيبتك الأولى؟ كان يومًا فارقًا في حياتي، ساعتها أدركت أنني لا أستطيع العيش بدونك.

بعد أسبوع من طرقي بابك لأول مرة أصبحت لقاءاتنا يومية، بت أنتظرها بفارغ الصبر، أجلس على الكرسي وأعلّق عيني بسقف الحجرة، أسترق السمع حتى تأتي الإشارة، يبدأ دبيب عكازك في الظهور فأهب، أصعد درجات السلم فأجدك بانتظاري.

أحبك، أحاول قدر استطاعتي تقليد خصالك، الأمل، التفاؤل، حسن الظن. وللأسف أفشل، بابك المفتوح دائمًا كان يؤرقني، لم أر مثل ذلك بحياتي، مدينة جديدة شبه مهجورة، كيف تشعرين بالأمان فيها؟ بمجرد أن تستيقظي تفتحين الباب على مصراعيه، فتى الدليفري مر من أمامي في مرة فارتعبت، أقف بمطبخك فأفاجأ بأحدهم خلف ظهري، يلقي السلام ثم يضع الجبن والخبز في الثلاجة، يشير إليّ كي أبتعد عن رف المطبخ ليستطيع رص برطمانات القهوة والكاكاو والكريمة، انفعلت واستنكرت كثيرًا تصرفاتكِ.

أقول: كيف تتركين بابك مفتوحًا طيلة اليوم، فتنظرين إليّ بتحدٍ، تنعتينني بالجبن وعدم الإيمان بالقدر، أكرر كلمة مجنونة خمس مرات وفي السادسة يقاطعني الشاب مندوب الصيدلية، يسلمك شنطة الأدوية ويسألكِ عن انطباعك على أداء المنتخب القومي، ما لك أنت يا حياة بمباريات الكرة وخطط اللعب واختيارات

المدربين! تعطينه بقشيشًا سخيًا وتودعينه بحرارة، لا يغادر إلا بعد أن تنتهي من هرائك الكروي، تطمئنينه أن حسن شحاتة قادر على الفوز بالبطولة رغم تحفظاتك على تشكيلته.

كنت كالطفل، أنتقد تصرفاتك ولا أقدر على فراقك، أتغاضى عن الكثير من الأشياء كي أبقى بجانبك، مرت الأيام ثم فاجأني السعال، بدأ متقطعا ثم صار يلازمني، تحملته وواصلت الصعود إلى شقتك، زادت آلام الصدر فقررت زيارة الطبيب، أدخلني بدوامة، إشاعات وتحاليل ودستة علاجات، ظهر الموت في الأفق فارتعبت.

لماذا أخاف الرحيل؟ لا أعرف، لا مستقبل أنتظره ولا ماضي أسعد باسترجاعه.

التدخين السلبي ضار بالصحة، رئتاك كالمدخنين يا أستاذ، ابتعد نهائيًا عن السجائر واستنشق هواءً نقيًا.

حدثتك فهزئت بالأمر، قلتِ: كفاك خوفًا يا عجوز، لا تخش الموت، فعندما يأتي سنكون قد غادرنا.

أوضحت لك أضرار التدخين على الرئتين والقلب وخصوصًا لمن هم في مثل أعمارنا، قابلتِ حديثي الجدي بهذر، كعادتك أطلقت النكات: كل طعامًا صحيًا يا بهيج، ابتعد عن السجائر ومارس الرياضة بانتظام، ستموت بكامل عافيتك.

غضبت، تقلصت ملامحي وقطّبت جبيني، انسحبت، تحججت بالإرهاق وغادرت، قررت الامتناع عن الصعود إلى شقتك،

سمعت دبيب عصاك على سقف الغرفة فتجاهلته، هبطتِ وطرقتِ بابي، فتحت فناولتني صينية، قلتِ ضاحكة: خضراوات بلا دهون ولحم مشوي، صحي ومفيد يا رياضي.

لا أعرف لماذا لم أتغاضَ عن الأمر كالعادة، تدريجيًا انسحبت، قلّلت عدد زياراتي لكِ وقلصت مددها، حاولتِ استمالتي، غيّرتِ عاداتك لأجلي، امتنعتِ عن التدخين في حضوري، قلتِ: سأعلق لافتة ممنوع التدخين بغرفة الصالون لأجلك يا عجوز.

أعترف لك: عندما اشتد السعال قررت مقاطعتك، نقرت بعصاك فلم أبالِ، هبطت فلم أرحب بزيارتك، سخرتِ فلم أضحك، قلت كذبًا: مضطر للنزول الآن، لدي موعد ولا إمكانية لتأجيله، سهّمتِ، استغربتِ من طريقة معاملتي لك، ودعتِني بكلمات مقتضبة فأغلقتِ الباب خلفك، ظننت أن علاقتنا قد انتهت إلى الأبد.

مر يومان بلا نقر أو دبيب، عكازك أصبح جزءًا من الماضي، حاولت نسيانك، قلت لنفسي: صحتي أولًا وأخيرًا، لا تفكر في حياة. لها عائلة وليست وحيدة مثلك، وضعك مختلف، إذا ساءت صحتك لن تجد من يعطيك شربة ماء.

في ظهيرة اليوم الثالث خارت قواي، كان السعال قد خفتت حدته، استعدت بعضًا من صحتي، برئ جسدي لكن روحي شاخت، رميت شنطة الأدوية بسلة المهملات، قلت: لا طائل من صحة دون حياة، قررت أن أعتذر، صعدت السلم فوجدت بابك

مغلقًا، خفت وظهرت برأسي الأفكار السوداء، رننت الجرس فلم تستجيبي، طرقت الباب بعنف، لكمته بكلتا يدي وركلته بقدمي، ناديتك بعلو صوتي.

يا الله، يا ترى ماذا حدث لها، لم تغلق بابها قط من قبل، وحيدة وضعيفة البدن وتحسن الظن بالناس، المدينة مهجورة والعمارة شبه خالية من السكان، هل حاول أحد سرقتها؟ استغل الباب المفتوح ومر في غفلة منها، عمال الدليفري غير مريحين بالمرة، كثيرًا ما قلت لها خذي حذرك، هل قاومت السارق؟ ربما كان يحمل آلة حادة وأصابها.

لولا حضور البواب لكنت مت، لا أبالغ بالمرة، تسارعت ضربات قلبي وسَرَت البرودة بأطرافي، رآني وأنا أنتحب فطلت من وجهه ابتسامة صفراء، أبلغني رسالتك: المدام راحت عند بنتها وقالت لي أعرّفك.

الجسد والروح لم يعودا يتحملان الضغوط، القلق والتوتر غير مناسبين لمن هم بمثل عمري، سابت مفاصلي بسببك، ساعة أو أكثر قليلًا قضيتها جالسًا على كرسي بلا حراك، رن جرس التليفون فلم أقدر على الإمساك بالسماعة، نمت بمكاني ولم أستيقظ إلا على صوت طرق الباب، فتى التوصيل متذمر، يقول غاضبًا: للعمارة مدخلان، من اتصل لم يحدد الشقة بأي منهما، أرد: لم أطلب شيئًا، فيسلّمني الشنطة، أستفسر فيقول بنفاد صبر: المدام حجزت الأوردر وأعطتنا عنوانك ورقم هاتفك.

صندوق هدايا، صرت شابًا يا بهيج، أفتحه فأضحك، أنسى الساعتين الفائتتين بلحظة وأتنطط كما الأطفال، قلم ودفتر، تلك هديتك لي يا حبيبتي، القلم محفور عليه تاريخ اليوم، كيف أنسى يوم مولدي، بالناحية المقابلة مدون اسمي، كم أنتِ رائعة، دفتر مصنّع خصيصًا لي، ورق مقوى بلون البحر مزينة أطرافه بالورود، غلاف من الجلد المموج مطبوع عليه «حياة بهيج»، أنظر إلى الكارت اللامع القابع في قاع الصندوق، أمسك به متلهفًا، أفتحه فتغمر الابتسامة وجهي.

«كل سنة وأنت طيب وبصحة وسعادة دائمًا..

لا تتحجج ثانية بنفاد الورق ورداءة الأقلام..

اكتب سيرتك يا عجوز».

لم أنم يومها، ظللت طيلة الليل أفكر بك، متى أحببتك؟ لماذا أنتِ تحديدًا؟ هل الحب ضرورة لمن تجاوز الستين؟ للأسف عدت للتفلسف.

فكرت بالماضي الذي أبغضه بحثًا عن إجابات، سألت نفسي: كيف كانت حياتك العاطفية؟ لماذا تتناسى؟ لا يوجد رجل لم يشعر يومًا بالرغبة تجاه امرأة ما.

تعرفين يا حبيبتي، لا أتذكر ابنة الجيران أو زميلة الجامعة، ربما كنت متحفظًا بعض الشيء أيام شبابي، هل رحلة روسيا جعلتني عازفًا عن النساء كافة؟ ذاكرتي مشوشة، لا قصة حب سابقة تحتل جزءًا من عقلي، ربما هناك فتاة واحدة ما زلت أتذكر بعضًا من

ملامحها، كانت تمتلك «حسنة» أعلى حاجبها الأيسر، اسمها ليلى أو نهى، مخّي لم يعد في أفضل حالاته.

هي من اقتربت، زميلتي في العمل، عُينت بعدي بزمن، اهتماماتنا مشتركة، شرعتْ في تأليف كتابها الأول وتريد رأيي، تعجبها مؤلفاتي وتصر على دعوتي إلى السينما، لم أكن أفكر حينها بالارتباط، البنت ملامحها هادئة، جميلة ومثقفة، خرجنا معًا لأكثر من مرة، جلنا شوارع القاهرة وزرنا الكثير من المراكز الثقافية، سمعنا شعرًا وحضرنا مناقشات كتب.

الفتاة جرّتني إلى الحب وأنا استسلمت، حلوة وتثق بي دون الجميع، كأي شاب رحبت، كنت وحيدًا للغاية، مات أبي وتلته أمي، بعد فترة صارت علاقتنا جزءًا من روتيني اليومي.

لا أتذكر بدقة تفاصيل تلك المرحلة من حياتي، اختفت الفتاة فجأة، حدث أمر جعلني أتغيب عن العمل لمدة وعندما عدت لم أجدها.

بعد تسلُّمي لهديتك ضحكت بشدة، قلت لنفسي: أصبحت خَرِفًا، خوفك غير المبرر وارتعابك من مجرد التفكير في ابتعاد حياة ينبّئ باقترابك من أرذل العمر، العجائز قلوبهم كالأطفال تمامًا هكذا كانت تقول أمي.

نمت يومها بعمق، صحوت بكامل نشاطي، هبطت إلى الشارع وتجولت في الأنحاء بسرور، لفت نظري معرض للزهور تقف على بابه امرأة أنيقة، سيدة في أوائل الخمسينيات تجاهد للاحتفاظ

بما تبقى من جمالها، حيّيتها بود وطلبت منها إعداد أجمل باقة ورود.

ابتسمت وسألتني: لابنتك؟ فتوترت، انكمشت ملامح وجهي، من الواضح أنها أحسّت بانزعاجي فأردفت: الحب لا يشيخ.

قلت كذبًا: الزهور لزوجتي.

فأصرت على إعطائي خصمًا بقيمة 50٪، سلّمتني الباقة ثم قالت باسمة: يا بختها بيك، فهرولت من أمامها لأداري خجلي.

أربعة أيام على هذا الحال، أشتري الورود وأنتظر عودتك، أجلس مرتديًا بذلتي بحجرة المكتب وأنصت لأي إشارة تنبئ برجوعك، لا تدب عصاك على السقف فأصعد لأطرق بابك، يحل الليل فأفقد الأمل وأنام، أول ما أستيقظ أهرع إلى معرض الزهور.

تستغرب السيدة. تضحك: باقة ورود كل يوم؟!

أرد: لم تعد أمس، حدث ظرف طارئ أجّل رجوعها، لا يجوز مهاداتها بورود ذابلة.

أعتقد أنها باتت لا تصدق حديثي، بالمرة الأخيرة تجاهلتني، أول ما مررت إلى داخل المعرض نادت شابًا ليجهز لي طلبي بدلًا منها.

قالت بصرامة: هذا أحمد ابني، ثم انسحبت.

للأسف لا أفهم النساء، قاربت السبعين ولم أتعلم، ربما ظنت أنني أغازلها وشرائي للزهور كان حجة، حمدًا لله أنك عدتِ يومها.

سمعت جلبة على السلم، ميزت صوتك بسهولة، لكِ نبرة مميزة يا حبيبتي، اقتربت من الباب، لم أفتحه بالطبع فأنا كما تعلمين خجول

مع الغرباء، لم تكوني وحدك، البواب أمامك وابنتك جوارك وخلفكما زوجها وحياة الصغيرة، لم أستطع التأكد هل الطفلة تشبهك كما تقولين أم لا، الرؤية من العين السحرية لا تسمح للأسف بالتدقيق، انتظرتُ بفارغ الصبر حتى يغادروا، أطالوا المكوث، من الواضح أنك أصررت على دعوتهم للغداء رفقتك، أتى فتى الديلفري حاملًا صندوق البيتزا بعد ساعة تقريبًا، رأيته من البلكونة وتابعت صعوده، جلست أقرض أظافري وأعد الدقائق حتى يرحلوا، ساعتان مرّتا كالدهر حتى انصرفوا، وقفت خلف بابي أراقبهم وأول ما هبطوا من الدور خرجت، تابعتهم بنظري حتى ابتعدوا ثم صعدت، وضعت باقة الزهور أمام بابكِ ثم هرولت إلى شقتي، جلست على أقرب كرسي ألهث، أقول لنفسي: المراهقون أكثر جرأة منك، لماذا انسحبت كالخائب؟!

انتظرت أن تدعيني للصعود ولم تخذليني، دبيب عصاك انطلق فلم أستطع الانتظار، تجاهلت ضربات قلبي المتسارعة وركضت، أول ما وصلت وجدتكِ تقفين مرحّبة بي، أطلقتِ واحدة من نكاتك، ضحكتِ حتى سعلتِ، أردفتِ: ها قد وصل العجوز الرياضي، ادخل يا بهيج فلا أثر لدخان، أشرتِ إلى النوافذ المفتوحة على مصراعيها فطلبت منك سيجارة، حسبتني أمزح فأصررت، فتحت علبة سجائركِ والتقطت واحدة، قطبتِ جبينك وأنا أشعلها، قلتِ: أنت مجنون. فرددت: ودعت الخوف من الموت إلى الأبد، فعندما يأتي لن أكون موجودًا.

آه يا حياة كفاكِ غيابا.

(6)

عمري الآتي حياة

اليوم قررت كسر الروتين، الجلوس بالبيت دون رفيق أمر منهك للأعصاب، الكتابة إليكِ غير كافية بالمرة، هبطت إلى الشارع وتجولت في الأنحاء، جلست في أحد المقاهي القريبة. المحبون هنا كثر، لم أجد شيوخًا مثلي بالمرة، عرفت أن معهدًا للتكنولوجيا بالجوار لذا يعج المقهى بطلابه، مجموعات من الشبان والشابات يتحدثون بمرح، ثنائيات تجلس بانسجام واضح على الأطراف، ربما حقدت عليهم، أعترف بذلك، فالحياة دون حب لا طائل منها، ذكروني بأيام أحاول تناسيها.

أظن أن برسالتي السابقة أشياء مبهمة، سأدع المواربة جانبًا وأتحلى بالصراحة، اسمها نهى، لست مصابًا بـ«ألزهايمر»، أتذكر كل شيء وكأنه حدث أمس، خمرية البشرة وعيناها خضراوان، أعلى حاجبها الأيسر حسنة وبمنتصف ذقنها طابع الحسن، صوتها رقيق وشفتاها ساحرتان، كانت زميلتي بالعمل، متدربة حضرت فالتف الجميع حولها، تصغرني بثلاثة عشر عاما، نشيطة للغاية ومفعمة بالأمل، بعامها الجامعي الأخير اندلعت مظاهرات الطلاب، أظنك لم تسمعي بها؟ لها عدة مسميات أخرى، من كانوا بصف الرئيس وصفوها بانتفاضة الحرامية والمعارضون أطلقوا عليها ثورة الخبز، نهى المؤمنة بالأفكار الرومانسية اندمجت بكل

جوارحها في الحراك الشبابي، شاركت وهتفت بحماس وضُربت بالهرّاوات، تجربة مريعة لكنها تتعمد إنكار ذلك.

أعتقد أنها أعجبت بي، لتكن صريحًا يا بهيج، كانت الفكرة غريبة عليّ، نسيت الحب منذ زمن، شابة في مقتبل عمرها تغرم بعجوز، صحيح كنت بمنتصف العقد الثالث، لكن بقلب شيخ تجاوز الستين، روتيني وممل ولا أغادر المنزل إلا للعمل، بدأت القصة بطلبها مني مراجعة مسودة مجموعتها القصصية الأولى، أخبرتها فور انتهائي من قراءتها أن المحتوى ضعيف، مجرد خواطر سطحية يا آنسة، لا تصلح مطلقًا للنشر، قلت صراحة: تحتاجين للتركيز في القراءة لفترة وحاولي اكتساب خبرات حياتية، بان على ملامحها الضيق، كشّرت في وجهي وانصرفتْ، ابتعدت لأيام ولم أهتم ثم عادت، اقتربت من مكتبي باسمة وجلست قبالتي، ألقت بود التحية واقترحت أن نلتقي بعيدًا عن مكان العمل، لم يكن اقتراحًا وإنما أمرًا، بعد انتهاء الدوام وجدتها أمامي، قالت: سأعزمك اليوم على الغداء، لن أقبل بأي اعتذارات.

كنت وحيدًا حينها، مات أبي وتبعته أمي، انقطعت علاقتي بأبناء أعمامي، تزوجوا وانشغلوا بزوجاتهم وأبنائهم الصغار، للحق هي فاتنة وأنا بالنهاية رجل، السير بوسط البلد ممتع وخصوصًا لو كان بصحبتك فتاة جميلة، ذاب تحفظي سريعًا، تحدثنا ولم أشعر بمرور الوقت، عرجنا إلى أحد المطاعم واشترينا طعامًا، جلسنا على أحد المقاهي وأكلنا بشهية، شربنا الشاي ثم اندفعت في الحديث، قالت بهدوء: رأيك هو الصواب، كل من قرأ المسودة قبلك أشاد بها،

مدحوا عمق أفكاري وروعة أسلوبي، الكل شجعني على نشرها وبعضهم وعدني بالمساعدة في ذلك، ابتسمت، لم أعرف بما أرد، استطردت: الحقيقة رأيك كان مخيبًا للآمال، سببتك بسري وكادت دموعي أن تتساقط أمامك لذا انسحبت بسرعة، قلت: مغرور وفظ ويهوى تحطيم معنويات الكاتبات الشابات، بعدما فكرت مليًا في الأمر اكتشفت أنك رجل واضح، أشعر معك بالأمان لأنك لا تطمح في شيء، الجميع يجامل، يحب الجلوس رفقة فتاة، يريد للحكاية أن تتطور، بعدما هدأت أعدت قراءة ما كتبته بحيادية فتأكدت من صدق حديثك.

فرحت يا حياة، للمرة الأولى بحياتي أشعر أني مميز في شيء، بُعدي عن الناس رأته نهى نزاهة، طريقتي الفظة في إبداء رأيي اعتبرتها شرف الكاتب، أصبحت لقاءاتنا يومية، ارتدنا السينما وحضرنا عروضًا مسرحية، تناقشنا في شئون الأدب والحياة، أخيرًا اطمأن قلبي المتوجس دائمًا لإنسان، تحدثت معها بحرية، نحيت المواربة جانبًا وأظهرت آرائي للعلن، الغريب أنها انبهرت بها، قرأتْ جميع مؤلفاتي، المنشورة وغير المنشورة، دارت بيننا حوارات شائقة، قسّمنا الأدوار فيما بيننا، أنا مسئول عن ترشيحات الكتب والإجابة عن أي تساؤلات تخص الأدب والنقد، أما هي فدورها ينحصر في تعريف الشاب الذي يحمل قلب شيخ بأماكن جديدة لم تطأها قدماه من قبل، زرنا العديد من أندية الأدب واستمعنا لشعر يلقيه شباب متحمس، قرأنا قصصًا لجيل جديد من الأدباء، جلسنا على مقاهي وسط البلد وعرفتني على كتاب في بداية الطريق، بعد فترة

دعتني لزيارتها في منزلها فرحبت بالأمر على غير عادتي، عرفتني على أسرتها وتناولت معهم عشاءً عائليًا دافئًا، لا أنكر أنني فكرت حينها في أمر تكوين أسرة، زوجة وبيت وأطفال، جاهدت لطرد تلك الأفكار من رأسي، بت أتصنع الحجج لأبتعد: أحتاج إلى العزلة يا نهى، شرعت في تأليف كتاب نقدي ويستلزم إتمامه المكوث الطويل في المنزل، اعتذرت لخمسة أيام عن مقابلتها، في اليوم السادس فاجأتني بالحضور، أتت إلى بيتي دون سابق ميعاد، فتحت الباب فوجدتها أمامي، قالت بمرح: هتروح مني فين؟ فضحكت ودعوتها للدخول، قالت: أحضرت معي مفاجأة لك، خمن ما هي؟ رددت: لا أستطيع التخمين فهذه هي المرة الأولى التي يفاجئني أحد، مدت يدها إلى داخل حقيبتها وأخرجت كتابًا، وضعته أمام وجهي وهي تصيح: «كوثر».

روايتي المغضوب عليها قد صدرت أخيرًا، خرجتْ إلى النور بعد أن ظلت لعامين حبيسة بأدراج وزارة الثقافة، وُزعت اليوم ولم يكلفوا أنفسهم عناء إبلاغي، أمسكت الرواية بلهفة، اقترحت عليها الذهاب للسينما ثم العشاء بمطعم إيطالي للاحتفال، ردت بدلال: سنحتفل هنا، أريد أن أرى كيف تعيش. خلعت حذاءها وربّعت على كنبة الصالون، ارتبكت: لا يصح، نحن وحدنا.

ردت: أشعر بالأمان معك.

ابتسمت رغمًا عن الحمرة التي غزت وجهي ورددت: كما تريدين.

نهضت وأمسكت بيدي: فرجني على بيتك.

جالت في أرجاء المنزل بحرية استغربتها، تصفحت الكتب بمكتبتي وأصرت على ترتيب سريري، مرت إلى المطبخ وشرعت في إعداد الطعام رغم اعتراضي، قالت: أنت وحيد وتحتاج إلى امرأة، أطرقت رأسي هربًا من نظراتها، ضحكت ثم طبعت قبلة على جبيني.

كان يومًا رائعًا، رغم مرور السنين ما زلت أتذكر تفاصيله، أكلنا طعامها الشهي وضحكنا حتى دمعت أعيننا، جلسنا لساعات في الهواء الطلق بجانب النافورة، حكيت لها بعضًا من ذكريات طفولتي، ركبت الأرجوحة وحايلتني كي أدفعها في الهواء، لم نبال بنظرات زوجات أبناء أعمامي وأطفالهن، غادرت في المساء مع وعد بتكرار اللقاء، قالت بحماس: لا تنس، غدًا سنوزّع روايتك على الشباب، استفسرت متجهمًا: أي شباب؟ فردت ضاحكة: رفقاء النضال.

لا أستلطف أصدقاءها، متحمسون بشدة ويطنطنون طيلة الوقت بالشعارات، للأسف اضطررت إلى مجاراتها، لا أحب أن تغضب أو تشعر بالخذلان، جلسة تلو أخرى بمقاهي وسط البلد، خليط من المثقفين والمدعين والمتشدقين بالحرية، تتحدث نهى بفخر عن روايتي كوثر، تفكك رموزها بتمهل وتظهر معانيها الخفية، من يحسبون أنفسهم أبطالًا ثوريين يتململون، يحسبون أن الأدب مقالة سياسية، يرون أن الرمزية زمنها ولّى، يقولون: قل صراحة ما يدور بعقلك، اكتبه على الأوراق كما هو. استدعت نهى «شيء من الخوف» لتقلل حدة التوتر في الجلسة، ضحك الرفاق، قال

أحدهم بعجرفة: مضى زمن عتريس وفؤادة، الشجاع هو من يقول بوجه الغولة عينك حمرا».

بعد عدة أيام اقترحتْ تأجير مكان مناسب لعقد ندوة لمناقشة الرواية، قابلت اقتراحها بالرفض، قلت لها: ليس لي جمهور ولا أمتلك أصدقاء ليحضروا، رفاقك غير مناسبين، لا يحترمون الأعمال التي تحمل مضامين فلسفية، جادلتني فكشرتُ، أنهيت الحوار بفظاظة، أتذكر أنني تفوهت بكلام مسيء وأطلقت السباب.

قاطعت مقاهي وسط البلد ومثقفيها، أقنعتها بصعوبة أن تكون لقاءاتنا بمطعم في مصر الجديدة، أتذكر ضحكتها يومها وهي تقول: أنت أرستقراطي مهما ادعيت عكس ذلك، لا تحب مخالطة الكادحين، رددت مازحًا: جدي كان «بيك».

بعد مرور شهر على صدور «كوثر» قُبض علي، بلا أي مقدمات حدث ذلك، وأنا خارج من مقر عملي اعترضوا طريقي، كبّلوني ودفعوا بي إلى داخل سيارة، غطّوا عيني فارتعبت، تلفت أعصابي وصرت أصرخ بلا توقف، لكمني أحدهم ووضع الآخر يده على فمي، حذرني رئيسهم الجالس بجانب السائق فتماسكت مرغمًا، توقفت السيارة لا أعرف أين، سحبوني وألقوا بي داخل قبو، أزاحوا الغمامة من على عيني فرأيت الظلام، تركوني يومًا كاملًا ينهش الخوف أحشائي، أظن أن ذلك اليوم كان أسوأ أيام حياتي، بعد أن انزاحت عن عقلي آثار الصدمة تدافعت الأفكار، لماذا ألقوا القبض عليّ؟ لم أجد إلا سببًا وحيدًا لذلك، إنها كوثر، يا للعجب! الرواية التي سخر الثوريون من رمزيتها قد دفعت بي

إلى السجن، فكرت كثيرًا في من الفاعل، القارئ العادي لا يقدر على فك شفراتها، ربما أحد من الزملاء قد وشى بي، كاتب أو ناقد يكرهني، أجريت حوارًا صحفيًا فور صدور الرواية وربما قد أزعج أحدهم، أكدت فيه أن كوثر ملحمة اجتماعية كبرى تستحق احتفاء النقاد والقرّاء، ألمحت إلى أحقيتي نيل جائزة الدولة التشجيعية عنها، لعن الله الشللية والأفاقين، أرادوا إبعادي، من حق أي أحد أن يطمح في تكريم، لكن ليس بمثل هذه الطريقة القذرة، أن تدفع ببريء إلى السجن أمر حقير، لكنهم حثالة، مستنقع الثقافة في مصر مليء بالأوغاد. أجيال من المُسوخ تسلم بعضها بعضًا، حتى أصدقاء نهى سيتحولون يومًا ما إلى ضباع، سيمضي الزمن وسيتخلون عن أحلامهم الرومانسية، سينهش بعضهم بعضًا طمعًا في منصب أو جائزة.

أمضيت ليلتي على أرضية قذرة أنتظر، أراقب الجرذان وأفكر بمصيري، ما لائحة الاتهامات وكيف ستكون ردودي؟ سجلي نظيف، لم أشارك يومًا في مظاهرة ولم أنضم إلى أي فصيل سياسي، ليس لي أصدقاء ذوو ميول شيوعية أو ناصريون، أنا وحيد بالأساس وليس لي علاقات اجتماعية، أعرف أن أسئلة المحقق ستنحصر حول كوثر، السادات أعداؤه كثر ورافضو التطبيع يريدون إسقاطه، ربما القبض عليّ بداية لحملة أمنية كبرى، «الرئيس المؤمن» يريد قص ريش المثقفين وأنا أول الضحايا.

جهزت نفسي لجلسة عاصفة، يجب أن أكون صلبًا، بالتأكيد الضابط لم يقرأ الرواية، لو تطرق التحقيق إلى مسألة الرمزية

سأرد: كوثر بالفعل تميل للرمزية لكن رمزيتها ليست سياسية، رؤيتي متعلقة بتفكيك الأسطورة لا الواقع المعاش.

قبل أن أجن من كثرة التفكير فُتح الباب، سحبني العسكري إلى مكتب المحقق، بعد الأسئلة الاعتيادية عن الاسم والسن والعنوان والوظيفة بدأ الاستجواب، الرجل لا يعرفني بالمرة، لا يهتم بأنني أؤلف الكتب، أسئلته تنحصر فقط حول الرفاق مناضلي نهى.

لماذا تجلس مع فلان تحديدًا؟

رأيناك أكثر من مرة في المقهى الفلاني؟

لِمَ تقضي ساعات طويلة مع تلك المجموعة؟

اندهشت، انكمشت ملامحي وتهتهت.

إنهم مجرد زملاء مقهى.

أعرفهم بالكاد.

لا صداقة بيننا بالمرة.

يغضب المحقق، يرفع صوته ويتوعد، يريد مني معلومات لا أمتلكها، أصمت فيكشر، ينادي العسكري ليدفع بي ثانية إلى القبو.

ثلاثة أيام على هذا الحال، تحقيق بلا طائل، باليوم الرابع صرفني، قال بمكر: أنت رجل مسالم يا بهيج، مثقف من طراز رفيع، أعداء البلاد كثر كما تعرف، مكتبي مفتوح لك، أول ما تسمع شيئًا

احضر فورًا وسأكون بانتظارك، لم أرد فاعتبر صمتي موافقة.

خرجت من الظلمات إلى النور، سرت في الشوارع أستنشق نسيم الحرية، عقلي لا يكف عن التفكير، الأفكار تتلاطم بدماغي، لن أكون مخبرًا لأحد، أمشي جانب الحيط طيلة حياتي وبالأخير أتأذى بلا ذنب، بسبب أصدقائك يا نهى ذللت، انتهكت حريتي.

أول ما عدت إلى البيت اتخذت قراري، منزل جدي الريفي هو ملاذي الوحيد، لن أكون واشيًا مهما كلفني الأمر، سأبتعد، سأقيد حريتي بيدي حتى لا يزج أحد إلى السجن بسببي، لم يكن قرارًا متهورًا فليس أمامي خيار آخر.

جمعت ملابسي وكتبي وغادرت، تركت القاهرة ولم أودع أحدًا، أرسلت طلبًا بإجازة طويلة إلى مقر عملي، لولا ميراثي عن أبي لما استطعت تنفيذ قراري، عام كامل بلا مصدر رزق، لم أقابل أحدًا أو حتى أغادر البيت، شدّدت على أبناء أعمامي وزوجاتهم ألا يخبروا أي شخص بمكاني، «قولوا سافر ولن يعود في القريب».

أعرف ما سوف تقولينه يا حياة، ستصرخين: جبان، وسأرد ليس جبنًا، حافظت على نهى، خسرت الحب كي أحميها، ذُكر اسمها لمرة في التحقيقات، لست خائنًا، أنا رجل يؤثر السلامة، أتفهمين؟ كثيرون غيري عملوا طواعية مخبرين للنظام، ترقوا وحصلوا على مكافآت ضخمة، لمعوهم وجعلوا منهم خيرة مثقفي البلاد ومفكريها، أنا لم أبع، فقط انسحبت، خسرت حبيبتي وصرت منبوذًا احترامًا لمبادئي.

آمل ألا أكون قد أزعجتك بحكاياتي، للأسف مضطر إلى الكتابة إليك لأتخفف من عبء الحكاية، بدفتري مقطع لتينسي ويليامز أود مشاركتك إياه.

«عندما يشغل ذاكرتك أو خيالك أمر ما، فإن قوانين الصمت لا تفيد، تمامًا مثل لو أغلقت الباب بالمفتاح في بيت تشتعل فيه النيران، على أمل أن تنسى أن البيت يحترق، لكن الهروب من مواجهة النيران لا يطفئ الحريق، إن السكوت عن شيءٍ يُجسم هذا الشيء، إنه ينمو ويتقيح في صمت، ويصير شيئًا خبيثًا مميتًا».

لهذا أكتب إليكِ يا حبيبتي.

(7)

الغالية حياة

يقول العزيز جوركي: كل من اشتدت به الحاجة إلى شيء لا بد أن يحصل عليه.

لم أؤمن بصدق تلك المقولة إلا اليوم، مفاجأة مربكة ربما ستغير مسار أيامي القادمة، اليوم رن جرس الباب على غير العادة، كذبت أذني أكثر من مرة ثم نهضت مستطلعًا، ثلاثة شباب دفعة واحدة قد أتوا لزيارتي، منصورة وهادي وسيف.

من الواضح أنني كنت فظًا بعض الشيء، فالفتاة احمر خداها وتراجعت خطوتين إلى الوراء، سألتهم بعصبية: من أنتم؟ فرد سيف: حضرتك أستاذ بهيج داود؟ أومأت برأسي: نعم، فغمرت الابتسامة وجهي منصورة وهادي وقالا: نحن قراؤك يا أستاذ، أما سيف فاعتبر إجابتي ترحيبًا ومر إلى داخل الشقة، أشار إليهما بالدخول وراءه فاستسلمت لسياسة الأمر الواقع وصحبتهم إلى غرفة المكتب.

انصرفت لتبديل ملابسي، سرحت للحظات، اندفعت الأفكار برأسي، قراء! هل ما زال أحد يقرأ؟ دونًا عن مئات الكتّاب قرأوا كتبي أنا؟ كيف عرفوا عنواني ولماذا يريدون مقابلتي؟ عدت إليهم، طرحت أسئلتي فانطلقوا في الحديث.

قرأنا أعمالك العظيمة وأردنا التعرف عليك، أمضينا شهرًا في البحث حتى وصلنا إلى عنوانك، لم يفدنا أحد في الجريدة، أرسلنا إليك عشرات الرسائل على الماسنجر ولم ترد، ناشرك أعطانا عنوانًا بمصر الجديدة، البواب هناك ما زال يتذكرك، دلّنا على بيت أحد أقاربك، جئنا إلى فيلا بالجوار تملكها عائلتك، بالأخير نجحنا في الوصول إليك.

انتبهت إلى مظهري المخزي، أرتدي سويت شيرت برتقاليًا وشورت أخضر، انسحبت مسرعًا إلى الخارج، ارتديت بذلتي وأحضرت مياهًا غازية من المطبخ، حملت الصينية ورحبت بهم أخيرًا.

حديث «هادي» كان ملهمًا، سلسلة مقالاتي عن مستقبل الثقافة في مصر كانت محور بحثه الأدبي الأول، يستطرد: لم أكتفِ بكتابك «مصر والثقافة الفرانكفونية» وإنما عدت إلى أرشيف مقالاتك، أمضيت أسبوعًا كاملًا بدار الكتب والوثائق القومية، مستمتعًا بقراءة المبارزة الثقافية الأشهر في الثمانينيات، كم وددت لو عشت في هذه الحقبة وسط زمرة المثقفين أمثالك.

انتشيت، لن أنكر وأدعي التواضع، تذكرت الأيام الخوالي، معركتي مع الناقد الجامعي المغرور، عشر مقالات مقابل مثلها والحكم للقراء، فعل كل شيء ليثبت ثقافة مصر الأنجلوسكسونية، دحضت كل أسانيده وأثبت بما لا يدع مجالًا للشك الأصول الفرانكفونية للثقافة المصرية، أعتقد أنه كان الانتصار الأكبر في مسيرتي المهنية.

قالت منصورة بنبرة دافئة:

كوثر هي مصر الحقيقية دون زيف ولا ادعاء، أغرمت بها ونشرت مقالة مطولة عنها بصفحتي على الفيس بوك، أطرقت رأسي خجلًا من مديحها فأكملت: قصتك حملان ومقعد فارغ تنبأت بالمستقبل، عندما أطلعني هادي على نسخة منها لم أصدق أنها كتبت في أوائل الثمانينيات، قصة تظهر كيفية نقد المجتمع دون أن يتحول الأدب إلى منفستو سياسي.

الشابة عرضت عليّ فكرتها المبتكرة، تريد افتتاح مكتبة ذات طابع عصري، حددت اسمها سلفًا، «بيت ورد»، كتب تكسي الحوائط مع إمكانية الاستعارة المجانية، ندوات شعرية ومناقشات نقدية، موسيقى كلاسيكية في الخلفية وصور لأم كلثوم وحليم تملأ الجدران، مأكولات ومشروبات بأسعار بسيطة وإنترنت مجاني، أثنيت على الفكرة الحالمة، قلت: المشكلة في رأس المال، ردت ضاحكة: المشكلة في الأفكار وكيفية تنفيذها، أثاث بسيط لن يكلف الكثير والكتب بالمئات في مكتبتي، بابا يمتلك شقة بجاردن سيتي، مغلقة منذ سنوات ولن يمانع في أن تكون مقرًا للمكتبة.

هادي رزين، سيف يرفض التوريث، ومنصورة تشارك بمظاهرات حركة كفاية، والثلاثة تجمعهم سهرات مقاهي وسط البلد.

من الواضح أن بضاعتي لم تبر كما كنت أظن، أخبروني برواج مؤلفاتي على مواقع الإنترنت، عشرات الصفحات تقرصن

الكتب وتنشرها مجانًا، بالطبع لم أفهم فحوى الحديث فأوضحت لي منصورة، جعلتني أشغل اللابتوب ثم كتبت في محرك البحث «تحميل رواية كوثر pdf»، ظهرت النتيجة فتعجبت، تخيلي يا حياة، رواياتي منتشرة في الفضاء الإلكتروني، حمّلنا أحد البرامج المختصة بفتح الملفات ذات تلك الصيغة، بظرف دقائق حظيت بمكتبة تضم أغلب أعمالي المنشورة.

عدت شابا يا حبيبتي، جرى الدم بعروقي ولولا الخجل منهم لقفزت في الهواء فرحًا، الشباب يخططون لاحتفالية بمناسبة عيد ميلادي السابع والستين، يحضرها لفيف من الكتاب والقراء الشباب، ندوة أقابل فيها جيلًا جديدًا، شباب يفكر فيما بين السطور، واعٍ ومدرك وغير مُدَّعٍ.

تأخر الوقت فقرروا الرحيل مع وعد بتكرار الزيارة، ودعتهم بحميمية، تخليت عن ردودي الجافة وقلت بصدق: بيتي مفتوح لكم بأي وقت، لن أنسى أبدًا ما قالته منصورة.

بعد أن مرت من الباب إلى الخارج التفتت إليّ قائلة: أنت أيقونة جيلنا يا أستاذ.

أمضيت ما تبقى من اليوم في سرور، انشرح قلبي على غير العادة وصرت متحمسًا، للمرة الأولى أشعر أنني كنت قاسيًا في تقييم نفسي، قدمت شيئًا خلال مسيرتي، ربما بعض مما كتبته قد يعيش، هؤلاء الشباب وغيرهم قرأوا، بالتأكيد تأثروا بشيء مما قدمته، وإلّا لم بحثوا عني؟

أنا لست بغبي، ليسوا بعباقرة، منصورة متحمسة وصادقة لكن أفكارها سطحية، شابة حالمة والزمن كفيل بتعليمها، سيف بغبغان، يردد الاقتباسات الجاهزة بلا وعي، قرأ بعضًا منها على مواقع التواصل الاجتماعي وحفظها عن ظهر قلب، يعجبه دور الثوري لذا تقمصه، ربما يفعل ذلك ليحظى بفتاة أو تقدير ما وسط دائرته، كرر أكثر من مرة جملة «توم بين» ونسبها لنفسه، قال بحماس يليق بحمار: إن لم يكن من محاربة الطغيان بد، فليكن في أيامي، حتى تكون أيام أطفالي أيام حرية وسلام. حشر جملًا لديستوفيسكي وتولستوي ونجيب محفوظ ليبرهن بها على شجاعته وجاهزيته للنضال، أنهى مونولوجه الطويل بجملة محشورة في أغلب كتب اليسار المصري، وغير مناسبة مطلقًا لحوارنا، قال بثقة: المفكر الحقيقي إما في السجن وإما في المنفى، أظنك تتفق معي يا أستاذنا. الغبي حضر إلى بيتي وبدلًا من أن يمدحني ذمني.

الممتع هو حديث هادي، رغم سخرية منصورة من تلاعبه بالألفاظ فهو مثقف حقيقي، الشابة حالمة ومغرمة بالشعارات، لا للتوريث، لا للفساد، نعم للعدالة الاجتماعية، هو ليس بارعًا في الطنطنة، يتحدث عن ضرورة التمييز بين سارتر الفيلسوف وسارتر السياسي فتمط شفتيها، يتكلم بجدية عن معضلة المثقف بين وجوب احترامه لمقدسات الجماهير وبين رؤاه وأفكاره المضادة لذلك فتضحك، يشرح لها الفارق بين التمرد على السلطة والتمرد على الدولة فتقاطعه قائلة: كفى تفلسفًا وهروبًا إلى الكتب.

أعتقد أن معركة في القريب ستندلع، الشابان واقعان في غرام الحسناء، لا أعرف من فيهما سوف يفوز ولكنني متشوق لمراقبة التطورات.

يغادرون يا حبيبتي فأتذكركِ، آه لو كنتِ حاضرة، أحتاج إليك بجانبي وخصوصًا بهذه الفترة، عودة بهيج داود إلى الحياة مرة أخرى تتطلب دعمكِ.

(8)

العزيزة حياة

يومي كان مزدحمًا بالأحداث، من الواضح أنني قد ودعت حياتي الرتيبة، بعد أن تناولت إفطاري زارني هادي، الشاب الخجول أتى ومعه نسخة من أحد كتبي، طلب توقيعي عليها ثم التقط بكاميراته صورة تجمعنا، تحدثنا قليلًا في الأدب، شربنا شايًا ثم سألته عن منصورة وسيف فتقلصت ملامح وجهه.

قال: اليوم ستقام مظاهرة أمام دار القضاء العالي للتنديد بنتائج انتخابات مجلس الشعب، بالتأكيد سيكونان هناك.

عقّبت: ولماذا لم تذهب معهما؟

رد ضاحكًا: لا أمل يا أستاذ.

استوضحت فأردف: لن أجازف بالمشاركة في وقفة احتجاجية، الشعب لن يثور أبدًا، عند أول صدام سينعتوننا بالجواسيس عديمي الوطنية، ما دام الجهل متفشيًا فلا سبيل للإصلاح.

قلت مازحًا: رأيك يحترم لكن أين اندفاع الشباب؟

رد بوجه عابس: غير مسموح في مصر بالتمرد على السلطة، المثقف أراجوز، لك أن تتخيل حال دولة وضع أسسها محمد علي العسكري الأجنبي الذي تعلم القراءة والكتابة بعمر

الأربعين، وعمر مكرم الذي تعلم قليلًا في الأزهر ولم يؤلف كتابًا واحدًا بحياته.

ضحكت، قلت: ما دمت لا تهتم بالسياسة فما الذي يشغل بالك؟

رد بجدية: الأدب ولقمة العيش.

حكى لي بعضًا من تفاصيل حياته، هو من مواليد إحدى قرى محافظة الغربية، ينتمي لأسرة متوسطة الحال، تفوق في جميع المراحل التعليمية حتى التحق بكلية الهندسة، جاء إلى القاهرة منذ سنوات للدراسة وبعد التخرج استقر للعمل.

يقول معقبًا على سؤالي عن نظرته إلى المستقبل: إما نقود وبعضًا من نفوذ وإما هجرة.

الشاب يعمل على كلا المحورين بالتوازي، يعمل بجد ويدّخر قدر ما يستطيع وبالوقت ذاته يحصل على دورات تدريبية متنوعة بالجامعة الأمريكية.

أبتسم رغمًا عني، أقول: أنت دقيق للغاية بالنسبة إلى من هم بعمرك، يرد: العمر يمر كما الصاروخ يا أستاذ، أضحك، أتذكر مقولة تينسي وليامز وأرددها «ما أسرع ما يمضي الزمن، لا شيء يسبقه. إن الموت يأتي مبكرًا. ما يكاد المرء يتعرف على الحياة حتى يلتقي الموت».

يزم شفتيه، يقول بضيق ظاهر: أنا لا أردد الاقتباسات.

أرد بجدية: أعرف ذلك، ما أقصده أنك تعي، تفهم جيدًا وتفكر وتتخذ قرارًا.

انتبهت إلى أن الساعة قد تجاوزت الرابعة، كركبت معدتي إعلانًا عن حاجتها للطعام، قلت: لنأكل معًا، فخجل، اعتذر عن مكوثه الطويل، مازحته: الوقت معك يجري كما الصاروخ، فضحك واستأذن بالانصراف، ودّعته وقبل أن يغادر قال: لا تنس يا أستاذ، فكرتنا بإقامة ندوة للاحتفاء بمنجزك الأدبي، منصورة تفاضل بين أكثر من مكان لإقامة الندوة وأنا أبحث عن ناقد يليق بمحاورتك.

رددت مبتسمًا: لا تسبق الأحداث.

تعرفين يا حياة أن كُتاب اليوم بالمئات، دور النشر تضاعف عددها بالسنوات الأخيرة، أصبحت هناك عشرات الجوائز المعنية بالأدب، من الواضح أن مصر في مرحلة تحول إلى الأفضل، هذا ما أخبرتني به منصورة اليوم، جاءت لزيارتي دون ميعاد، والغريب أنني استقبلتها بترحاب، أشعر ناحيتها بألفة وكأنني أعرفها منذ زمن، تطلق عليّ العم بهيج لا أعرف لماذا، عندما استفسرت قالت بأنه لفظ شائع، ينادون الفاجومي بالعم والأبنودي بالخال، ضحكت فاستغربت، قلت: من الواضح أنني قد فاتني الكثير.

الشابة مبتهجة، تخبرني بحماس عن تفاصيل المظاهرة، تقول بفرح: كثير من المواطنين قد انضموا إلينا، هتفنا لساعات، نادينا بالعدالة الاجتماعية ورفضنا خطة التوريث علانية، لم نهب الحضور الأمني المكثف، ضربوا بهرّاواتهم الأرض فعَلَت أصواتنا بالهتاف، اضطروا في النهاية إلى استخدام قنابل الغاز لتفريقنا.

أضحك بسري وأسألها: كم كان عددكم بالضبط؟

تكشر، ترد بغضب: لا يهم العدد، يكفي أننا كسرنا حاجز الخوف.

أمثّل الاقتناع وأومئ برأسي موافقًا.

تجيب: كنا ثلاثين لكن سبّبنا لهم الرعب.

أحاول إنهاء الحوار، أقاطع حديثها وأسألها: أين سيف؟ تتلعثم، تؤكد أن أمرًا مهمًا في العمل هو ما منعه عن زيارتي، أبتسم: أنا فقط أطمئن عليه، هادي أخبرني أنكما ستشاركان بالمظاهرة لذا أسأل.

ترد: هو متشوق للقائك.

تنفلت ضحكتي، أقول: هو لا يعرفني بالأساس، لم يقرأ لي حرفًا واحدًا وأعتقد أنه لم يكمل كتابا بحياته.

يتورد خداها فأكمل: من الواضح أن هناك قصة حب تتشكل في الأفق.

ترد سريعًا: نحن مجرد أصدقاء.

ألاحظ خجلها فأغير الموضوع، أسألها: هل عائلتك تعرف بأمر مشاركتك في المظاهرات؟ تبتسم، تنهض فأنظر نحوها مستغربًا، تسألني: تشرب قهوة؟ أهز رأسي موافقًا فتكمل: قهوة مضبوطة لنحكي على راحتنا، فالقصة طويلة، أضحك معقبًا وأقول: مضى عهد القصص الطويلة، الجميع بات يفضل الاختزال، من الواضح أنها لم تفهم مزحتي، لم تعلق وتوجهت إلى المطبخ.

الشابة تعرفت على مصر متأخرًا، ولدت بإحدى الدول العربية لأبوين سافرا كأغلب المصريين في تلك الحقبة بحثًا عن لقمة العيش، من الواضح أنهما أحبا سكون الخليج وأمواله فاعتبراه وطنهما، أنجبا الأبناء واستقرا بلا نية في العودة، زيارة سنوية وحيدة، تقضي العائلة أغلبها بشاليه الساحل الشمالي، ثم يشدون الرحال ثانية إلى بلاد النفط.

تضحك: عندما عدت إلى مصر تعرضت للتنمر، تريقة للركب صاحبت كل كلمة نطقت بها بعفوية، «الراتب، السيارة، المكيف، الدوام»، شلة الجامعة اعتبروني أعجوبة آتية من وراء إحدى خيام الصحراء، عام كامل حتى تخلص لساني من تلك اللكنة.

عودتها كانت اضطرارية للالتحاق بالجامعة، سبقها بسنوات قليلة أخوها الأكبر، فور إنهاء الدراسة الثانوية جاء، أربع سنوات بالجامعة المصرية ثم سارع بالفرار، حصل على الشهادة وعاد إلى عائلته يسب ويلعن، لم ترقه الإقامة هنا، «أموال الخليج مغرية والقاهرة مقلب قمامة كبير» هذا ما قاله وهو يحاول إثناءها عن قرار البقاء بمصر، الشابة لم ترضخ لإلحاح العائلة، تنوي عدم مغادرة الوطن أبدًا مهما كانت الأسباب.

«كرهت ركوب الطائرات، مللت السفر، الحياة هنا لها طعم مختلف، لا أرغب بقضاء بقية عمري مغتربة وكأنني بلا وطن»، أضحك على جملها المنمقة، أقول: أمك وأبوك هناك، العائلة وطن.

ترد: الوطن أرض، جنسية، شعور لا تستطيع الكلمات التعبير عنه.

أشرب صامتًا آخر رشفة من قهوتي فتسألني: ما رأيك؟ هل أعجبك مذاقها.

أتأمل بواقي البن المتناثرة على أطراف الفنجان ثم أرد ممثلًا الجدية: القهوة في هذه المدينة الجديدة لا طعم لها، في موطني السابق بمصر الجديدة كانت ذات نكهة أفضل.

أضحك بشدة بالرغم من أنها لم تفهم المزحة، أسعل فتتوتر وتناولني مسرعة كوب ماء، أقول: لا تخافي، أنا صحيح عجوز لكن لن أموت قريبًا.

هي تعيش رفقة جدتها لأبيها، علاقتها بعائلتها لا تتعدى اتصالًا يوميًا من أمها للاطمئنان على الأحوال وحوالة شهرية من أبيها، أخبرتني أنهما لا يعرفان شيئًا عن نشاطها المجتمعي، قالت ضاحكة: هما لا يعرفان بالأساس أن هناك مظاهرات في مصر.

تعرفين يا حياة، وكأن الزمن عاد ثلاثين عامًا إلى الوراء، البنت تشبه نهى تمامًا، نفس الحماس والبراءة والاندفاع، حلت حركة كفاية محل ائتلافات الطلبة واستبدل مبارك بالسادات، لا شيء يتغير في مصر مهما مرت السنون، الشابة تؤمن بالأفكار نفسها: «الديمقراطية هي الحل الوحيد لكل مشكلاتنا، الديكتاتورية هي سبب الفقر والجهل والتخلف»، للأسف حشو الدماغ بكلام الكتب دون الخوض في تجارب حياتية يجعل المرء غير مدرك

للواقع، لم أرد إصابتها بالتشاؤم، مثلت دور الحكيم ووافقت على رؤاها الحالمة.

تلاشت قدرتي على المقاومة عندما رأيت عروق رقبتها النافرة وهي تصيح كالخطباء المفوّهين: لا يمكن أن نقبل بالتوريث، حتى لو أودعونا السجون، لن نرضى أن يحكمنا جمال وأعوانه، لن نوافق أبدًا على تحويل جمهوريتنا إلى ملكية، منعت ضحكتي من الانفلات بصعوبة وإن غمرت وجهي بعض من ابتسامة.

قاطعتها: أي جمهورية تقصدين؟

ردت مستعجبة: جمهورية مصر العربية.

قلت: منذ متى كانت جمهورية؟

ترددت في الرد وكأني أختبرها ثم قالت بصوت خفيض: منذ العام 1952.

رددت بانفعال: كانت ملكية دستورية تشوبها الكثير من الأخطاء يا ابنتي، قرر حفنة من الضباط الصغار إزاحة الملك، نزلوا بالدبابات إلى الشوارع وعزلوه بقوة السلاح، نفوه ثم عيّنوا أنفسهم ملوكًا بدلًا منه، لم يكن للشعب دور في الأمر.

لاحظت احمرار خديها فصمتُ، حاولت تلطيف الأجواء، قلت: أنا عجوز وغير متابع للتطورات السياسية بالسنوات الأخيرة، ربما تغيرت الأمور بالفعل عن الماضي.

ردت بحماس: كل شيء تغير، لا مجال للبطش كما الماضي، منظمات

المجتمع المدني تفضح أي تجاوز ترتكبه الشرطة، عصر تكميم الأفواه قد ولّى إلى غير رجعة.

آه يا حياة، كم وددت لو أحكي لها عن نهى، ستسألين: ماذا ستستفيد من الحكاية؟ وسأرد: لم أكمل لك النهاية بعد، توقفنا عند تركي البيت وانعزالي في الريف لشهور، لم أخبرك بمصيرها. كما تعرفين لم أرد أن أكون واشيًا، انسحبت وعندما عدت لم أجدها بانتظاري، سألت زملاء العمل عنها فحكوا لي القصة باختصار، مثّلت الدهشة وأنا أحبس دموعي بصعوبة، سهّمت وتململت وكأن ليس لي علاقة بالأمر.

من الواضح أن أحدًا ارتضى بدور المخبر عن طيب خاطر، لم أستغرب الأمر فهناك الكثيرون ينتظرون الفرصة ليصبحوا ماسحي جوخ للنظام، بعد عشرة أيام من مغادرتي للقاهرة استدعيت نهى للتحقيق، الحمد لله لم تتأذ، مجرد حديث ودي استمر لنصف ساعة على الأكثر ثم غادرت بسلام.

أغلب مناضلي المقهى حقق معهم أيضًا، تراوحت مدة احتجازهم من يومين إلى خمسة عشر يومًا، واحد أخير بقي، رأى المحققون أنه يشكل تهديدًا لحالة السلم العام فاعتقلوه لشهور، جرائد اليسار وأرامل ناصر هاجوا وماجوا، اعتبروا احتجازه قضية رأي عام، المناضلون القدامى ومثقفو وسط البلد استشاطوا غضبًا، كتبت المقالات الحماسية التي تندد وتدين، وتدافع المحامون طارقين كل الأبواب، بعد كثير من الشد والجذب والمماطلات استسلمت

وزارة الداخلية وأطلقت سراحه، خرج شامخ الرأس معافى البدن فهلل المهللون.

أبناء الأعمام أخبروني أنها قد حضرت إلى فيلا مصر الجديدة لمرات، سألتْ: أين بهيج؟ فطمأنوها، ردوا: سافر ليستجم ولن يعود في القريب، استنكرت: استجمام! فعقّبوا: أعصابه منهكة للغاية ويحتاج للراحة، سألتهم: أين؟ فردوا: لم يخبر أحدًا بمكانه.

بعد ثلاث أو أربع مرات من الحضور يئست، ملَّتْ السؤال عني وسماع الإجابات نفسها، ربما سقطت من نظرها إلى الأبد، بعدها انشغلت في متابعة أخبار الرفاق وآخر تطوراتها، انغمست في النضال، شاركت في الوقفات الاحتجاجية، نشرت مقالًا تعدد فيه خصال الرفيق الذي ما زال معتقلًا، تساءلت: هل هذا هو مصير كل عاشق لتراب وطنه؟

خرج المناضل الهُمام رافعًا شعار النصر، احتفل الجميع بالبطل وكأنه جيفارا الشرق، أصبح نجمًا دون منازع لمقاهي وسط البلد وبارات التوفيقية وعابدين، اقترب منها أو هي التي اقتربت لست متيقنًا، شكرها على مقالها المؤثر، حكى لها عن الجلادين فبكت، روى لها قصة صموده فلمعت عيناها، قال: واجهت ولم أخف للحظة، فانتشت، حضن بكف يده أناملها فلم تمانع. الحالمة رأت فيه عنفوان الثورة فأحبته، بعد فترة قصيرة أعلنت خطبتهما، الجميلة ظفرت بالمناضل ولا عزاء لبهيج الجبان، الخطبة لم تطل فالبطل المغوار جدوله مزدحم.

لم تتأخر المكافأة، فلكل بطولة ثمن، تزوجا ثم غادرا الوطن، الثوري المعارض للديكتاتور ارتمى بحضن ديكتاتور آخر، أخذ زوجته الحسناء إلى صحراء تعوم على بحر من النفط واستقرّا هناك، عُين مسئولًا للهجاء السياسي بإحدى الصحف، عملَ بتفانٍ يليق بعبد، المسئولون هناك اشتمّوا فيه الموهبة، وجدوه ماهرًا في إلقاء الشتائم القذرة فرقّوه، ألقوا إليه ميكروفونًا وخصصوا له ساعة كاملة أسبوعيًا، يطلق السباب بحماس ويجازى نظير بذاءاته بسخاء.

ارتضت نهى بأن تكون ظلًا للمناضل، ودعت اهتماماتها بالشأن العام وانشغلت بتربية الأطفال، من الواضح أن بطلها كان فحلًا في الفراش، فبطنها كلما قذف طفلا استقبل آخر.

للأسف دوام الحال من المحال، بعد سنوات قصار انتهى الدور النضالي لزوجها، عقد ديكتاتورنا الجديد صلحًا مع ديكتاتور الصحراء النفطية، من حسن حظ الرفيق أن البدو، ليسوا مثلنا، أبناء أصول، فحتى لو احترقت ورقتك لا يرمون بك إلى الضباع، رغم كل شيء أجزلوا له العطاء، ملأوا حسابه البنكي بآلاف الأوراق الخضراء وودعوه بود، بالطبع لم يعد إلى مصر، أخذ زوجته والأولاد وانطلقوا إلى دويلة صغيرة كلما حفرت بها بئرًا للماء أفاضت بالبترول، من الواضح أنه أدمن رائحة النفط وليس بقادر على فراقها.

انطفأت نهى، رأيتها صدفة منذ سنوات قليلة، ارتدت الخمار واكتسب جسدها أربعين رطلًا إضافية على الأقل، تغيرتْ لَكنتُها

وكذلك أفكارها، حمدتُ الله أنني لم أقابلها وجها لوجه، شاهدتها ذات مرة في أحد البرامج، لولا اسمها المدون على الشاشة لما عرفتها، لا الشكل ولا نبرة الصوت ولا الأفكار، لقد أصبحت مسخًا بلا أدنى مبالغة.

قناة فضائية دينية التوجه ممولة بأموال شيوخ الصحراء، جاءوا بها لا أعرف من أين لكي تشرشح، يبدو أنها تذكرت فجأة كونها مثقفة وحضرت لتكفّر عن ذنوب الماضي، تخيلي يا حياة، الثورية النقية الحالمة باتت تتحدث بسوقية، تدعو إلى سيادة الأدب النظيف، لم تعد تهتم بالرؤى والأفكار وإنما بإيصال أدب شرعي للشباب يدعوهم إلى الفضيلة، تطالب الإمام الأكبر بالتدخل لمواجهة السموم التي تبثها كتابات المثقفين في العقول، تستغيث بالدعاة الغيورين على دينهم، تقول لهم: اقتحموا عالم الأدب أثابكم الله، اكتبوا قصصًا وروايات نظيفة، وأنقذوا شبابنا قبل أن ينزلقوا في مستنقع الثقافة الغربية الآسن.

آسف يا حبيبتي فقد أطلت الحديث بلا داع واسترجعت ذكريات مرة.

أخيرًا، بالعودة إلى دفتري وجدت هذه الجملة، يقول يوجين أونيل: «إن الزمن يلوث كل شيء، حتى النقي المستعصي».

ما رأيك؟ هل هو الزمن بالفعل أم أن نهى كانت تنتظر الفرصة لتتحول إلى وحش؟

(9)

الغالية حياة

يقول «إميل سيوران»: لا يستطيع أحد أن يحرس عزلته إذا لم يعرف كيف يكون بغيضًا.

التزمت بأن أكون فظًا مع الجميع طيلة حياتي، الاستثناء كان أنتِ، لا أعرف لماذا اختفت تقطيبة وجهي أول ما رأيتك، للأسف لم أكن بغيضًا بشكل كامل مع منصورة، اتضح ذلك لاحقًا عندما توالت زياراتها لي، أصبحتُ العم بهيج، الشيخ الحكيم بئر الأسرار، ترتاح عندما تحكي لي والغريب أنني جاريتها، أعتقد أني سرحت لمرة وتخيلتها ابنتي، الابنة الوحيدة المدللة للكاتب بهيج داود والصحفية الثقافية اللامعة نهى سراج الدين، أعرف أن ذلك مستحيل منطقيًا، لو سارت الحياة بشكل طبيعي وتزوجنا، لكانت ابنتنا الآن قد تجاوزت الثلاثين، تغاضيت عن فارق العمر وبت أدعوها ابنتي، امتلأ رأسي بالموضوعات التافهة، مشكلة سلمى صديقتها والنذل حسام، جدتها ذات الثمانين ربيعًا وفدادين بلقاس التي يطمع فيها الجميع، أَملٌ يا حياة، الثرثرة تسبب لي الصداع، المشكلة أنني غير قادر بالمرة على إظهار ذلك لها، أحبها وأخاف أن تنزعج، أعشق طيبتها التي كالأطفال، صوت ضحكاتها وطريقة نطقها لاسمي. بت أعتبرها جزءًا من عائلتي، حتى إنني فكرت في إعطائها نسخة

من مفتاح المنزل، أعتقد أنه لولا ظهورها بحياتي لما تحملت غيابك الطويل.

مشاكل بالجملة تعرضها وتنتظر رأيي، أتهرب، أقول: خبرتي بالحياة ليست بالكبيرة، أمضيت عمري بين الكتب لا بين الناس، علاقاتي محدودة وكذلك تجاربي، أحول دفة الحديث نحو الأدب، أسألها ماذا تقرئين هذه الأيام؟ ترد بحماس: وضعت جدولًا لقراءات العام وعلى رأسه جميع مؤلفاتك العظيمة، أشعر بالنشوة، تكمل: أنت ظُلمت بعدم طبع الدولة أعمالك الكاملة حتى الآن، أرد ساخرًا: ربما يتخذون هذا القرار بحفل تأبيني؟ تقاطعني: لماذا لا تعرض الفكرة على المسئولين؟ أرد بضيق: لا يصح أن أنزلق إلى هذا المستوى، تعقّب: إذن أكتب مقالًا أعلن فيه عن انزعاجك، أقطب جبيني فتردف: لا يصلح المقال، بالتأكيد سترفض الجريدة نشره، الحل هو بيان تنشره على صفحتك الشخصية، افضحهم ببوست على الفيس بوك، تتقلص ملامحي وأصمت، تهم بالحديث فأمثل المرض، أقول بإرهاق ظاهر: أحتاج إلى النوم فظهري يؤلمني، تودعني مع وعد بالزيارة غدًا.

لا أعرف ماذا أفعل مع هذه البنت، وكأنني طفل أعجز عن اتخاذ قرار، أحيانًا ما أقول: الوحدة أفضل، العلاقات الإنسانية تسبب الضغوط، أقرر أن أكون فظًا، عصبيًا ويكره تطفل الغرباء، كشر يا بهيج بوجهها، اجعل ردودك مقتضبة وتفتقر إلى اللياقة، الشابة حساسة وسينجح الأمر معها، ستمر أيام عصيبة ثم تختفي من حياتك إلى الأبد.

أتدرب لساعة، أتخيل سيناريو للقاء، أزم شفتيّ وأزعق بالكلمات: أنا لست عمًّا لأحد يا آنسة، لا أرتاح لزيارات الغرباء، تظهر أمام عيني كطيف ملائكي، تتسلل الصفرة إلى وجهها، تحاول الرد على حديثي الجاف فتتلعثم، تلمع عيناها إيذانا بهطول الدموع، أحاول التماسك، أصوب عيني نحو الأرض كي لا أضعف، أبتعد عن طيفها، أتحرك ناحية النافذة وأجعل ظهري قبالتها، أستمع لصوت قدميها فأضطرب، يخفت الصوت تدريجيًا فأدرك أنها تتوجه ناحية الباب، أقول لنفسي: ستخرج بعد ثوان، ستغادر حياتك، لحظات قليلة وينتهي كل شيء، أمسمر قدمي في الأرض لأمنعها من التحرك، أضع راحة يدي على فمي حتى لا ينطق لساني بكلمات تفشل خطتي، أغلق عيني حتى لا تنفلت منها نظرة ضعف، ينفتح الباب فأطلق زفرة، ينغلق بعنف فأمنع دموعي من التسلل خارجًا، تمر لحظات من السكون ثم أتحرك مستطلعًا، لا أثر لمنصورة بالمنزل، أرتمي على أقرب كرسي وألهث بلا معنى.

أحاول الاسترخاء بعد أن استنفد التدريب طاقتي، ينطلق رنين الهاتف فأرد منزعجًا، يأتي من الجانب الآخر صوتها المتحمس: جهزت لك مفاجأة يا عم بهيج. أمنع نفسي من الابتسام، أمثّل الغضب وأرد: لا أحب المفاجآت، تضحك: ليس مخولًا لك حق الرفض، بدّل ملابسك بسرعة، سأحضر في غضون ساعة. أرد بخشونة: لمَ ستحضرين؟ تجيب بمرح: جهز نفسك لرحلة رائعة في شوارع القاهرة.

تأتي فتفشل كل خططي، لا أستطيع التكشير أو ادعاء الفظاظة،

أستسلم وتصبح أقصى آمالي التملص من رحلتها المزعة، أحاول تضييع الوقت، أخرج دوسيهًا متربًا من درج مكتبي، أضعه على الطاولة وأقول لها ضاحكًا: سآخذك في نزهة إلى الماضي. تكشر قائلة: سنخرج. أجاريها: إذن فلنشرب القهوة أولًا. تذهب لإعدادها فأنثر الأوراق الصفراء لتظهر كاملة.

أستطيع خداعها لبعض الوقت، تنبهر بقصاصات الجرائد المتهرئة، تقول: الزمن الجميل لا يُعوَّض، ليتني عشت في ذلك العصر. تغوص في الأوراق فأتنفس الصعداء، تلمع عيناها كالأطفال وهي تشير إلى ورقة، تقول: في ذلك التاريخ تزوج أبي وأمي، تحدق في أخرى مبتهجة: يوم نشرت تلك المراجعة عن كوثر وُلدتُ. تضحك: حوارك مع جريدة الأهرام يسبق عيد ميلادي الثالث بخمسة أيام، كنت نجمًا يا عم بهيج، أرد: تاريخي بالكامل لم يملأ إلا دوسيهًا واحدًا يا ابنتي، تعقب: لمَ تدعي عكس الحقيقة؟! أخبارك ومقالاتك تملأ منضدة يفوقَ طولها الثلاثة أمتار. أضحك بصدق من تشبيهها، أقول: هذا عمل ربع قرن ونيف، كان من المفترض أن يتجاوز العشرة أمتار على أقل تقدير، من الواضح أن الشابة لم تفهم المزحة لذا لم أكررها.

لفتت انتباهها ورقة تتصدرها صورة لشيخ معمم فأمسكت بها، قالت باستغراب: ما علاقة المشايخ بالثقافة، فرددت: ليس مجرد شيخ وما يتحدث عنه ليس أدبًا، تهجت الكلمة ثم نطقت: سريالية؟ أفسر: سريانية، الأصول السريانية في اللغة العربية، تفتح فاها ثم تعقب: من الواضح أنني غبية، أكمل: هذا المعمم هو

عضو بارز بمجمع اللغة العربية، كتب مقالًا يشيد فيه بإسهاماتي البليغة، تستفسر: أي إسهامات؟ المقال مبهم، ذكر اسمك واحتفى بتجربتك في سطرين ثم تحول حديثه إلى درس عن أصالة لغتنا الجميلة، أصمت لدقيقة ثم أعاود الحديث، أقول موضحًا: بحثي المعنون «الأصول السريانية في اللغة العربية» هو سبب نشر هذا المقال، استحسنه أعضاء المجمع فأشادوا بي، تسألني: ما عنوان الكتاب؟ فأرد: أي كتاب؟ تكمل: أقصد البحث، أين نشر؟ فأرد باقتضاب: لم يُنشر، تستوضح فأنهي النقاش بلطف.

الشابة مصرّة وأنا الآخر مصرّ، أؤكد بأنني لن أذهب إلى أي مكان، فترد: قل لي سببًا مقنعًا. أقول بنفاد صبر: أهوى العزلة يا ابنتي. تتقمص دور المحلل النفسي، تقول بثقة: الوحدة مريعة. أحدثها بضيق ظاهر: لست بحاجة لنصائح من أحد بشأن أسلوب حياتي. يتورد خداها، تهم بتحريك شفتيها لكن تتراجع، تغلق فمها وتصمت هنيهة، أقول لنفسي: هنيئًا يا بهيج لقد انتصرت أخيرًا على الشابة، قبل أن أتنفس الصعداء تمسك بيدي وتجذبني لأنهض، تقول باسمة: هيا، يجب أن تشهد ما تغير بمصر، أرد: لم يتغير شيء، تعقب بثقة: مواليد الثمانينيات سيدهشونك.

إحقاقًا للحق لقد دُهشت يا حياة، من نزق الشباب وطيشه، البنت تقود عربة فارهة وتصر على ارتكاب جريمة بحق نفسها والناس، تسير كما المجانين، بسرعة قصوى وضغطات متوالية على الفرامل، انحناءات خطرة ويد لا تتوقف عن الضغط على الكلاكس، دمي نشف، أمسكت مقبض الباب بكلتا يدي، انفعلت على غير

عادتي: ما تفعلينه يا ابنتي نهايته الموت، حادثة مروعة ستحدث لا محالة، إما أن تقضي نحبك وإما تدهسي شخصًا بريئًا، ترد بهذر: موت أو سجن، الملافظ سعد. يسود السكون للحظات، تلاحظ احتقان وجهي فتهدّئ من سرعة السيارة، أطلق زفرة وأرى محطة وقود تظهر في الأفق، أشير إليها بالتوقف فتسألني لماذا؟ أقول بنفاد صبر: دورة المياه، تضحك فأنفث غضبي في الهواء، تتوقف فأغادر السيارة مهرولًا.

ما لك أنت بالشباب؟ أقولها لنفسي وأنا أصب الماء البارد على رأسي، أتأمل للحظات ملامحي المذعورة في المرآة، أشعر بإلحاح مثانتي فأركض نحو المبولة، أفك زر البنطال بعجل، تندفع المياه فأطلق زفرة، ثوان معدودة هي ما كانت تفصلني عن التبول ببنطالي، ألعن منصورة والسيارات وعبد الناصر، تنتابني نوبة مفاجئة من الضحك، أقهقه وأسعل، أنظر إلى المرآة وأحدث نفسي: جبان، إلى متى ستظل هكذا؟ لماذا كل هذا الخوف، قاربت السبعين، كم عامًا إضافيًا ستعيش، حياتك مملة ما الجدوى منها؟!

من هبط من السيارة كان «بهيج» أما من عاد فرجل مختلف، ماذا حدث بالحمام يا أستاذ؟ تقولها فأرفع حاجبي وأمثل الدهشة، تكمل: صغرتَ عشرين عامًا على الأقل، أرد بمرح: لا، ثلاثين.

لا أعرف بالفعل ما جرى لي، أول ما عاودنا الانطلاق بدأت بإطلاق النكات، ضحكت من قلبي حتى الثمالة، تحدثت الشابة عن الزمن الجميل فأطلقتُ السباب بطلاقة، للمرة الأولى أدرك أن إلقاء اللعنات من الممكن ألّا يصاحبه غضب، بل نشوة، سيل

من الكلمات البذيئة تخرج من فمي لا تقاطعها إلّا ضحكاتها الهستيرية، نميمة استمرت أغلب الطريق وطالت كل أدباء جيلي والجيل الذي يسبقه، اندمجت الشابة حتى إنها تجاوزت المطعم، بعد كيلو مترين أدركـتْ، قالت بصدق: الحديث معك ممتع للغاية. فعرفت أنني قد زدت في الود رغمًا عني، آه عجوز بهيج خططت للغطرسة ثم نفذت العكس.

توقفت السيارة فتأملت المكان، قلت بغضب: وسط البلد؟ أكره هذه المنطقة تحديدًا، ردت بحماس: المطعم ده تحفة، أنا متأكدة إنه هيعجبك. لم أجد ردًا فهززت رأسي بعدم اقتناع ثم غادرت السيارة.

مكان يفتقر إلى الذوق، بهرجة بغير داع، صور ثومة ومحفوظ ونجم وزويل متناثرة بعشوائية على الحوائط. سيدة خمسينية تستقبلنا بود مبالغ فيه، حضن طويل لمنصورة وست قبلات، ثلاث دقائق من العناق بين المرأتين جعلتني أملّ، أخيرًا تملصت الشابة من بين ذراعيها وبدأت في تعريفها بي، انطلقت بحماس: الأستاذ بهيج داود يا طنط، تمد يدها نحوي فأرتبك، أخرج يدي من جيب الجاكت وأصافحها، تحتفظ بأصابعي في كفها وتقول: وهل يخفى القمر. فأرفع حاجبي باندهاش، تكمل: تربينا على رواياتك يا أستاذ. تزداد حرارة يدي، أود سحبها وأتحرج، يظهر هادي فينقذني، يقترب ويلوّح لنا فتلتفت نحوه مرحبة، أفلت يدي وأشاهد حصته من حنان «الطنط».

جلسنا بأقرب منضدة خالية، قبل أن نفتح أفواهنا وننطق بكلمة تهجم بصينية مليئة بالأكواب وفم لا ينغلق تقترب بحميمية،

تقدم لنا مشروبًا مجانيًا احتفالاً بزيارتي، تنسحب بصخب فأتجرع الكركاديه الماسخ وأتأمل الديكور غير المتناسق، تنظر نحوي منصورة فأسألها: لماذا هذا المطعم تحديدًا؟ ترد بثقة: ستعرف بعدما تتذوق الطعام، ينهي هادي حديثه مع أحد الشباب بالمنضدة المجاورة وينضم إلينا، يرحب بقدومي فأسأله بهذر: توارد أفكار أم اتفاق؟ يضحك قائلًا: اتفاق ومفاجأة في آن واحد، أعقب: فزورة؟ فيردف: أنا ومنصورة معتادان على تناول الطعام هنا، كنا قد حددنا ميعادًا للقاء اليوم، المفاجأة أنها لم تحضر بمفردها، أضحك، أقول لنفسي مؤنبًا: أنت عزول، أفسدت على الشاب غداءً رومانسيًا كان يخطط له، تلاحظ منصورة الاضطراب البادي على وجهي فتتحدث: لقد بدأنا في التجهيز للمشروع، أتساءل: أي مشروع؟ فتكشر قائلة: بيت ورد، هل نسيت؟ أرد مدعيًا الاهتمام: لا بالطبع، تكمل: هادي يتولى متابعة العمال، العمل يتم على نحو مبشر للغاية، غيّرنا الأرضية وطلينا الجدران، سنتسلم الأثاث قريبًا، يعقب هادي: أسبوعان على أقصى تقدير وسيكون جاهزًا لاستقبال الزوار.

أرز بالشعرية وفاصوليا بيضا وكوسة بالصلصة ودجاج مقلي، أنظر إلى الطعام ثم أرفع نظري إلى الشابين، تسألني منصورة بحماس: ما رأيك؟ أرد: رأيي في ماذا؟ ترفع حاجبيها قائلة: في الأكل، أضحك: أي أكل؟ تأمرني: تذوق، فأمسك بالملعقة وأستكشف.

طعام متوسط يفتقر إلى الإبداع، هذا هو رأيي الذي لم أصرّح به، أتذوق الكوسة فأتذكر زوجة عمي وغداء الجمعة المقدس بفيلا

مصر الجديدة، أبسّط لكِ الأمر يا حياة، طعام رمادي، لا هو مصنوع بمهارة شيف محترف ولا هو معد بحب أم لأبنائها، أكل موظفين، هذا هو التعبير المثالي، هكذا كانت تقول لي أمي هامسة كلما تجمّعنا في منزل عمي.

من الواضح أن ردودي وتعابير وجهي أزعجتها، لذا قالت بلهجة تبريرية: هذا هو المطعم الوحيد الذي رأيته مناسبًا لك، أكل منزلي كلاسيكي، يعقّب هادي ضاحكًا: وجبة مناسبة للغاية لأدباء الستينيات، أحاول تلطيف الأجواء فأقول: بالفعل طعام مناسب للغاية لرجل وحيد بلا أسرة، تبتسم وكأنها حققت نصرًا ثم تسألني باهتمام: عجبك؟ أرد كاذبًا: أكثر من رائع.

تعرفين يا حبيبتي، من الواضح أن الأذواق قد تتغير جذريًا بالسنوات الأخيرة، أغلب زبائن المطعم دون الثلاثين، شباب يرتدي الجينز ويفضل الفاصوليا على البيتزا والهمبرجر، هذه «الطنط» عجيبة، تقوم بأفعال غير لائقة بالمرة مع زبائنها، والغريب أنهم لا يستاءون مطلقًا، أحدهم يطلب طبقًا إضافيًا من الأرز فترفض، ترد بحزم: سيب لاخواتك يا نيبو. توبخ شابة لأنها لم تكمل وجبتها، تمسك بيدها وتجبرها على الجلوس ثانية، تقول لها: ممنوع غسل اليدين قبل إنهاء كامل قطعة الدجاج، الغريب أن البنت تضحك مستسلمة وتكمل ما تبقى بطبقها.

أتعجب، أضرب كفًا بكف، أقول لمنصورة: عجبًا، مطاعم آخر زمن! تؤكد بفخر: ولاء تعامل الجميع كأبنائها. تقترب مني هامسة: هي لم تنجب، استأصلت الرحم بسبب ورم، أود أن أرد:

وأنا ما لي، لكنني أصمت وأتابع في ضيق الشابة وهي ترجوها أن تغادر منضدتها لتأخرها عن موعد عمل، أكتم غيظي وأنا أسمعها تقول: معلش يا طنط المرة دي، خلي القطط تاكل، يضحك الجميع على هذا الحديث البائخ أما أنا فأنهض لغسل يدي.

أقف لدقيقة أمام صنبور المياه وأفكر في كيف سأرد إذا ما نادتني ولاء، اتخذت قرارًا بأن أعطيها درسًا في كيفية التعامل مع الزبائن، لو قالت: لم تركت أغلب طبقك؟ سأرد بفظاظة: لأن طعامك بلا طعم، أنتبه لندائها، ألتفت فأجدها خلفي ممسكة بمنشفة، تضعها بيدي ثم تقول مبتسمة: عجبك الأكل ولا إيه؟ فأرد: لم أذق مثله منذ سنوات طويلة.

(10)

حبيبتي حياة

يقول نيتشه: «إن أكثر الأكاذيب شيوعًا هي الأكاذيب التي نوجهها إلى أنفسنا».

لا أعرف لماذا تلك الجملة تحديدًا عالقة بعقلي منذ أيام. أعترف لك بصدق: لم أخادع أحدًا مطلقًا، لم أكذب أو أختلق القصص قط، كل أكاذيبي لم تغادر دماغي، أخدع نفسي طوال الوقت، أمعن في الكذب وقلبي الأبله يصدق، جمل سابقة التجهيز أرددها لنفسي: أنت تميل إلى الوحدة، الكتب هي حياتك، تكره الإزعاج ولا تحب أن يقاطع أحد خلوتك، تقرأ وتهضم تجارب الآخرين لتخرج نتاجًا يفيد المجتمع.

الحقيقة أنني لم أفد أحدًا؛ لكنني لم أضر سوى نفسي، ضاع عمري، بالأحرى أغلبه، في هراء أقنعت به نفسي واستسلمت. ما رأيته اليوم كان مدهشًا بحق، شباب يتضاحكون في حميمية، يتناقشون في خراء لكنهم سعداء وواثقون بأنفسهم، أقول لنفسي الآن، بعد فوات الأوان، لماذا ابتعدت يا بهيج؟ أغلقت الأبواب ورفضت أي بادرة قرب من أحد، لماذا تتمادى في العناد؟

الطعام لم يكن بهذا السوء، تذمّري كان بلا معنى، ولاء لطيفة، فاتنة وبغاية الأناقة، ربما عيناها الجريئتان بعض الشيء وطلاقتها في الحوار تسببان الاضطراب للشيوخ أمثالي.

سأكتفي بهذا القدر من جلد الذات وأكمل لك ما جرى بعدما تناولنا الغداء، غادرنا المطعم مصحوبين بابتسامات ولاء وقبلاتها، لم توافق منصورة على طلبي بالعودة إلى المنزل، أصرت على دعوتي لفنجان قهوة بمكان مميز، صحبتنا إلى أحد المقاهي البلدية بالجوار، لاحظت الاستياء البادي على ملامح وجهي فقالت ضاحكة: عبق الماضي يا أستاذ، رددت مازحًا: لم يكن ماضيّ بهذا السوء يا ابنتي، كنت أرتاد كافيهات أكثر رقيًا.

تعرفين يا حياة، ربما كنت متكبرًا بعض الشيء بشبابي، بالتأكيد تتذكرين أنني عشت بمصر الجديدة وكنت أسكن بفيلا ذات حديقة، قد يكون بعدي عن الناس أيامها عنصرية مني، عدم تقبل للآخر مثلًا، أذكر أن نهى كثيرًا ما علّقت على طريقة تعاملي مع الرفقاء، كان لها ملاحظات كثيرة: ما لك أنت بطريقة تناولهم للطعام، ما علاقة أحذيتهم المتربّة بأفكارهم؟ التأنق ليس معيارًا للحكم على البشر يا بهيج.

من الواضح أنني لا أتعلم من أخطاء الماضي، فللأسف أول ما ظهر صبي المقهى أظهرت بعضًا من امتعاض، سألني باحترام بالغ عن ماذا سأشرب فطلبت علبة كوكاكولا وزجاجة مياه معدنية، ضحك هادي فانتبهت، قال مبتسمًا: لا تخف يا أستاذ، يغسلون هنا الأكواب والملاعق بالمياه والصابون. خجلت فاضطررت إلى الكذب، رددت: طلبت المياه الغازية لأهضم الطعام الدسم الذي تناولنا بالمطعم. تحدثا لبعض الوقت عن الترتيبات النهائية لافتتاح بيت ورد، بعد نصف ساعة وبينما

كنت أهم بالانصراف حضر أصدقاء منصورة.

لم يكن لقاء مدبرًا لذا لم أغضب، المقهى الرديء يجذبهم لقربه من مركز منطقة وسط البلد، لم يخططوا لاجتماع وإنما يحضرون إلى هنا يوميًا لا أعرف لمَ.

في البدء اندهشت، تعرفين يا حياة رفيقك «دقة قديمة»، أغلب معلوماتي بالسنوات الأخيرة أستقيها من الكتب والجرائد، لم أحتك ببشر من زمن لذا جهلت طباع شباب اليوم، أحضان بالجملة وكأنهم لم يلتقوا منذ زمن، ربْتٌ على الأكتاف لم أفهم جدواه، احمرت وجنتاي من الخجل وأنا أرى تبادل القبلات بين الشباب والشابات، من الواضح أن هادي يشبهني، فقد اكتفى بسلام «اليد» فقط وتقلصت ملامحه كلما اقتربت شفتاه من وجه منصورة، بعد أن تلقت البنت رابع قبلة تحول وجهه إلى ثمرة طماطم ناضجة، للأسف لم تبال بغضبه الظاهر وأخذت في تعريف الجميع بالعم بهيج.

شباب لم يقرؤوا لي حرفًا، لكنهم اهتموا رغم ذلك بمعرفة رأي الكاتب الكبير في الأحداث الجارية، تملصت كعادتي، قلت لهم: أحب أكثر الاستماع إلى آراء وأفكار الأجيال الشابة. من الواضح أن جملتي الحمقاء أعجبتهم، احتفوا بها، أوّلوها، استخرجوا منها معاني لم أقصدها، أعترف: لقد شعرت بالزهو، جملة فارغة أطلقتها لأتهرب جعلتني بنظرهم حكيمًا، أعجبني دور العراب فأردفت: أنتم المستقبل، نحن ماض بغيض، لم نفعل شيئًا بحياتنا غير الحديث الصاخب والنطق بالشعارات.

شباب اليوم مختلفون، عرفت ذلك متأخرًا، أجبروني على تغيير وجهة نظري المسبقة عنهم، من الواضح أن هذا الجيل قد هجر الطنطنة بغير رجعة، لا يرددون الهتافات الجوفاء مثل مناضلي الماضي. أغلبهم «أولاد ناس».

آسف، لقد عاد بهيج ثانية إلى عنصريته البغيضة، ما أقصده أنهم حاصلون على تعليم جيد ويعملون بوظائف محترمة، أبناء أسر ميسورة ودخلهم المادي أكثر من ممتاز.

يصعب عليّ هادي، جالس وسطهم كالظل، مثقف لكنه لا يمتلك كاريزما، حتى لا يجيد مثلي فن التملص، يتورط معهم في الحديث ثم... لا شيء، لا يستطيع أن يكون محورًا للاهتمام فيتقوقع على ذاته، يجلس في صمت ويراقب عيني منصورة اللتين تلمعان وهي تستمع إلى أحدهم.

على الرغم من أنني لا أحب مثل هذه الجلسات لكنني استمتعت، الثقة بغير غرور والمعرفة بلا ادعاء جعلتاني منصتًا لحديثهم الحماسي. عرفت متأخرًا أن مصر مليئة بمنظمات المجتمع المدني الفاعلة، شباب جريء ساند بلا ذرة خوف اعتصام عمال الغزل والنسيج بالمحلة الكبرى، لم يرهبوا بطش الدولة وأجبروا الحكومة على التراجع عن قراراتها، آخرون يقدمون الدعم النفسي لضحايا التعذيب ويفضحون ما يحدث داخل أقسام الشرطة، مجموعات متحمسة تكافح بضراوة لإنشاء أحزاب سياسية بشكل قانوني، ومئات يقدمون خدمات تطوعية عدة للارتقاء بالمجتمع.

لن تصدقي يا حياة، بهيج العجوز البائس امتلأ قلبه بالتفاؤل، أول ما وصلت إلى المنزل جلست على مكتبي، أمسكت بالورقة والقلم في حماسة وعدت كما أيام الشباب، كتبت فكرة لرواية، أرى أنها ستكون فارقة، سأدوّن قصة حياة فريد حداد.

هل تتذكرينه؟ عمو الطبيب الطيب صديق العائلة، الذي مات جراء التعذيب بالمعتقل، أظن أنني قد أخبرتك سابقًا بتلك القصة.

من الواضح أنني قد أصبح منشغلًا على غير العادة، مناقشة مزمعة لأعمالي وفكرة رواية ستلتهم الجزء الأكبر من وقتي، ياه يا حبيبتي، وكأن الدم قد عاد مجددًا إلى الجريان في عروقي، طبقًا لطريقة حسابك للعمر الحقيقي للإنسان فقد كبرت، زاد عمري شهرًا، ظهور هؤلاء الشباب بحياتي قد حسّن حالتي المزاجية، هادي هو من ذكرني بموعد لقائنا الأول، قال وهو يقرض أظافره بتوتر: 30 يومًا مرت منذ زيارتنا الأولى لك وهي تقدم قدمًا وتؤخر أخرى، أستفسر عن معنى حديثه فيرد: يوم حضورنا لمنزلك اتخذت منصورة القرار، بعد أن انصرفنا سلمتني مفتاح شقة جاردن سيتي، بدأت مباشرة في العمل، بذلتُ مجهودًا ضخمًا وأضعت الكثير من وقتي في تجهيز المكان، وبالأخير تتردد، أسأله بصدق: لم أفهم، من فضلك وضح لي المشكلة، يكمل بضيق ظاهر: بيت ورد أصبح جاهزًا وهي تؤجل افتتاحه بلا سبب مقنع، أود أن أقول له: وانت ما لك، لكنني أخجل، يطلب مني بود أن أحدثها، أوافق وأهاتفها فتنفرج أساريره، ترد الشابة فأسألها عن أخبار بيت ورد، ترد ضاحكة: سيكون أنيقًا سنمنع

عامة الشعب من الدخول، أقهقه وأجاريها، أقول مازحًا: لن أقبل بأقل من ذلك، النُّدل يجب أن يرتدوا بِذَلًا كاملة ويفضل وضع «بيبيون» على الأعناق، يضحك كلانا من القلب، أسعل لثوان ثم أسأل في خجل: متى الافتتاح؟ ترد بمرح: قريبًا، سيكون يومًا مميزًا لك، أستفسر: وأنا ما لي؟ فترد بحماس: الافتتاح الرسمي سيكون يوم مناقشة أعمال الكاتب الكبير بهيج داود، لا أستطيع الرد، أتلعثم ثم أصمت، مشاعر شتى تجتاحني، تكاد دموعي أن تسيل لا أعرف لماذا؟ هادي القريب مني والمستمع للحوار يبتسم ويهمس إليّ: متى الموعد تحديدًا، أسألها بخجل فترد: حزر فزر. أصمت وتمر الثواني ثقيلة، تقول ضاحكة: فشلت؟ تكمل: بسم الله الرحمن الرحيم، إجابة السؤال الأول والأخير، الافتتاح سيكون يوم ذكرى ميلادك يا أستاذ.

هادي يتحول من النقيض إلى النقيض في ثانية، تناسى الموضوع وكأنه لم يكن، رسم ابتسامة على وجهه وأصر أن يعد لي القهوة، جلسنا لساعة ندردش، تكلمنا عن الأدب وأحوال المثقفين، بعد فترة سئمت، لا أحب تلك الشخصية يا حياة، ظاهره ليس كباطنه، يخفي بركانًا خلف جبل من الثلج، حاولت أن أجعله يُخرج ما في قلبه، قلت: لا تغضب منها فرد بمرح: كبر دماغك يا أستاذ.

فجأة ودون أي تمهيدات يدعوني إلى نزهة، أرفض فيلح: أصدقائي يتوقون إلى رؤيتك، أقول بسرّي: أي أصدقاء، أنت مثلي وحيد، أخترع حججًا واهية تمنعني من النزول، يفاجئني: إذن لنؤجلها

للغد، يكمل: لن تندم، ستقابل مثقفين حقيقيين، بالتأكيد ليسوا مدعين كأصدقاء منصورة.

حمدًا لله أن الشاب لا يمتلك سيارة، لن أتحمل أحدًا آخر يقود برعونة، قابلني كما الميعاد أمام مدخل العمارة، سرنا لدقائق ثم أشار إلى تاكسي، أول ما ركبنا بدأ في وصلة طويلة من الامتداح في شخصي وأفكاري: أنا في غاية السعادة لموافقتك، العزلة لا تليق بك، الوسط الثقافي في حاجة إليك، أقاطعه: من سنقابل تحديدًا؟ يرد: أصدقائي، أعقب: كتّاب مثلك؟ فيضحك: لم نصبح بعد كتّابا يا أستاذ.

من الواضح أن الجميع بات يفضل المقاهي الرخيصة وخصوصًا القذرة منها، أجلسني على مقهى يطابق الذي صحبتني إليه منصورة، أول ما وصلنا استقبلني أصدقاؤه بحفاوة، ستة يافعين أكبرهم لا يجاوز الثلاثين ربيعًا، لا أفهم لماذا عانقوني بحرارة، ربتوا على كتفي وأحدهم قبّل رأسي، عرفوني بأنفسهم في دقائق قليلة ثم بدأوا في تملّقي، أكره ذلك الفعل وإن لم أختبره قبلًا، وكأنهم يجلسون في معيّة عباس محمود العقاد لا بهيج داود الذي لا يعرفه أحد، انطلقوا في إطلاق كلمات التفخيم الرنانة ولم أستطع منعهم: مفكرنا الكبير، روائينا العظيم، أحدهم تمادى وجعلني «عرّاب الجيل»، أخرجوا هواتفهم والتفوا حولي، التقطوا أكثر من صورة تجمعنا.

أنظر نحو هادي، أريد سؤاله: ماذا قلت لهم يا ولد؟ هل أفهمتهم أنني كنت وزيرًا سابقًا للثقافة؟ أم حائزًا على جائزة نوبل في

الآداب؟ من الواضح أنه قد بدأ في إتقان فن التملص، ابتسم وهرب بعينيه بعيدًا عني مفسحًا المجال لأصدقائه كي يكملوا محاصرتي، أحدهم منحني البكوية، كلما التفت يهب سائلًا: هل تريد شيئًا يا بيك؟ آخر يصر على أن السبب الحقيقي لتدهور حال كتابات الجيل الحالي؛ هو بعدهم عن استقاء روافد الإبداع من القدير بهيج داود؛ والعظماء من أبناء جيله، بغض النظر عن أن أحدًا منهم لم قرأ حرفًا واحدًا مما كتبته، فالناظر إليهم سيقسم بثقة أنهم حواريون مخلصون، للرجل العجوز الجالس ساهمًا وسطهم والذي هو أنا.

أحاول تغيير دفة الحديث، للأسف لا يعطونني فرصة مطلقًا، كلما هممت بفتح فمي ينطلق أحدهم بمدحي، أيأس فأفكر بالمغادرة، أود الصراخ فيهم: أنا روائي مغمور، أعمالي لم تكن يومًا رائجة، أتململ فيلاحظ هادي، أكشر فيبتسم، أنهض فينهضون، يقول أحدهم: الحمام على اليمين يا أستاذ، يعقب آخر: نسكافيه أم عصير مانجو؟ يحاصرونني من كل جانب فأستسلم وأعاود الجلوس، ينتهون أخيرًا من وصلات المديح، يعم السكون فأتنفس الصعداء، يبدؤون من فورهم بطرح الأسئلة العجيبة.

لا أستطيع تقديم الإجابات، الشاب أوقعني بورطة ولا أستطيع الفكاك، واحد يسأل بخبث: هل صحيح أن محفوظ (نام) مع زوجة نجيب سرور؟ هل هو سبب جنون الرجل؟ أرد بانفعال: لا أعرف ما يدور بغرف النوم، يعقّب: لماذا لا تخبرنا بالحقيقة؟ أرد بنفاد صبر: أنا بصدق لا أعرف، يتطوع آخر بالدفاع عني: الأستاذ

يتحرج، يقاطعهم هادي: فلتغير الموضوع فالأستاذ يكره الطعن في رفقاء جيله، أتنهد بارتياح فيعاجلونني بسؤال مبهم، هل كان أديب الشباب صديقك؟ أستفسر: عفوًا، من هو أديب الشباب؟ يستنكر أحدهم: هل نسيت «محمود عبد الرازق»، فأرد: لم أسمع بهذا الاسم قبلًا، يتدخل آخر في الحوار، يسألني: هل كان بالفعل مجنونًا؟ يتدخل هادي أخيرًا: الأستاذ لا يحب النميمة، جئنا إلى هنا لنتحدث في الأدب وليس شيء آخر.

أجلسهم هادي كالدجاج وعرّفني بكل واحد فيهم مرة أخرى، فلان يكتب القصة، علّان يقرض الشعر، فلان مشروع روائي متميز، وعلّان مؤلف مسرحي موهوب، شعرت بالملل ومن الواضح أن ملامحي قد فضحتني، قال: أخرجوا نصوصكم يا شباب، نطق بكلماته فظهرت الأوراق، كل واحد منهم دوّن اسمه على صدر أوراقه وكأننا بامتحان نهاية العام، نبّههم بأن يضع كل منهم رقم هاتفه أسفل اسمه، قال: ليتمكن الأستاذ من التواصل مع صاحب كل نص، جمعها بعدها ووضعها بيدي، استفسرت فوضّح: هذه نماذج من كتاباتنا نتمنى أن تطلع عليها، صمت للحظات، قلت لنفسي: كمين يصعب تجاوزه، خجلت من إحراجهم، قلت بود: سأقرؤها متى يسمح الوقت. عقب هادي: الأستاذ سيقرأ قريبًا جدًا نصوصكم، وسيضع يده على الأخطاء ونقاط القوة، سنجتمع مرة أخرى للاستفادة من خبراته، نهضت فنهضوا، حاولوا تكرار وصلة المديح فتمتمت بكلمات شكر مقتضبة وتحركت، أوقفني، همس بأذني: لا يجوز الانصراف دون

وداع، تناوب الشباب على عناقي، كتمت غيظي وأنا أستمع لوعوده: سنحدد موعدًا أسبوعيًا للقاء بالأستاذ، ينظر إليّ مبتسمًا: لا مجال للاعتذار فأنت مرشدنا، يحاصرونني فأرضخ، يحددون يومًا وساعة للجلسة المزمعة، أومئ برأسي وأهرول بعيدًا عنهم.

للمرة الأولى أدرك فوائد للعمر المديد، لم يعاملني أحد من قبل بمثل هذه الطريقة، هل تناسيت وضعي الطبيعي وتوهمت العظمة؟ مفكر، عراب، مرشد للجيل، أظنني قد انتشيت رغم نكراني طيلة الوقت لذلك.

لا أعرف ما هدف هادي من هذه المقابلة، الشاب لا يفعل شيئًا بعفوية، ثم إنه يهوى الوحدة مثلي فمتى ظهر له أصدقاء؟ تحججه بإخراجي من عزلتي غير مقنع، قررت أن أتجاوز تلك النشوة المؤقتة، لن يدفعني الشباب إلى تصديق كذبتهم، لست أستاذًا لأحد وعمري ما كنت مرشدًا، سيكون لقاؤنا القادم هو الأخير، جلسة مقتضبة ثم أغادر بلا عودة، ليس هناك داع إلى تغيير نمط حياتي بآخر سنوات العمر.

أصرّ على مرافقتي، استقل التاكسي وجلس إلى جواري، ارتكز أغلب حديثه عن منصورة، من الواضح أن قدراتي الذهنية قد تراجعت مع تقدمي بالعمر، في زيارته الأولى إلى منزلي حسبت أنه متيم بها والآن اتضح لي أنه لا يطيقها بالمرة.

(11)

القريبة رغم بعد المسافات «حياة»

يقول «سارتر»: إن المثقف إنسان يتدخل ويدس أنفه فيما لا يعنيه. لا أعرف هل تتفقين معه أم لا، طوال عمري كنت معارضًا لتلك المقولة، ربما جبني الشديد هو السبب، الآن قررت أن أتدخل وأدس أنفي، سأكتب روايتي الأخيرة بلا تحفظ أو مواربة، سيرة فريد حداد ستخرج أخيرًا إلى النور.

بدأت بالفعل في مرحلة التحضير، للأسف جمع المعلومات لم يكن سهلًا كما توقعت، الإنترنت لم يقدم لي جديدًا، كلما كتبت بمحرك البحث اسمه ظهرت نتائج غير دقيقة، دكتور فريد حداد استشاري الأطفال، عيادة فريد حداد لطب الأسنان، أضفت كلمة «مسيحي» إلى بحثي فامتلأت الصفحة بصور وأخبار سياسي أردني يحمل نفس الاسم، بعد الكثير من المحاولات عثرت على مفاجأة من العيار الثقيل، موقع مؤسسة البابطين الشعرية، وجدت في صدر إحدى صفحاته صورة فوتوغرافية لفريد، مدون أسفلها «سيرة مختصرة للشاعر فريد وديع حداد، ولد في القاهرة بعام 1922 وتوفي بسجن أبو زعبل في 29 نوفمبر 1959».

جلست لساعة أتأمل المعلومات القليلة بالمقال، أدون بضعة أبيات من أشعاره، شعرت بالعجز يملؤني، لم أكن أعرف قبلًا بأنه

شاعر، الرجل لم يفارق مخيلتي منذ أيام طفولتي واكتشفت أنني أجهل سيرته، بعد ساعات من اليأس تجاوزت إحباطي، أعدت عملية البحث مرة أخرى باستخدام اسمه الثلاثي، تهت في النتائج، جوجل يصر على أن وديع حداد هو والد المطربة اللبنانية فيروز، ومحرك البحث YAHOO، يؤكد أنه قيادي فلسطيني وأحد مؤسسي الجبهة الشعبية للتحرير، أغلقت اللاب توب بضيق، أعلنت فشلي وقررت أن أتراجع عن الفكرة، كيف سأكتب رواية عن شخص اتضح لي أنني لا أعرفه.

ذهبت للنوم فلم أستطع، ظللت أتقلب على السرير وبالنهاية نهضت، جلست على مكتبي وأمسكت بالقلم، قلت لنفسي: كفاك روحًا انهزامية، لا تستسلم بسهولة، بالرغم من معلوماتي الشحيحة عنه فإنني أخذت في تدوينها، كتبت على الورق كل ما أتذكره عن عائلة «حداد»، حاولت استرجاع ماضيّ، أحاديث أبي المقتضبة عن فريد وأبيه، جلساتي الطويلة مع جدتي وذكرياتها عن والدته «هلجريد»، عمي محمود وفترة عمله مع والده «وديع» بمستشفى مدرسة القاهرة الطبي، يوم انهيار أمي بعد وداعها لـ«إيدا» زوجته وأبنائها الثلاثة.

بعد أذان الفجر بدقائق كنت قد انتهيت، سودت عشر صفحات كاملة تحتوي على شذرات من حياته، زال أغلب توتري بعدما وضعت الخطوط الأولى لروايتي، وضعت عنوانًا للعمل أظنه مناسبًا، «**الهروب من الظل**».

أعتقد أن السبب الرئيسي للراحة النفسية التي غمرتني فجأة هي

عودة إيماني بالحياة، بَعْث فريد مرة أخرى أعطاني هدفًا أعيش من أجله.

قلت لنفسي: ليس المهم هو التفاصيل، الغاية هي تعريف الأجيال الشابة بإنسان قلّ وجوده بيننا، عدت إلى السرير لكن هذه المرة منشرحًا، انتظرت نومًا هادئًا بعدما انتهيت من رسم المحاور الرئيسية للرواية، تسللت مقولة «أكوتا جاوا» إلى عقلي فأطارت النوم من عيني، كان الكاتب الياباني قد تساءل في إحدى مسرحياته: «هل الصدق من الكماليات القاصرة على الأغنياء؟» ودّعت النوم واستسلمت للأرق، تأملت حياة فريد حداد، أب ميسور الحال كرس حياته لمساعدة الفقراء، هكذا كان **وديع**، أم مؤمنة تقدم دروسًا وعظية لرواد عيادة زوجها، هكذا كانت **هلجريد**، طفل عاش طفولة سعيدة دون مشكلات مادية، درس بأفضل المدارس الأجنبية بالقاهرة، رأى في أبيه مثلًا أعلى فقرر إكمال مسيرته، طبيب وسيم متزوج من أجنبية فاتنة ويمتلك سيارة حديثة، يعالج الفقراء ويعطف عليهم، وهم بالمقابل يعاملونه بإجلال يليق بقديس.

تعرفين يا حياة، ضبطت نفسي متلبسًا بالعنصرية، للأسف فقد دار بعقلي لبعض الوقت؛ أنه لولا الطبقة الاجتماعية التي انتمت إليها عائلة «حداد» لما أصبح فريد على ما هو عليه، لو جرب ضيق الحال والعوز لما كرّس حياته للفقراء، لو لم يمتلك ثمن طعامه لما انشغل بقضايا الوطن، حمدًا لله أنني قد أفقت سريعًا، قلت لنفسي مؤنبًا: كفاك ابتذالًا، لا علاقة للفقر أو الغنى بالشرف.

لقد فكرت في مفتتح للرواية يا حبيبتي، أبيات من الشعر ظننت أنها مدخل مناسب.

تبقى النخلة

عطشى

وتموت

ولا تحني قامتها.. للريح

للأسف بعد أن دونت تلك الأبيات على الورقة وكتبت اسم مؤلفها بالحواشي تراجعت، اكتشفت أنها من تأليف شاعر انحنى مرة، هل تتذكرينه؟ حدثتك عنه في رسائلنا الأولى، الذي قال: أخاف من صوت دوريات الشرطة، الرجل الذي فضّل الحياة بالغربة على الموت في وطنه، قررت حذف تلك الأبيات، ما رأيك في مفتتح آخر للرواية من أشعار نجيب سرور؟

كان رأسه رائعًا

وقلبه أصيلًا

وعيناه نقيتين كعيني طفل

وعقله عميقًا

ونظرته.. مرحة.. في طفولته

أما قبضته.. فبدا أنها تنضم

على عاصفة

ما يؤرقني الآن هو كيف سأبدأ، هل أستهل الفصل الأول بلحظة ميلاده أم بمشهد قتله، يشغلني التسلسل الزمني، هل أستخدم الطريقة الكلاسيكية في السرد، ميلاده، شبابه، انخراطه في العمل السياسي، إلقاء القبض عليه، أم أستعمل تكنيكًا مغايرًا؟ أفكر في مشهد أظنه يمثل الذروة، لحظة معرفة «إيدا» زوجته بنبأ مقتله، هلعها وانطلاقها بالشارع غير مصدقة، طرقها على أبواب الجيران وإصابتها بجنون لحظي.

شرعت في كتابة كروكي للرواية، سيظهر الجد «حداد»، رجلًا مقدسيًا صلب العود، صاحب قامة مديدة وشارب ضخم، شاب بمنتصف الثلاثينيات يتخذ قراره الصعب، الرحيل عن فلسطين، مغادرة بلدته القدس باتجاه بعلبك بلبنان، سنوات قليلة من الشقاء ثم يتكيّف، ينجب الأولاد ويندمج في المجتمع الجديد، يؤسس تجارة ويشيد دارًا، كلما توسعت أعماله يزداد إيمانه برحمة الرب، ينفرج الحال فينسى أيام البؤس، يشتاق إلى وطنه فيزرع عشق فلسطين في قلوب أبنائه.

يشب وديع «والد فريد» ولدًا طيبًا ومتسامحًا، وقته موزع بين مذاكرة دروسه والصلاة في الكنيسة، يتفوق على أقرانه بالمدرسة ويظهر نبوغًا مبكرًا، ينهي دراسته المتوسطة ويشد الرحال إلى بيروت، يلتحق بكلية الطب هناك فتغرق عينا أمه بالدموع، ليست حزنًا وإنما فخر، فرحة تمشي على قدمين وأمل بالمستقبل، هكذا كان بالنسبة لوالديه، لا يبخل الجد حداد على ابنه بالمال، يؤجر له غرفة أنيقة قرب الجامعة ويسلمه أول كل شهر مبلغًا

يكفي تغطية كل احتياجاته المعيشية، يتخرج الشاب طبيبًا فتقيم العائلة الاحتفالات.

وديع الوسيم الكُلي الحضور لا يهتم إلا بعمله، لا يفكر بالزواج لكن الجميلات لا ييأسن، صدفة تجعله يبدّل رأيـه، يقابل «هلجريد» بالكنيسة فيفشل في إبعاد نظره عنها، تلاحظه أمه وتبتسم، تلكزه مازحة فيخجل وينسحب مغادرًا، تتقدم نحو الفتاة وتتعرف عليها، تدعوها لزيارتها، تخطط تزويجها للشاب الوسيم الذي أصبح طبيبًا.

أنا روائي فاشل، سردي تقريري ولغتي تفتقر إلى الجمال، المشكلة الكبرى أنني لا أستطيع ملء الفجوات بالقصة، هلجريد سويدية، لا أملك أي معلومات عن حياتها قبل اقترانها بوديع حداد، أمي رأتها للمرة الأولى وهي عجوز، حتى لم تلاحظ فيها أثرًا لجمال زائل، لم تشاهد شعرها الأشقر أو جسدها المتناسق، كان انطباعها عنها أنها امرأة ضئيلة الجسد وتهذي أغلب الوقت، لا أعرف لمَ زارت لبنان في ذلك الوقت، هل كانت برحلة سياحية أم أنها أتت بداعي العمل والاستقرار، ربما لم يقابلها وديع بلبنان، قد يكون اللقاء الأول تم في أوروبا فأسفار الطبيب الشاب كانت كثيرة.

تحليت بالثقة، قلت لنفسي: كل ما تعرفه يا بهيج أنها كانت فاتنة بشبابها ومؤمنة للغاية بالمسيح، لذا اجعل لقاءهما الأول بكنيسة، قررت الابتعاد عن قصص الحب الملتهبة، سأجعله زواجًا تقليديًا، شاب أعجب بفتاة فصارح والدته، الأم دعت الشابة لزيارتها، فاتحتها في الأمر بطريقة غير مباشرة، وعندما لاحظت

بوادر لقبول دبرت لقاءً يجمعها بابنها، انبهرت هلجريد بكاريزما الطبيب الشاب وأعجبت بوسامته، ثلاثة لقاءات على أقصى تقدير ثم أعلنت خطبتهما، أظن أن ذلك مناسب للغاية لتقاليد تلك الفترة.

سأتجاوز أعوامهما الأولى معًا، فهذه رواية عن فريد لا عن أبويه، سأبرز أي صراع طائفي قد حدث في تلك الحقبة وأجعله مبررًا لمغادرة الزوجين للبنان قاصدين القاهرة، سأرسم مشهدًا بديعًا للوداع، وديع وهلجريد على ظهر سفينة عملاقة، يلوحان إلى الجد حداد وعائلته، الرجل الذي رحل عن وطنه واكتوى بنار بالغربة؛ يشاهد ابنه وهو يخوض نفس التجربة المريرة، يمنع بصعوبة دموعه من السيلان ويمثل الابتسام، يمتلئ رأسه بالتساؤلات عن معنى الوطن.

بعد سنوات قليلة سيصبح وديع مصريًا بالكامل، سيندمج هو وزوجته حتى النخاع وسيكوّنان صداقات بالجملة، سأهتم في الفصول الأولى للرواية بإبراز الجانب الإنساني من حياة الطبيب، علاقاته الطيبة مع الجميع دون استثناء، عيادته المكتظة دومًا بالفقراء، عمله بمستشفى مصر الجديدة والمحبة التي يكنها المرضى له.

أعتقد أن لا وقت للحب في حياتهما، سأجعلهما قديسين مكرسين حياتهما لخدمة المسيح، سأكتب فصلًا كاملًا عن عيادة وديع حداد الواقعة في حي شبرا، شقة تفتقر إلى الأناقة يهرع إليها أول ما ينهي عمله الصباحي بالمستشفى، يصل فيجد زوجته بانتظاره، تجلس

على مكتبها بالصالة وبيدها كشف أعدّته بأسماء المرضى وترتيب دخولهم، تعد له القهوة وتقدمها له مع قطعة من الكرواسو الطازج، تودعه بابتسامة عريضة ثم تغادر لتكمل مشاجراتها مع المرضى بشأن أسبقية الحجز.

الطبيب المسيحي القادم من لبنان يخصص عيادته لعلاج الفقراء بالمجان، اسمه بات يتردد في دوائر الأطباء والمرضى في عموم القاهرة، نجاحاته الباهرة وطرق علاجه المبتكرة يعززون شهرته، الشاب الماهر والدءوب يصبح اسمًا معروفًا للبكوات والأفندية، الميسورون أيضًا يبتغون تجربة علاجات الطبيب ذائع الصيت، يتحرجون من مخالطة الفقراء بعيادته لكن بعضهم يتشجع ويقرر المغامرة، تستغرب هلجريد من رؤية البذلة الأنيقة والطربوش، يظهر البيك ويسألها عن «الفيزيتا»، فتضطرب، يعيد سؤاله فتتلعثم ثم تهرول إلى غرفة الكشف، تفتح الباب دون طرقه فيستغرب وديع، يكمل كشفه على الشيخ صاحب الجلباب الكالح، تقاطعه، تقول بعصبية: اتركه وركز معي، يسألها: ما الأمر؟ فترد بتوتر: هناك بيك بالخارج، يمط شفتيه ثم يقول: ماذا يريد منا؟ فترد: يسأل عن قيمة الكشف، يحوّل نظره عنها ويمسك بالقلم مدونًا العلاج، تكرر جملتها: كم قيمة الكشف؟ يتجاهلها ثانية ويسلم الروشتة للمريض، يقول له: روح الأجزاخانة في العمارة اللي قدامنا وسلم الروشتة لكامل، يشكره ويغادر فتنطلق هلجريد: الفيزيتا؟ يرد: الكشف مجاني كما تعرفين، تقاطعه: ولكنه بيك، توضح له وجهة نظرها، مجاني للفقراء وليس لمرتدي البذل

الأنيقة يا زوجي العزيز، لا يقتنع فتؤكد له أن العيادة في حاجة إلى ترميمات ومعدات جديدة، بعد مناقشة مطولة تغادر الغرفة منتصرة، تبتسم للبيك المنتظر وتخبره بقيمة فيزيتا الدكتور.

لنترك العيادة قليلًا ونتتبع الشيخ ذا الجلباب الكالح، يهبط سلالم العمارة، أول ما يصل إلى الشارع يشعل سيجارة مخالفًا لتعليمات الطبيب، يقف متأملًا الفترينات لدقائق نافثًا الدخان في الهواء، ينهيها ثم يخطو إلى الجانب الآخر، يمر إلى داخل الصيدلية فيجد في استقباله كامل حداد.

هو الأخ الأصغر لوديع، حضر إلى القاهرة للحاق بأخيه، الصيدلي أبيض الوجه طويل العنق والمنفعل أغلب الوقت، يحيّيه الرجل فيكشر، يمد يده الحاملة للروشتة إليه قائلًا بتلعثم: من طرف الدكتور، يمسك بالورقة ويبدأ من فوره في إجراء العمليات الحسابية، يضرب أخماسًا في أسداس وهو يدون بدفتره القيمة الإجمالية للدواء، يتوتر الرجل ذو الجلباب، ينظر إلى وجه الصيدلي الذي اكتسى بالحمرة ويسأله: كم التكلفة؟ فلا يرد، يطلق زفرة وينشغل بإعداد التركيبات الطبية، تمر الدقائق بطيئة، يخشى الرجل أن يكون بالأمر سوء فهم، من رشحوا له العيادة أكدوا أن الكشف والعلاج مجاني بالكامل، يضع يده بجيب جلبابه ويعد القروش القليلة، يعرف أنها تكفي بالكاد عشاء أسرته، يسعل ويعيد سؤاله: كم التكلفة يا دكتور؟ يناوله كامل شنطة الدواء، يقول له بلهجة خشنة: مجاني كما تعلم، المهم أن تتناوله بانتظام، لا جرعات أخرى لو استهترت ولم تمتنع عن التدخين، يغادر

بعد أن يلقي وابلًا من الدعاء له ولكل عائلة حداد، أول ما يبتعد عن الصيدلية يشعل سيجارة ويتساءل: هل دعائي لمسيحيين قد يفيدهم في شيء؟

بعد غروب الشمس بقليل ينطلق صوت الكلاكس، ينتبه، يرتدي طربوشه ويهم بالمغادرة، يوصي مساعده بإحكام إغلاق إقفال الصيدلية ثم ينطلق إلى الخارج، يحيّي وديع وهلجريد الجالسين بالسيارة وينضم إليهما، أول ما يجلس جانب أخيه يحدثه بعصبية ظاهرة، يقول بغضب: كفاية كده، مش هنلاقي ناكل بسببك، تستفسر هلجريد فيخرج دفترًا من جيب بذلته، يبدأ في قراءة الأرقام المدونة بلا توقف، يقاطعه وديع، يقول ضاحكًا: لست ماهرًا في الحسابات، تعقب هلجريد: اتكلم من غير أرقام وفهمنا، يوضح أن فكرة العلاج المجاني ستدمر مدخراتهم، ينظر ناحية وديع بضيق ثم يكمل: إحنا مش ملايكة، آه نقدم الصدقات للناس ونساعدهم بس بحدود، عيادة وأجزاخانة للفقراء وبيتنا مفيهوش عفش! حرام عليك يا أخي! تتدخل هلجريد، تحاول تهدئته، تقول بصدق: خلاص متقلقش، من النهاردة مش هيبقى فيه أزمة فلوس، تحكي له عما جرى اليوم بالعيادة، تخبره بظهور بيك ثم ثلاثة أفندية، تكمل بهذر: أخوك كان عايز يكشف عليهم ببلاش وأنا أقنعته بالعافية، يقطّب جبينه، ينظر إلى وديع الذي يضحك ويلوح له بالنقود، يقاوم الابتسام وهو يتسلم المال منه، يقول له وديع: اشترِ بيهم كلهم أدوية، يطلق زفرة وهو يعد النقود، يسلم هلجريد بعضًا منها، يعقّب: اشترِ للدكتور بذلة

جديدة، ينظر نحوه ثم يكمل ضاحكًا: لو فضلت غير مهتم بمظهرك مستحيل البكوات هيصدقوا إنك دكتور، يضحكون ثم ينطلقون إلى مطعم راقٍ احتفالًا بأول مكسب نقدي لـ(عيادة الفقراء).

جلسة رائقة استمرت حتى منتصف الليل لم يعكرها إلا تقريظ كامل المستمر لأخيه، عشاء بسيط أعقبه توعك مفاجئ أصاب هلجريد، شعر الرجلان بالقلق أول ما رأوها تغادر المنضدة وتهرول نحو الحمام، عادت بعد دقائق وهمست بأذن زوجها بكلمات مقتضبة فابتسم، يسأل كامل: هل هناك سر لا أعرفه؟ فتتورد وجنتاها خجلًا، ويرد وديع: من الواضح أن ولي العهد قد نبتت بذرته.

ما رأيك، هل الأمور واضحة؟ قد يكون السرد بطيئًا بعض الشيء لكنني أقصد ذلك، أعتقد أنه من المناسب جدًا في هذه الرواية إبراز جزء كبير من شخصية الأبوين، يجب على القارئ التعرف أولًا عليهما قبل الشروع في قراءة سيرة ابنهما فريد، ألا تتفقين معي أن قصتهما مغرية؟

كنت أود امتلاك معلومات أكثر عن كامل حداد، ليس بحوزتي إلا حكايات عمي المقتضبة عنه، أخبرني ذات مرة أنه قد عمل مساعدًا له لمدة شهرين في صيدلية «وايت ستار» والتي تقع بحي شبرا، للأسف لم يحدد لي عنوانها تحديدًا، كل ما قاله هو أنها تقع بالعمارة المقابلة لعيادة الفقراء، المشكلة أنني لا أعرف أيهما الأكبر سنًا وديع أم كامل، ربما كان ذلك سيفيدني بعض الشيء، إذن لا

أعرف تاريخ ميلاده ولا توقيت هجرته من لبنان إلى مصر وحتى تاريخ وفاته مجهول بالنسبة إليّ، بالرغم من ذلك سأوظفه بروايتي، أفكر في جعله صوت العقل في عائلة حداد، المساعد الأمين لوديع والعراب لفريد، حتى الآن لا أجد أحدًا غيره صالحًا لذلك.

أفكر في إجراء تغيير بالمشهد السابق، سأستبدل حضور البيك إلى العيادة بمشهد أكثر دراماتيكية، كامل حداد صاحب الملامح الأوروبية والعلاقات المتشعبة سيكون بطل هذا الفصل من العمل، في إحدى السهرات التي تجمعه بعلية القوم يطلب منه أحد الأثرياء ترشيح طبيب، ابنة الباشا المقرب من القصر الملكي تحتضر، أطباء مصر يؤكدون أن الحالة ميئوس منها، لسوء الحظ لا إمكانية للسفر إلى الخارج فالمريضة لن تتحمل ذلك، لا يفوت الفرصة، تخرج الكلمات من فمه حتى دون أن يفكر، يقول بحماس: وديع حداد هو الطبيب الأفضل والأكثر كفاءة بالقطر المصري.

يغادر مسرعًا، يهرول إلى عيادة أخيه، يخبره بالأمر فيرفض معللًا ذلك بمشغولياته الكثيرة، يهم بالانصراف بحجة الكشف على مريض بمنزله، ينفعل كامل، يقول بعصبية: هو العلاج للفقرا بس؟ هما الأغنيا عشان معاهم فلوس مش هيحتاجوا لطبيب؟ دورك إنك تطبب الناس، مش مهم هما مين، شحات، باشا، ملك، كلهم بني آدمين، يقتنع وديع فيصطحبه أخوه إلى قصر الباشا.

أريد وضع نهاية ملحمية لهذا الفصل، ستشفى ابنة الباشا المحتضرة، ستبرأ تمامًا وتعود موفورة الصحة، سيحاول الباشا

بشتى الطرق إقناع الطبيب بقبول الأموال، بالطبع سيرفض رفضًا قاطعًا، سيثور الباشا: عالجت ابنتي ولا بد أن تأخذ أجرًا، هذه ليست منحة أو عطية، يرد بصدق: لا أريد نقودًا من أحد، لو كنت مصممًا فاصرفها في فعل الخير. يتدخل كامل ليقدم حلًا يرضي الطرفين، يتولى الباشا مصاريف العيادة والصيدلية لفترة.

يبزغ اسم الطبيب الشاب وسط الأوساط الميسورة، يتوافد البكوات ورعايا الدول الأجنبية إلى عيادته، ينفرج الحال وتختفي الأزمات المالية، يستكمل مسيرته في علاج الفقراء بلا ضغوط مادية، وتستطيع هلجريد أخيرًا تأثيث شقة مصر الجديدة الخاوية من الأثاث.

ما رأيك؟ لتكن حياة وديع قصيرة، يكفي فصلان أو ثلاثة فصول على أقصى تقدير، لا يجب تشتيت القارئ في موضوعات ثانوية، من الممكن أن أستخدم تقنية الفلاش باك، هكذا أفضل بوجهة نظري، مثلًا يسترجع فريد سيرة أبويه خلال فترة سجنه الأولى.

أرى أن طفولة فريد غير مهمة بالنسبة للقارئ، سأختصرها قدر المستطاع، فترة دراسته كانت اعتيادية، ستبدأ الأحداث بالتصاعد أول ما يلتحق بكلية الطب، شاب حالم وملتزم أخلاقيًا يرى حياة القاهرة الصاخبة للمرة الأولى، تربيته القاسية نوعًا ما بفعل أمه المتزمتة دينيًا جعلته وحيدًا، أيام طفولته لم تتضمن شيئًا غير المذاكرة والزيارات اليومية إلى الكنيسة، يخرج الشاب الانطوائي إلى الحياة فينبهر، لقاهرة الأربعينيات المضطربة فعل السحر، الأحزاب، المكائد السياسية، الوزارات المتعاقبة، أحداث 4 فبراير

وما تبعها من تداعيات، تنقلب حياته، يكوّن الصداقات ويندمج مع زملائه بالجامعة، ينخرط معهم في نقاشات حماسية حول كل شيء، لا يأبه لتحذيرات عمه كامل ويشارك سرًا بالمظاهرات، تستهويه الأفكار الشيوعية، يؤمن بالتكافل والمساواة والعدالة الاجتماعية، تعجبه الشعارات الرنانة فيرددها بلا خوف، الشاب حديث العهد بالسياسة لا يعرف أن للحيطان آذانًا، يجهر بأفكاره فيقبض عليه، يعتقل، فترة ليست بالكبيرة يقضيها بالليمان لكنها تقلب حياته رأسًا على عقب.

الشاب بشوش الوجه دافئ الصوت يسجن دون سابق إنذار فيموت أبوه كمدًا، وديع حداد المسالم لم يتحمل الصدمة، عاش طيلة عمره يمشي بجانب الحيط، اتفق مع عائلته منذ يومهم الأول في مصر على البعد عن الأمور السياسية: لا أيديولوجية، لا يهمنا إلا الإنسان، ساعد الفقراء فبجّلوه، الابن نكث بالوعد ولم يسر على خطى أبيه، بدلًا من الاهتمام بالضعفاء انخرط في العمل السياسي، صار شيوعيًا نشطًا يعارض الاحتلال والملك، ربما لم يتحمل وديع الإنجيلي الملتزم انضمام ابنه لأتباع ماركس الملحدين فمات قهرًا.

لا أعرف ما جرى حينها تفصيلًا، حكايات جدتي عن الأمر ليست دقيقة، أجهل متى اعتقل تحديدًا وما ردة فعل عائلته، كل ما قالته جدتي: إن هلجريد صارت تجري بالشارع وتوقف الناس، تبكي وتضحك بالوقت ذاته وتنطق بكلمات غير مفهومة، كان الله بعونها، زوج مات وابن في المعتقل، أعتقد أنها نهاية مأساوية بامتياز.

لم أتأكد بعد من المعلومات المتداولة حول وجود أخ ثانٍ لوديع خلاف كامل، لم أتأكد بعد هل سليم حداد والد الشاعر فؤاد حداد هو ذلك الأخ أم أنهما مجرد أبناء عمومة، لذا سأكتفي بهذا القدر وسأركز بالفصول القادمة على حياة فريد بعد خروجه من المعتقل.

(12)

عزيزتي حياة

يقول القريب إلى القلب فؤاد حداد: «أنا في الحقيقة مليش في الوصف كتير، أنا بحب وأكره».

لا أعرف أمن حسن حظي أم لسوئه أنني لست مثل فؤاد، أنا على العكس منه تمامًا، بالتأكيد لاحظتِ أنني لا أجيد شيئًا باستثناء الوصف، لست بلا مشاعر، لكن الحب والكره بعيدان كل البعد عن تفكيري، لم أجربهما إلا لِمامًا، أعرف أنكِ سوف تضحكين، ستقرئين هذه السطور ثم تقهقهين، سأعقب: قلبي ليس عاجزًا، الكثير من الأحاسيس تتملكه، أغلبها ينحصر في الملل والخوف، ربما لذلك فائدة كبرى، لم أمرض طويلًا مثل فؤاد، لم أسجن أو أعتقل، مات مبكرًا أما أنا فقد قاربت السبعين وبكامل صحتي، أعتقد أن السبب بحالتي هذه ليس قسوة أو رهافة تغمر قلبي، وإنما شيء آخر، أنا لم ألعب دور البطل قط، أعترف أنني مجرد شخص هامشي وجوده كعدمه، عمله ينحصر فقط في التنظير والوصف، أقف بالخطوط الخلفية بعيدًا عن الخطر، أراقب وأحلل وأدوّن أفكاري، أترك الصدارة طوعًا لمن يحب ويكره، يقاتل ببسالة وينزف الدماء، ينتصر أو يهزم، يدون اسمه بكتب التاريخ كبطل أو كخائن، ليس كلنا فؤاد حداد، أؤمن بذلك عن طيب خاطر.

لن أتصنع الحكمة، سأعترف، أنا لا أفهم البشر وطبائعهم، ظننتها حكاية رومانسية، قصة حب ملتهبة بين ابن الجناينى وابنة الباشا، نهاية سعيدة تنتظرها أو تحول دراماتيكي يحول القصة إلى مأساة، مرت الأيام وظهرت الخلافات، يشكو مزاجها المتقلب، يعدد جهوده التي ضاعت سدى في تجهيز بيت ورد. بعد هنيهة يتحدث بوضوح أحسده عليه، لا يناور كعادته أو يزين كلماته، يقول منفعلًا: إنها تستغلك، تريد أن تساعدها، تنشر لها ما تكتبه من هراء، تظن أن علاقاتك بمسئولي الجريدة التي تستكتبك قوية، ربما تصطحبك معها في مرة لزيارة ناشر كي تزكيها، أقاطعه: كيف سأفيدها يا ابني؟ هي لم تطلب مني شيئًا منذ تعارفنا، لست كاتبًا شهيرًا أو ذا حظوة، لا أمتلك أي نوع من السلطة، يرد أنت لا تعرف قيمتك بعد يا أستاذ.

يصمت فأعرف أنه قد أفرغ كل ما في جعبته، يعم السكون الغرفة لدقائق، أتنحنح، أتحدث بهدوء، أقول: فضفض، احكِ لي المشكلة، قد أستطيع حلها، كفاك صبيانية، لا يصح أن تنفعل هكذا وتطلق الترهات مع أول خلاف يصيب علاقتكما، يضحك، يقول: أي علاقة؟ نحن مجرد زملاء، لسنا حتى أصدقاء مقربين، أزعق فيه: هل تكذب على نفسك؟ أنت تحبها، منذ أن رأيتكما لأول مرة وأنا متأكد من ذلك، يرد بهدوء: لم ولن أحبها، أنت أستاذي، أقدرك وأحترمك لذا أصارحك بمخاوفي.

أنهيت الحديث، تقدمت نحو النافذة مديرًا ظهري عنه، مكثت ناظرًا إلى الشارع وعندما لم يستأذن بالانصراف، تحججت بآلام

العمود الفقري لأحثه على الرحيل، غادر أخيرًا فأطلقت زفرة، ارتميت على أقرب كرسي وسهمت لساعة.

عقلي لم يعد قادرًا على الاستيعاب، متأكد الآن من أنه يكرهها، أعرف أن أغلب حديثه غير منطقي بالمرة، لكن هناك سؤالا لا أجد له إجابة مطلقًا، لماذا بحثت عني؟ ما سبب زيارتها اليومية لمنزلي، ماذا تريد من عجوز فظ ومغمور مثلي؟ فكرت بإغلاق بابي، سأحافظ على وحدتي قدر المستطاع وسأنعم بشيخوخة هادئة بلا منغصات، أيام من تجاهل طرقهم للباب وسينتهي الأمر، بعد دقائق تراجعت عن قراري، قلت لنفسي، كفاك جبنا، لن تظل هكذا طيلة حياتك، كن شجاعًا لمرة، قررت أن أستمر باللعبة، لم يعد يستهويني دور الكومبارس، سأحب وأكره كما فؤاد حداد، الأيام القادمة كفيلة بإظهار حقيقة كل شيء وأنا ماهر بالانتظار.

تكدس صندوق بريدي الإلكتروني بالرسائل، لم تمر سوى ساعات قليلة على انتهاء لقائنا وأمطروني بأعمالهم عبر الإيميل، أتذكر أنني لم أكن لطيفًا، صافحتهم على عجل وانصرفت ناويًا عدم تكرار مثل هذه الجلسات، أحدهم طلب مني وأنا أغادر عنواني الإلكتروني، لم أفهم الجدوى من ذلك لكنني أعطيته له.

لن أدعي عدم الاهتمام، بمجرد أن وصلت إلى المنزل شرعت في القراءة، لن أكذب، سعدت للغاية بموقعي الجديد، (الأستاذ) قالوها لعشرات المرات في أثناء اللقاء فانتشيت، سهرت حتى ساعات الصباح الأولى، انتهيت من الاطلاع على جميع الأعمال بالملف ودونت بالحواشي تعليقاتي، أول ما حل الصباح اتصلت

بهم جميعًا، ترحيبهم المبالغ فيه أخجلني، للأمانة يا حبيبتي شباب اليوم مختلفون، يتقبلون النقد بأريحية، أحدهم اعتذر لي بصدق لأن عمله لم يكن بالمستوى المأمول، وآخر شكرني لأنني قد أضعت وقتي الثمين في قراءة قصته التي تفتقر إلى الاحترافية.

للأسف الشغف سريع الزوال، أجلت لعدة أيام قراءة أعمالهم المرسلة عبر البريد الإلكتروني، انشغلت بسيرة فريد حداد، طاوعني القلم أخيرًا وبت راضيًا عما أكتبه، نسيت الأمر برمته ولم أتذكره إلا مع اتصال هادي، حدثني بحرارة، قال بحماس: غدًا موعد لقائنا الأسبوعي، الشباب تواقون للقائك، سوف أحضر مبكرًا عن الموعد لأصطحبك، «طنط» مصرة على دعوتك للغداء بمطعمها، توترت، أنهيت المكالمة دون إعلان رفضي، سمعت حديثه ولم أعقب، أظن أن سبب ذلك هو معاملتي الفظة لولاء المرة الفائتة، لا مشكلة من تذوق طعامها الماسخ مرة أخرى ومعاملتها بود تستحقه.

بالفعل منصورة مزاجية، الشاب لم يظلمها، تتحمس سريعًا ثم تفتر همتها، أتت إلى منزلي كالمعتاد، مرت إلى الداخل ولم تبادلني الحديث، وكأنها حضرت خصيصًا لترتيب غرفتي وإزالة الغبار من على النوافذ، أصرت على تنظيف الصالة رغم إلحاحي بعدم فعل ذلك، ضاع صوتي وسط الضجيج المنبعث من المكنسة الكهربائية، نزعت المقبس أخيرًا وقبل أن أتحدث انطلقت نحو المطبخ، استسلمت وجلست بغرفة المكتب وبعد نصف ساعة أتت باسمة، وبين يديها الصينية وفوقها فنجانا القهوة وبعض

المعجنات الطازجة، قبل أن أمدح موهبتها في الطهي انطلقت تتحدث بسرعة عن الأصول السريانية للغة العربية، ابتلعت بصعوبة جـزءًا من العجين القاسي الذي صنعته وحاولت الابتسام، انطلق سعالي وأنا أرى حماسها، لم تنس القصاصة المتهرئة وصورة الشيخ المعمم، انغمست لأسبوع كامل في البحث، بالنهاية لم تفهم شيئًا، قالت بهذر: لعن الله الكتب، أشعر أن المؤلفين يتمادون في استخدام الكلمات المهجورة، أظن أنهم يتعمدون نثر العبارات المبهمة بنصوصهم ادعاءً للعبقرية، قرأت عشرة مقالات عن الموضوع وبدلًا من أن أفهم صرت أكثر حيرة، مثلت الجدية، حاولت تبسيط الأمر: لغات قديمة يا ابنتي، أغلبها اندثر، سريانية، آرامية، عبرية قديمة، يقولون إن بعض كلمات لغتنا مقتبسة من تلك اللغات، هناك باحثون يعتقدون أن العربية مشتقة من لغات أسبق في الظهور، تقاطعني قائلة: وما الفائدة من ذلك؟ من الواضح أن المثقفين لا يجيدون شيئًا إلا السفسطة، أبتسم، أرد: بعضهم فقط، لأكون أكثر دقة، قطاع كبير منهم، تنتبه، يتورد خداها، تقول بإحراج: بالطبع لا أقصدك أنت، أربت على كتفيها، أقول بصدق: لا مشكلة، تكمل: بسبب ذلك لم أعد أحب الكتب، جميعهم يشبهون هادي، لا يمتلكون جرأة كافية، أظن أنني سوف أهجر القراءة إلى غير رجعة.

أظن أنني تعمدت عدم التطرق لهذا الأمر في رسائلي السابقة، ربما أكون قد أقنعت نفسي بأنه موضوع تافه لا يستحق الذكر، بعد حديثي مع منصورة فكرت في إخبارها لكني تراجعت، لا أعرف

لماذا؟ سأعترف لك أنت يا حياة، فكما أخبرتك قبلا أكتب إليك لأنسى.

بحثي المشئوم، الأصول السريانية للغة العربية، قد سبب لي بعضا من ألم، بعد أن تركت نهى وهربت إلى بيت جدي الريفي، كنت بحاجة إلى شيء أثبت به لنفسي أنني لست جبانا، ودعت المواربة، ربما كلام رفقاء النضال الهازئ من رمزية كوثر هو السبب، لست متأكدًا، ابتعدت عن الجمل الأنيقة المبهمة وولجت مباشرة إلى صلب الموضوع، كتبت المسودة الأولى وعرضتها على أحد زملائي لإبداء الرأي، أثنى على دقتي وغزارة معلوماتي وعرضي لمختلف وجهات النظر، اقترح على عرضه على أحد المختصين فرحبت، ظهر الرجل المعمم، الدرعمي عضو مجمع اللغة العربية، قرأه ثم دعاني للقاء، جلسة استمرت لساعة واحدة؛ كانت كفيلة بعودتي ثانية إلى سابق عهدي.

لأوضح لكِ الأمر ببساطة، هناك كلمات عربية يقول البعض إن لها أصلا سريانيًا، الكثير منها لا يؤثر في المعنى العربي، المشكلة في الكلمات التي تسبب الأزمات.

في الفصل الأول من بحثي عرضت نبذة عن المدارس المختلفة التي تناولت الموضوع، بالصفحة الرابعة تحديدًا ذكرت أن أحد المستشرقين قد تبنى وجهة النظر القائلة؛ إن المخطوطات الإسلامية المبكرة كتبت بالخط الحجازي القديم، ثم أعيد كتابتها بالخط الكوفي غير المنقط والخالي من الحركات والمد والهمزة، وأكد على أن القرآن الكريم يحتوي على العديد من الكلمات الأعجمية

كالسريانية والفارسية والحبشية. بعد ذلك أوردت بعضًا من حجج المعارضين لرؤية ذلك المستشرق.

وضعت مثالًا ليوضح رؤية الرجل بشأن ورود بعض الكلمات السريانية في القرآن الكريم، الآية رقم (54)

من سورة الدخان «وزوجناهم بحور عين».

من منطلق أن ظهور التنقيط على يد أبي الأسود الدؤلي، والمد والهمزة والشدة عن طريق الخليل بن أحمد الفراهيدي، قد كان متأخرا للغاية، وبعد تدوين القرآن الكريم بسنوات عدة، لذا فقد أعاد كتابة الآية كما كتبت للمرة الأولي.

«وروحناهم بحور عين».

«روحناهم» بالسريانية تعني نريحهم أو نرفه عنهم.

«بـ» تعني بين.

«حور» تعني العنب الأبيض.

«عين» بمعني نبع الماء قرب عرائش العنب.

إذن فالمعنى السرياني يختلف بشدة عن المعنى العربي.

زوجناهم بحور عين، تفهم على أنها الزواج من حوريات الجنة، أما بالسريانية فالأمر مختلف، سنريح المؤمنين بين عرائش العنب الأبيض قرب النبع.

الشيخ المعمم غضب، من الواضح أنه لم ينه قراءة البحث واكتفى

بهذا القدر، ذم شفتيه وحدثني باقتضاب، قال بخشونة: أنت غير متخصص، ما كتبته سوف يسبب المشكلات، ما للمسلم بتلك الأمور؟ أكمل: لكل منا تخصصه، أنت ناقد وأديب، اجعل اهتمامك منصب على عملك واترك لنا شئون الدين.

أظنك تعرفين باقي القصة، عدت ثانية إلى جملي الأنيقة وطويت فكرة أن أكون جريئا، رميت بحثي بسلة المهملات، تعكر مزاجي لأيام ثم تناسيت الموضوع، للأسف انقبض قلبي أول ما أمسكت منصورة بالورقة المتهرئة ورأيت صورة الشيخ المعمم، لم أنم يومها وقررت إخبارك بأن عليَّ أن أنسى الأمر.

أستمع مضطرًا لحديثها المسهب عن الأفلام التسجيلية والمستقلة، للأسف اعتبرتني عمًّا وتناست أن السبب الرئيسي لبحثها عني هو كتاباتي، اندمجتْ في حكي قصة فيلم عن أطفال الشوارع فأنصت إليها، انتهت فرسمتُ تعابير الدهشة على وجهي، تقمصت دور المهتم وليتني ما فعلت ذلك، قالت بحماس: من الواضح أن هذا النوع من السينما يعجبك، هنا عروض لأفلام رائعة الأسبوع القادم، ستقام بمعهد جوته وأتمنى أن تشاركني الحضور، غيرت الموضوع لأتهرب، ألقيت دعابة: المنتجون أصحاب الملايين أصبحوا يهتمون بأطفال الشوارع! أمر مثير للإعجاب، بالتأكيد وزّعوا وجبات مجانية وبعض النقود على الأولاد ليحسنوا تمثيل واقعهم أمام الكاميرات، لم تفهم ما أرمي إليه، ظنّته سؤالًا، ردت بجدية: ليسوا أغنياء مطلقًا، أقاطعها: لا يستطيع فقير صنع فيلم يا ابنتي، ترد ضاحكة: هذه أفلام منخفضة التكاليف، أقول

باستخفاف: ولو، تكمل: هناك جهات تهتم بالسينما المستقلة، أضحك قائلًا: الكل في مصر يقدس الهلس. تقاطعني: ليست مصرية، منظمات مدعومة من الاتحاد الأوروبي هي المنوط بها التمويل، تطل ابتسامتي الصفراء، تكسو ملامحي وأنا أعقب: إذن فهو تمويل خارجي، تنفعل: أصبحت تتحدث مثل المسئولين الحكوميين يا عم بهيج، ألطف الأجواء قائلًا: أنا عجوز، لم أسمع من قبل عن السينما المستقلة، تقاطعني: إذن فقد حان الوقت لتعرف، سترافقني لتشاهد بعينيك أعمالًا عظيمة، أرد بخبث: وأعظم مئة مرة من الكتب. تعقب ساخرة: لا بل مائتي مرة على أقل تقدير، سترى بنفسك.

ياه يا حياة، الوقت الذي كان يتحرك كالسلحفاة صار يمضي كما الصاروخ! المشكلة أنني لا أشعر بأريحية، طوال الوقت أحس بأن هناك شيئًا غامضًا، ربما فارق العمر الضخم بيني وبين رفقاء هذه الفترة هو السبب، قد أكون شِخت وأتقمص دور المحقق متخيلًا أمورًا لم تحدث، الميزة الوحيدة أنني صرت منشغلًا.

اكتملت أركان المتاهة بسيف، أتى إلى منزلي دون سابق ميعاد، كنت قد نسيته، ظننت أنني لن أراه ثانية، لاحظت أن الشاب على غير طبيعته، مستكين ونبرته مغايرة، يعاملني بحنو لم أعهده وعيناه تتحاشيان النظر نحوي، ألقيت ببعض كلمات الترحيب ورسمت على وجهي ابتسامة، الشاب لاحظ ودي الظاهر فتشجع، سألني: هل ستساعدني؟ فرددت: سأحاول قدر المستطاع، أردفت بخبث: لكنني لست خبيرًا في الأمور العاطفية.

الشاب مستاء، يقول بغضب: هادي ألعوبان، يحاول إفشال علاقتي بمنصورة ويبث سمومه بلا هوادة، البداية كانت بجرّها إلى عالم الثقافة، فعل ذلك ليتقرب منها، بالتأكيد تعلم هذه الطريقة: أرشح لك هذا الكتاب، هيا نتناقش في أفكاره، الهاتف ليس مناسبًا، يجب أن نلتقي، ندوة ثقافية مهمة، لقاء إبداعي غاية في الرقي، منتدى شعري يعقبه جلسة مقهى تجمعك بالمثقفين أمثالك. قاومته بشراسة لكن الطامة الكبرى كانت ظهورك أنت، الباشا قدم لها بعضًا من كتبك، تحدث عنك بإجلال وكأنك نجيب محفوظ، أبهرها بكلام ماسخ لم أفهم، صحبته بحماس في رحلة البحث عنك، اضطررت لمرافقتها، فقط لأكون بجانبها، عثرنا عليك فظننت أنها النهاية، للأسف لم يحدث ذلك، منذ أن عرفتك منصورة وعلاقتنا من سيئ إلى أسوأ.

حاولت احتواءه، أطلقت بعضًا من الجمل الأنيقة مصحوبة بابتسامة واسعة، لا أعرف هل نجحت أم أنه أراد طوعا جعل هادي العدو الوحيد، وجدت أننا في حاجة إلى هدنة فقمت لإعداد القهوة، بعدما عدت لاحظت هدوءه، من الواضح أنه قد أخرج غضبه وسوف يتحدث بعقلانية أكثر، ارتشفت قهوتي ببطء وأنا أراقب صمته، أنهيتها وتنحنحت فعاد لينهي ما بدأه.

ساعة كاملة قضاها في الحديث، استعرض فيها علاقته بها منذ البداية، تعارفا بندوة، بالتحديد لقاء أقيم بالمقر الرئيسي لأحد دكاكين الديمقراطية المنتشرة هذه الأيام، حزب وليد، دشن حديثًا، جريدته الجريئة صارت منبرًا للمعارضين، مقالات نارية

ونقد قاسٍ للحكومة، إشارات مبطنة بالرفض القاطع لخطة التوريث، سيف برغم عدم اهتمامه قبلًا بالسياسة إلا أنه أصبح قارئًا منتظمًا لها، أعجب بتلك الجرأة المفرطة وعدم الخوف من البطش، بالعدد الأخير نوهت الجريدة بصدر صفحتها الأولى عن إقامة الندوة التثقيفية الشهرية، لقاء سوف تحضره قيادات الحزب ولفيف من المفكرين والكتاب المؤمنين بالديمقراطية، بلحظة ملل قرر الحضور، ذهب مبكرًا فوجدها في استقباله، كانت قد انضمت إلى صفوف الحزب منذ مدة ليست بالطويلة، دورها هو شرح الأهداف العامة للحضور واستقبال الأعضاء الجدد، كما المتوقع لم تسفر الندوة عن شيء، حضور شحيح وترهات تفوه بها الجالسون على المنصة بحماس مصطنع، أيقن الشاب يومها أن أرض الواقع تختلف كليًا عن مانشيتات الجرائد، الحسنة الوحيدة في ذلك اليوم كانت تبادلنا لعناوين البريد الإلكتروني. هكذا أكد، تقابلا بعدها لأكثر من مرة وتوطدت صداقتهما مع مرور الوقت، بالطبع لم يكرر زيارته للحزب ثانية لكنه ظل يتابع الأخبار السياسية ليجد موضوعًا يتناقش فيه معها.

اعتادا على مرافقة كل منهما للآخر، ارتادا السينما لمرات وحضرا معًا مسرحية لعادل إمام، تحمّل مضطرًا أحاديثها السياسية، يقول بضيق: كنت أجاريها وأمني نفسي بأنها فترة وستمر، شابة قضت أغلب عمرها في مجتمع صحراوي مغلق، فما العيب في أن تجرب، أشهر وينتهي الأمر بسلام، يطلق زفرة ويكمل: للأسف شجعتها، اعتقدت أن ذلك سيجعلها أكثر قربًا مني فطاوعتها،

رافقتها بكل خطوة، تجمعات حزبية، ندوات لحقوق الإنسان، عروض للمسرح التجريبي، جلوس بمقاهٍ رديئة ونقاشات جدلية لا معنى لها ببارات متواضعة.

فكرت في مقاطعته، أردت أن أسأله بوضوح: لماذا؟ ما الفائدة من مرافقة أحد يختلف كليًا عنك؟ اختر واحدة تشبهك، تتوافق أفكاركما وطريقة عيشكما للحياة، قبل أن أنطق بكلمة تذكرت نهى.

آه يا بهيج، اندهشت مما فعله الشاب؟ تستنكر وتمتعض وتريد نصحه، هو صورة منك، ألا تتذكر الأيام الخوالي، رفقاء نهى مدعو النضال وأندية الأدب المكتظة بمحدودي الموهبة، تحملت ذلك عن طيب خاطر لأجلها وسيف يفعل الأمر ذاته الآن، إنه الحب ولا أحد بقادر على الهرب منه.

لعن الله الموضة، قالها فضحكت، أكمل: الثقافة صارت إكسسوارًا، قرطًا بالأذن وحلية أعلى الصدر وكتابًا ظاهرًا من حقيبة اليد، قاطعته مازحًا: آخر موضة رأيتها كانت «البيجر» يا ابني، يستطرد: ما الفائدة من الادعاء؟ الجميع الآن يحب تمثيل دور المثقف، للأسف هي تهوى الموضة، كلما تتحدث تحشر بحديثها سيرة الكتب، تقرأها فقط لتستشهد بها، تحفظ العناوين وأسماء المؤلفين وبعض الاقتباسات فقط للتباهي، ربما يشعرها ذلك بالتميز.

ظهر هادي فجأة بحياتنا، كان جالسًا على المنصة بندوة مملة لإحياء ذكرى أحد الشعراء المغمورين، ظل يهذي لنصف ساعة فلمعت

عيناها، لسوء حظي مر بجانبنا بعد انتهاء الندوة، صافحنا فقد كان الحضور لا يجاوز أصابع اليدين، استوقفته وسألته سؤالًا تافهًا فأفاض، عشر دقائق من الكلام الذي يبدو عميقًا جعلوني أطلق الزفرات بضيق، منذ ذلك اليوم المشئوم أصبح جزءًا من حياتها.

أمثل دور الحكيم، أقول: هو ليس مذنبًا بشيء، اهتماماتهما مشتركة لذا تقاربا، أرى تقطيبة جبينه فأحاول طمأنته قائلًا: لا تقلق، هادي لا يكن لها المشاعر، يضحك: مشاعر؟ أنت رجل طيب، هو ثعبان، يتطلع إلى أموالها لذا يتقرب منها، أنت لا تعرف شيئًا، جعلها تحصل على قرض بنكي، «بيت ورد» فكرته، المشروع الذي يحلم به سينفذه بأموالها، أقاطعه: هي راشدة، كل واحد حر في أمواله، يرد بغضب: كفى حديث مثقفين، لا حرية ولا زفت، الأمر واضح، نصاب سيبدد ثروة ساذجة.

(13)

مرشدتي إلى الطريقة المثلى لعيش الحياة «حياة»

يقول أدونيس في قصيدته «لو أن البحر يشيخ»: اليأس عادة والأمل ابتكار. بت مؤمنًا بصدق تلك المقولة لذا سأهجر عاداتي القديمة، سأودع اليأس وأقاوم قدر المستطاع رهبتي.

أخاف يا حبيبتي، عقلي الباطن يضعني طوال الوقت بمقارنة مع فريد حداد، الشجاعة مقابل الجبن، الإخلاص مقابل الغبن، أشعر أن كل كلمة أدوّنها على الورق تنقلب من فورها إلى سكين يطعن قلبي.

قررت اليوم أن أتبع حكمة العزيز أدونيس، فطالما الأمل موجود فلا يأس، بهيج القديم انتهى، منذ لحظة كتابة الجملة الأولى في سيرة فريد تحول إلى إنسان آخر مفعم بالأمل، قادر على إخراج كل ما يدور بعقله إلى العلن، أقسم لكِ، سأكتب بشجاعة للمرة الأولى بحياتي.

رغم ذاكرتي المشوشة سأمسك بالقلم، رغم قلة المصادر وشح المعلومات سأنهي روايتي، تصوري يا حبيبتي لقد قضيت ليلة أمس كاملة أحاول الكتابة، بعد ساعتين من معاندة الحظ لي طاوعني القلم، دونت خمس صفحات بالإضافة إلى الكثير من الحواشي، قبيل الفجر نمت بمكاني، جسدي المنهك لم يستطع المقاومة فغفوت على كرسيّ لساعة أو أقل، استيقظت على صوته،

لا أعرف هل كان حلمًا أم أنه قد حضر بالفعل وخاطبني، «مزق يا بهيج» كانت هذه هي جملته الوحيدة وقد نفذتها بلا تفكير، لملمت الأوراق وقطّعتها، رميتها في سلة المهملات غير آسف، لك كل الحق يا فريد، لا نفع في هذا الهراء الذي كتبته، ما للقارئ بما حدث في سجن الواحات وتداعياته، ما علاقة حركة «حدتو» بالرواية وما أهمية إبراز الانشقاقات التي حدثت داخل الحزب الشيوعي المصري، من الذي سيقرأ سيرة حياة طبيب الفقراء بحركة مارس 1954 ودور خالد محيي الدين؟

أؤكد لك أن توتري قد زال تمامًا أول ما رميت الأوراق، أطلقت زفرة ارتياح وكافأت نفسي بفنجان قهوة، بعدها أمسكت بالقلم لأحكي عن فريد فقط ولا شيء آخر.

تعرفين يا حياة أنه قد تزوج قبل إنهاء تعليمه الجامعي، ابن وديع وهلجريد نبض قلبه بالحب، ظهرت «إيدا» فعرف أن بالحياة مباهج لا يعرفها، سأستخدم معك تقنية التقديم والتأخير التي أصبحت رائجة عند روائيي هذه الأيام، قبل أن أحكي لك عن قصة الحب الملتهبة بين الشاب الوسيم الموشك على التخرج والحسناء ذات الأصول الفلسطينية؛ سأخبرك ببعض المعلومات عن عميد عائلة حداد بمصر، اسمه سليم، يلقبه تلاميذه بجامعة فؤاد بـ«الشامي الطيب»، حضر إلى مصر في أثناء الحرب العالمية الأولى، تحديدًا في عام 1917. استقر بشقة متواضعة تقع على أطراف العاصمة، اندمج وتأقلم سريعًا، بعد سنوات قليلة من حضوره إلى المحروسة صار مصريًا خالصًا،

بالجهد والعمل الدؤوب اجتاز الكثير من الصعاب، ابن عائلة حداد حصل على البكوية، ألّف الكثير من الكتب وتدرج في المناصب حتى أصبح أستاذ كرسي بالجامعة المصرية، لخبرته الكبيرة ومكانته العلمية كُلف بوضع النظام المحاسبي لبنك مصر حين إنشائه.

سليم بيك هو حكيم العائلة وجامع شملها، يجتمع آل (حداد) أسبوعيًا بفيلته، لا مجال للحجج والأعذار فهو صارم في هذا الشأن تحديدًا، حتى وديع المنشغل طيلة الوقت لا يستطيع أن يخلف موعدًا، فريد الطفل أحب عمه، رجل بشوش ويغدق على أطفال العائلة بالهدايا القيمة، يوم لطيف بالحديقة الرائعة للفيلا، لعبٌ وركضٌ وأكوامٌ من الحلوى، فرصة لتكوين صداقات مع أبناء العائلة وخصوصًا من هم في مثل عمره، جمعت الصداقة بينه وبين فؤاد الابن الأكبر لسليم بيك، جمعهما حب كرة القدم وعندما اشتد عودهما أغوتهما الكتب، فؤاد الصبي سيصير شاعرًا معروفًا عندما يكبر وفريد سيصبح نصيرًا للفقراء.

صار الولدان يافعين، أصبحت فيلا البيك مقصدًا دائمًا لفريد، ساعتان أو ثلاث يوميًا يقضيهما رفقة ابن العم، مناقشات وتبادل للكتب والأفكار وحديث لا ينتهي عن أحوال مصر، العم يلاحظ تقارب الشابين فيسعد، ابن وديع صديق مثالي، مستقيم ولا يدخن، خجول وبلا علاقات نسائية، مع الوقت تحول فرحه بهذه الصداقة إلى توجس، حضر مصادفة إحدى جلساتهما فرآهما يتجادلان وكأنهما عدوان، لعن الله السياسة، هكذا قال لهما ناصحًا،

أعقب: لسنا بمناضلين، ليس هذا دورنا، العمل السياسي ما هو إلا طريق طويل نهايته السجن، ضحكا، قالا كاذبين: لا تقلق، هذه مجرد طريقة لتمرير الوقت، لا علاقة لنا بمثل هذه الأمور.

بفيلا البيك قابل إيدا للمرة الأولى، الفاتنة أتت فرآها الشاب الموشك أن يصبح طبيبًا، سأل: من الآنسة؟ فرد فؤاد: إنها قريبة لماما من بعيد، الشابة ذات العينين العسليتين أسرت فؤاده، لاحظ ابن عمه نظراته فضحك، قال: تحب تتعرف؟ تلعثم في الرد فانطلق فؤاد مناديًا إياها، حضرت الحلوة ومدت يدها للسلام على الخجول، جلست بمواجهته فلم ينطق، أمسك بكتاب وأخفى وجهه خلفه، قطع فؤاد الصمت، أخذ في إلقاء النكات ورواية مواقف طريفة بطلها فريد، ضحكت فتشجع، حاول التحدث إليها فخرجت الكلمات من فمه متقطعة، تدخل فؤاد: معلش يا إيدا، أصل ابن عمي بيتكسف من البنات الحلوة. قرر إفساح الطريق للخجول، تحجج بضرورة إجراء مكالمة هاتفية مهمة وانسحب إلى داخل الفيلا، غاب لساعة وعندما عاد رأى عاشقين قد جمعهما الحب من النظرة الأولى.

أحاول التخيل، للأسف لا أعرف كيف تعرَّفا، ألَّفتُ قصة تقليدية أعتقد أنها تفي بالغرض، أخاف أن تكون ركيكة أو مستهلكة بعض الشيء، متأكد من أن فريد وفؤاد حداد كانا متقاربين للغاية وخصوصًا بفترة الصبا والشباب المبكر، وجدت أن فيلا سليم بيك تصلح لتكون مكانًا مناسبًا للقاء الأول للحبيبين، المعلومة الأكيدة هي أنهما قد تزوجا في أوائل العام 1947، أي قبل تخرجه

في كلية الطب بعام كامل، أعتقد أنها بالتأكيد كانت قصة حب ملتهبة، وإلّا فما الداعي إلى زواج طالب قبل إنهاء تعليمه الجامعي.

فاتح أبويه فرحّبا، إيدا مقدسية مثل الجد (حداد)، جميلة وهادئة الطباع وتجيد الأعمال المنزلية، خطبة استمرت لأشهر قليلة أعقبها الزواج، بحفل عائلي بهيج في فيلا البيك تم العرس، اجتمعت العائلة في دار عميدها بناء على طلبه، الشامي الطيب أهدى العروس قرطًا مرصعًا بالألماس وأصر على دفع كامل نفقات شهر العسل للعروسين ببيروت، أيام من الهناء عاشها العاشقان ثم بدأت المشكلات بالظهور. عرفتْ إيدا أن فريد وفؤاد عضوان بتنظيم معارض للملك، أخبرتْ هلجريد من فورها فلم تصدقها، قالت الأم بثقة: ابني انطوائي ولا يهتم بشيء غير دراسته، لم تقتنع بردها فقررت زيارة البيك لتطلعه على الأمر، حكت له كل ما سمعته، سلمته ورقة تتضمن بيانًا معدًا للتوزيع على المواطنين، قالت بأسى: يوجد في درج مكتبه مائة نسخة منه، رأيت فؤاد أمس الأول وهو يسلمه له، انفعل عميد العائلة، توعد الولدين وطمأنها، قال سأتصرف وهاتفه، قال له: احضر فورًا، كان قاسيًا معه، لم يعطِ له فرصة لفتح فمه، وبّخه، حدثه عن مستقبل العائلة: ابتعد يا ولد، اهتم فقط بالأشياء التي قد تفيدك، دراستك هي سبيلك إلى الترقي، أكمل مسيرة والدك وكفاك ترهات، صمت هنيهة ثم أعقب: ما لابني بالمنشورات؟ من فيكم قد أقنع الآخر؟ أخيرًا تحدث فريد، السؤال يلزمه رد مقنع، قال بصوت خفيض: نقرأ الكتب يا عمو، لم ولن نحمل السلاح، نعتنق أفكارًا ونعبر

عما يدور برؤوسنا، لا تقلق، ليس لابنك أي نشاط سياسي. ينتهي فيبدأ البيك في وصلة من التهديد والوعيد، يصمت أخيرًا فيتنفس فريد الصعداء ويغادر مسرعًا. أول ما يصل إلى المنزل يهاتف فؤاد، يخبره بما دار بينه وبين أبيه ويتفقان على اللقاء، يتجنب زوجته وأمه ويمرر الوقت ممثلًا النوم حتى يحين موعد خروجه.

ينتظره طويلًا، يمل الجلوس وحيدًا بـ«جروبي»، تمر ساعة فيتصل بفيلا حداد، يجيبه الخادم أن البيك الصغير قد سافر، يستفسر فلا يجد ردًا، يطلب مهاتفة الهانم فتخبره أن سليم قد قرر إبعاد ابنهما مؤقتًا عن القاهرة، بمعنى أكثر وضوحًا، سيحتجزه في المنزل الريفي حتى يعقل.

يلوم نفسه، يسير بشوارع وسط البلد بغير هدى، يتذكر الماضي فتظهر صورة فؤاد الطفل أمام عينيه، الولد المشاغب، الصبي الذي يهوى الزجل، العنيد الذي لا يأبه لغضب أحد، يضحك وهو يتذكر تعابير وجه عمه عندما تخبره زوجته بعصيان «الولد» المتعمد لأوامرها، الطالب بالفرير يرفض الحديث بالفرنسية، تعليمات الأم واضحة، لا حديث بالعربية مطلقًا داخل المنزل، المعارض على الدوام يرفض، تزعّق فيبتسم، يقول: إحنا مصريين يا ماما، عايشين في جاردن سيتي مش في باريس، معركة استمرت لشهور وبالنهاية انتصر، ألحق الهزيمة بأمه وجعلها أحيانًا ما تتحدث بالعربية.

يخلع معطفه، يستمر بالسير ويقرر عدم ركوب الترام، يكمل طريقه ويفكر في كيف سيتعامل مع أمه، يشعر بغصة في حلقه

عندما يتخيل وقع الصدمة على وديع، ربما تحكي له هلجريد ما سمعته من إيدا، قد تقول بهذر: تصدق، البنت الساذجة تحسب أن ابننا يشارك في مظاهرات الطلاب ويوزع المنشورات. تعتبره مجرد طفل، ولد انطوائي وقليل الكلام، بالتأكيد لن تصدق أنه قد بات عضوًا فاعلًا في خلية شيوعية سرية، الخوف فقط أن تبلغ الأب الذي يعشق السير جانب الحيط، سيرتعب، سيتصل بكامل وسيرتب اجتماعًا للعائلة. لن تستطيع الصمود أمام آل (حداد) يا فريد، قد يقررون إبعادك إلى بيروت، يستفيق على صوت كلاكس سيارة، يكتشف أنه قد وصل، يعبر الشارع وينظر نحو المنزل، يطمئن عندما يرى الشقة غارقة في الظلام إلا من غرفة إيدا، يفكر في حل، طريقة يهدّئ بها من روعها، متأكد من أنه يحبها، ليست نزوة مؤقتة أو طيش شباب، يتمنى ألا يفارقها ويدرك في الوقت ذاته أن السجن قد بات قريبًا، بالأسبوع الفائت اعتُقل بعض من زملائه، يلعن بسره الملك والحكومة والإنجليز، يتمتم: هل مكتوب علينا أن نظل محتلين إلى الأبد؟ يطلق زفرة ويخطو إلى مدخل العمارة، يعاود التفكير في كيف سيقنعها لكن صرير السيارة خلفه يقطع حبل أفكاره، يلتفت فيجد قوة من البوليس تركض نحوه، قبل أن يتحرك تمتد الأيدي تجاهه، يستسلم دون مقاومة، لا ينطق بكلمة، ينظر إلى نافذة الغرفة التي فتحت فتدمع عيناه، تناديه زوجته فلا يستطيع الرد، يدفعون به إلى داخل السيارة فينكس رأسه ويسد أذنيه هربًا من نداءاتها.

يقتادونه إلى مركز الشرطة المجاور، دون تحقيق يحتجزونه في غرفة مظلمة وقذرة، قبيل الفجر بقليل تمتلئ الغرفة عن آخرها، أغلب المشاركين في مظاهرات أول أمس قد اجتمعوا ثانية، يوم مر، بلا تحقيقات أو طعام أو حتى سماح باستخدام دورة المياه، كان رفيقهم الوحيد هو الخوف من المجهول، أخيرًا انفرج الباب قليلًا، ظهرت عينا الشاويش ثم أتى صوته الجهوري: ستغادرون الآن، سترحلون إلى الليمان.

(14)

حياة

يقول إدوارد سعيد، وهو بالمناسبة تجمعه صلة قرابة بفريد حداد: «إن المثقف شخص يصعب التكهن بما سوف يقوم به».

رغم اختلافي الجذري مع هذا الرجل وأفكاره على طول الخط، فإن هذه الجملة لا يشوبها خطأ، اختبرت ذلك بنفسي اليوم، وافقت على دعوة هادي للغداء معًا ثم مرافقته إلى المقهى، ولم أبد أي اعتراض على طلب منصورة لزيارتها في بيت ورد لرؤية الترتيبات النهائية قبل الافتتاح، وتحمست لفكرة سيف بأن نقضي معًا سهرة لطيفة بفندق يفضله، كل هذا بيوم واحد والغريب أنني وافقت.

حضر هادي كما الميعاد واصطحبني، وصلنا إلى المطعم فاستقبلتنا ولاء بترحابها المبالغ فيه، عانقتني وأطالت الربت على كتفي، تركت مهام المطبخ لمساعدتها وتفرغت لضيافة العم بهيج، هكذا قالت فابتسمت بود، أجلستنا على منضدة بالركن الأقصى من المطعم ووجهت نظرها نحوي قائلة: أعرف أنك لا تحب الاختلاط، لم تحضر الفاصوليا والأرز كالمرة الفائتة واستبدلت بهما زجاجات المياه الغازية.

جلسة لاجترار الذكريات، هكذا قلت لنفسي وأنا أستمع إلى حديثها بضجر، أخبرتني بقصة حياتها لا أعرف لماذا، عدة سنوات أمضتها في وظيفة حكومية، أعقبتها استقالة وسفر إلى الخليج رفقة

زوجها، قصة حب عاصفة وسنوات من الهناء، خيانة وطلاق ومشكلات بالجملة، وددت مقاطعتها لأكثر من مرة بجملتي الأثيرة: وأنا ما لي، لكني تراجعت حتى لا أؤنب نفسي طيلة الليل على فظاظتي بحقها، لاحظت تملّملي فقفزت أخيرًا إلى لب الموضوع، هي ليست طاهية، نجاح المطعم كان مفاجئًا ولم تتوقعه بالمرة، عملها الأساسي كان بالحقل الثقافي، عشر سنوات أمضتها في دور النشر المصرية الخاصة، تنقلت بين الوظائف بها، عمل ممتع لكن ضعف المقابل المادي دفعها إلى الاستقالة وافتتاح المطعم.

الطنط المثقفة تود العودة ثانية إلى المجال الذي تحبه وتحتاج إلى خبراتي، أمثّل الاهتمام قائلًا: أود مساعدتك بالطبع، لكنني حقيقة بلا خبرات، تكمل: بدأت بالفعل في إجراءات تدشين دار للنشر، المقر سيكون بشقة أعلى المطعم، هادي سيعمل معي، الفكرة فكرته بالأساس، أضحك، لا أعرف يا حياة كيف فعلت ذلك، يحمر وجهي وأهب واقفًا، أتحجج برغبتي في التبول وأبتعد، أختبئ داخل دورة المياه، أقول لنفسي: ابن الملاعين، هذا الولد لا يرحم، كافيه ومكتبة منصورة والآن دار نشر ولاء، تمر الدقائق فأنتبه، أعاتب نفسي قائلًا: ما لك انت بالأمر؟ دع الخلق للخالق، عد واجلس بمكانك، استمع وأنت صامت.

لم تتأخر الفاصوليا، جاءت بها مصحوبة بالسبانخ والأرز واللوبيا، لم تنتظر انتهاءنا من تناول الطعام، أخذت على الفور في شرح تفاصيل الوظيفة: أنت خبير، دورك سيكون محوريًا، ستختار الأعمال الصالحة للنشر، شباب اليوم يبحثون عن

فرصة ونحن سنقدمها لهم، سأنشر إعلانًا بسيطًا: الباب مفتوح للجميع، ما يهمنا فقط هو الأدب الجيد، الاختيار سيعتمد على الموهبة وليس شيئًا آخر. سنحصر الأعمال المقدمة، سنعطيها أرقامًا مسلسلة، سنحذف أسماء المؤلفين تحريا للشفافية، أنت يا أستاذ من سيقرر، ستقرأ وتفاضل وتحدد من يستحق أن يظفر بفرصة، صمتت، انتهت وانتظرت ردي، وكأن جردل مياه مثلجة قد ألقي عليّ، وددت لو انشقت الأرض وابتلعتني، أريد معاقبة نفسي علانية على رأيي المسبق في هذه المرأة، سيدة عظيمة، لم أتصور مطلقًا أن يمتلئ قلب أحد بحب الناس لهذه الدرجة، تستحق حب وحفاوة زبائنها، تناسيت مؤقتًا كرهي لهادي، وافقت بلا شروط على العمل معها، حتى عندما أكدت أن هذا الخسيس سيكون مساعدي لم أعلّق، ظللت لنصف ساعة أمتدح بحماسة فكرتها الرائعة، وددت معانقتها، تقليدها والربت على كتفها لدقائق، لولا تدخل هادي ومقاطعته لأفكاري لفعلت ذلك، قال فجأة: هيا يا أستاذ سنتأخر على الشباب، نهض فنظرت إليه ولاء بصرامة، جلس ثانية وكأنه تلميذ خائب فاستغربت، قلت: اعذريني، وجب الانصراف فلدينا ميعاد، ردت: لم ننتهِ بعد، استفسرت: ننتهي من ماذا؟ لقد وافقت ومستعد للعمل، قاطعتني قائلة: هديتك للمبدعين الشباب، تساءلت: أي هدية؟ أردفت: مقدمة بقلمك لكل عمل تجيزه للنشر، رددت: بالرغم من عدم إجادتي لذلك لكنني سأحاول، قمت من على كرسيّ، ودعتها فعانقتني، قبل مغادرتنا قالت: استعد، من الغد سأرسل لك الأعمال لتقييمها، رددت ضاحكًا: لم تؤسسي بعد دارًا للنشر،

ضغطت بأناملها على يدي وقالت بحماس: الإجراءات القانونية ستأخذ الكثير من الوقت، أود استغلال كل دقيقة، أصمت هنيهة ثم أقول: الإعلان، أعتقد أن الحماس قد أنساك الأمر، ترد وهي مستمرة في الإمساك بيدي: لا مشكلة سأنشره اليوم، تتعرق يدي فأجذبها مضطرًا، أخشى أن يكون في ذلك فظاظة مني فأبتسم قائلًا: أعرف أنه عصر السرعة، لكن الإعلانات المبوبة بالجرائد يلزمها حجز مسبق، تضحك: ما لنا بالجرائد لا جمهور لهم الآن، تكفينا مواقع التواصل الاجتماعي، سأكتب منشورًا يتضمن كافة الشروط والمعلومات، من فضلك أرسل لي صورة حديثة لك، أتساءل: ما علاقة صورتي بالموضوع، ترد بحزم: من حق كل من يقدم عمله أن يعرف من المنوط به تقييمه، أقاطعها: أنا لا أحب الظهور، كما أن الشفافية تستدعي ألا يعرف أحد من سيقيّم عمله، ألمح تقطيبة جبينها قبل أن تزيحها بسرعة وترسم ابتسامة، تقول بمرح: للحديث تتمة، ستجمعنا جلسات قادمة للاتفاق حول الأسلوب الأمثل لإتمام الأمر، أجدها فرصة للمغادرة فأحييها وأتحرك، يتمهل هادي للحظات ثم يلحق بي، يقول والابتسامة تغمر وجهه: الشباب يتوقون لرؤيتك، فأهز رأسي وأكمل السير.

أكره المقاهي القذرة ومن الواضح أن الجميع قد بات يعشقها، وصلنا فرحبوا بي بحفاوة، أغدقوا عليّ المديح، تحدثوا بإسهاب عن رؤاي الثاقبة وتحليلي الباذخ لفحوى نصوصه، لا أعرف على وجه اليقين هل هم أفاقون أم مجرد سذج، لم أتعود قبلًا أن أعامل بمثل هذا الإجلال، بدأت الجلسة بالتقاط صورة لتخليد تلك اللحظة

الفارقة بمسيرتهم الإبداعية، هكذا قال الشاب النحيل فكدت أن أضحك، تجاذبنا أطراف الحديث لنصف ساعة، ألاحظ صمت هادى فأمازحه: الأستاذ مدير النشر المستقبلي سارح في ماذا؟ يضحك فيتبعه الجميع بالقهقهة، يرد: أترك لك الكلمة يا أستاذ، الشباب حاضرون لأجلك لا ليستمعوا لي، ثم أنني لست مديرا، أنا مجرد مساعد، عمل تطوعي ولفترة مؤقتة، أرسم على شفتي ابتسامة صفراء، أود إلقاء دعابة ثقيلة لكن رنين هاتفه يمنعني، يرد، يزم شفتيه ويزدرد ريقه، يتحدث همسًا ثم ينهض مبتعدًا عنا، يقف على بعد أمتار ويحرك يديه في الهواء، فمه مغلق وغالبا ما يتلقى وابلا من التوبيخ، يعود ويستأذن مني في المغادرة، يتدخل أحد الشباب قائلا بهذر: اذهب يا صديقي وكن مطمئنًا فلن نأكل الأستاذ، يضحك الجميع أما هو فيهرول مبتعدًا.

الكل يعلم بموضوع دار النشر، حتى أنهم يعرفون بأنني المسئول عن تقييم الأعمال، لست حاد الذكاء، هم مثلي تماما قد توقعوا أن ولاء هي المتصلة، يعجز عقلي عن الاستيعاب، أفكر في كيف انتشر الخبر، المرأة قد فاتحتني للتو، كيف عرفوا؟ من أخبرهم؟ هادي حضر رفقتي ولا أحد آخر كان معنا.

ينتبهون للعجوز السارح في الملكوت، يلتفت أحدهم نحوي ويقول: لن ننسى أبدًا مساعدتك لنا، يكمل آخر: سنجعل هذه الجلسة الأسبوعية مقصدًا للكتاب، يعقب ثالث: سيصير مقهانا مركزًا للمثقفين، أنتبه، أستوضح: هل أنتم ملاك للمقهى؟ يضحكون بهستيرية، يجيب الجالس بمواجهتي: بالطبع لا، نحن

مجرد زبائن، يقاطعه آخر: سأشرح لك الأمر، مقاهي وسط البلد مقسمة تبعًا لنوعية مرتاديها، هناك مكانان فقط يعجان بالمثقفين، مقهى خليفة ومقهى الـوردة، لم نرتح في كليهما، لذا انسحبنا وحضرنا إلى هنا، حيث مقهى عنبة، هادي يومها قال بتحد: نحن من سنصنع مكاننا، مقهى خليفة أسعاره باهظة رغم سوء الخدمة، يرتاده شعراء السبعينيات والثمانينيات بالإضافة إلى الأديب سعيد السنباطي، أما مقهى الوردة فهو ملتقى للكتاب المبتدئين ولبعض النقاد، يلتقط الجالس بجانبي طرف الحديث، يقول باسمًا: نسيت أن تذكر للأستاذ أهم رواده، يضحكون فيعقب الجالس عن يساري: خالد أبو عشوة، أتساءل: أبو عشوة؟ اسمه غريب جدًا، يفهمونني أنها مجرد كنية وليست اسمًا حقيقيًا، الأستاذ خالد ناقد ثقافي نشط ويكتب بصفة دورية في أكثر من مطبوعة أدبية، المقال النقدي بالنسبة إليه يلزمه وجبة عشاء محترمة، يحضر الكاتب إلى المقهى ليقابله، بعد وصلة مديح معتبرة يسلمه نسخة من عمله المتواضع، يتبع ذلك بدعوة على العشاء، بالطبع يرفض ولكن مع الإلحاح يوافق خجلًا، حسب نوعية الطعام يتحدد المقال، أهز رأسي إلى اليمين إلى اليسار، أقول: لا أفهم، فيشرحون لي، العشاء بمطعم متواضع للكبدة والمخ يختلف كليًا عن تناول وجبة بفندق، التهام سندوتشات الجمبري على المقهى لا يقارن بالجلوس في نايت كلوب فاخر وتناول الإسكالوب والبيرة، أضحك بهستيرية، أسعل فيناولني أحدهم كوب ماء، أقول: إذن فهي تسعيرة، فيعقب الشاب بجانبي: يتراوح المقال من عمود إلى صفحة كاملة، أقاطعه قائلًا بهذر: ولو العشاء أوبن بوفيه وخمور بلا حساب، يرد: صفحتان

كاملتان في صدارتهما صورة ملونة للكاتب رفقة كتابه، يضحكون فأسألهم: أفهم أنكم تركتم مقهى الوردة بسبب الأستاذ أبو عشوة، فيردون: أجل، نريد أن نصنع مكاننا، أعقب: وبالنسبة لمقهى خليفة غالي الأسعار، أظن أنك قد ذكرتم اسم سعيد السنباطي، هل تركوها بسبب سوء الخدمة أم لشيء آخر، يفهمون قصدي، يرد أحدهم: الأستاذ سعيد أسلوبه فظ، يتعامل مع الجميع بتعالٍ، يجب أن تتملقه لشهر، فقط ليوافق على قراءة نص من تأليفك لا يتجاوز الصفحتين، أتساءل مستغربًا: هل أصبح مشهورًا إلى هذه الدرجة؟ أتذكر أنه قد نشر مجموعتين قصصيتين في أواخر السبعينيات ولم يحالفهما النجاح، هل أعماله اللاحقة رائجة؟ يجيبون: لا، لم ينشر شيئًا آخر، أتعجب: إذن ماذا حدث ليجعله مهمًا إلى هذه الدرجة، يرد الجالس عن يساري: لا نعرف، ربما بسبب طول المكوث على المقهى، أضحك فيعقب آخر: منذ بدأنا الكتابة ونحن نراه، يجلس وحوله دائرة كبيرة من المثقفين، يلقبونه بالعم، الكل يدعوه إلى جلسات مناقشة أعمالهم كضيف شرف.

سعيد خلايجة، يقولها الجالس عن يميني فيضحك الجميع، أستفسر عن المعنى فيتطوع بالشرح: هو لا يفوت ندوة لكاتب خليجي، إذا حضرت الدشداشة وجب أن يحضر، يقاطعه آخر: يكرس أغلب وقت فراغه في كتابة المقالات التعريفية عن الأدباء من بلاد النفط، يكمل ثالث: الرجل يحب الدولارات ويستمتع بالسياحة خارج مصر. يؤكدون أن المنفعة متبادلة، مقال رصين ينشر بالطبع في جريدة عربية مرموقة، بمقابل مادي مجزٍ للغاية،

بالناحية المقابلة يسعد أي كاتب برؤية الأستاذ الباذخة عن منجزه الإبداعي، بالطبع يرد له الجميل ولو بعد حين، لذا فكاتبنا الكبير سنًا قد أصبح ضيفًا دائمًا بمعارض الكتاب والفعاليات الثقافية بأغلب دول الخليج. أرى أن الحوار قد تحول إلى محض نميمة فأغير منحى الحديث، أسألهم: كيف تعرفتم وأين؟ يردون: بالندوة الأسبوعية للأستاذ سعيد، أقول: تسبونه وأنتم من مريديه؟ ليس هذا من أخلاق الرجال، يرد أحدهم: الأمر طبيعي، فمقهى خليفة هو الوجهة الأولى لأي مثقف، ذهبنا إلى هناك كما الجميع، وأول ما أدركنا أنه ليس إلا مستنقع قذر غادرناه من فورنا، يعقب ثان: الحسنة الوحيدة كانت تعرفنا على هادي، أسأله: هل كان من رواده؟ يضحك، يؤكد أنه كان ضلعًا أساسيًا من أضلاع ندوة الجمعة، يكمل ثالث: كان مقربًا للغاية من السنباطي لكنه انسحب، تأكد من أنه مجرد أفاق ولا يهتم إلا بتحقيق مكاسب شخصية، ساعتها أخبرنا بوجوب مغادرة مقهى خليفة للأبد، ردد بأسى: نحن جيل بلا أساتذة، أهز رأسي، أود القول: إن تلك الجملة مقتبسة وليست من بنات أفكاره، أفكر في إعطائهم نبذة عن محمد حافظ رجب وأدبه وأسباب إطلاقه لتلك المقولة وعواقبها التي أنهت مسيرته.

عاد هادي أخيرًا، جلس بجانبي فسألته: هل هناك مشكلة؟ رد: على العكس، مجرد لقاء مع صديق، ضحكت بخبث فحرك كرسيه حتى لاصق كرسيّ، ابتسم قائلًا بصوت خفيض: هل تريد مساعدتي أم لا؟

(15)

رفيقة آخر العمر حياة

يقول أحد المثقفين العظام: يجب أن يكون المرء حزينًا أو سعيدًا، القناعة هي طريقة دافئة لمن يتناولون الطعام وينامون.

ربما لم أصبح بعد بشرًا، آكل وأنام طيلة عمري، لن أقنع نفسي أبدًا أنني قد تلبسني الحزن يومًا، ربما كنت يائسًا، محبطًا أغلب سنوات حياتي، لكن زادي هو القناعة، سأحاول منذ اليوم أن أزيحها جانبًا وأصير إنسانًا حرًا بحق، يفرح حتى ينتشي ويحزن حتى يغالبه البكاء، أصارحك القول أنا صورة معاكسة لفريد، اعتقلوه فلم يرتعب، ظل صامدًا، لم يهادن أو يغير من أفكاره، قال للمحقق بثقة أحسده عليها: لم أمسك سلاحًا، كل ما فعلته هو التعبير عن أفكاري بحرية، أسبوعان في ليمان موحش كئيب قضاهما الشاب صابرًا، مضايقات بالجملة وضرب مبرح، إحقاقًا للحق لم يرتق الأمر إلى تعذيب ممنهج أو شروع بقتل.

كان صلدًا لكن يعتصره الألم، بعد أيام قليلة من اعتقاله تمكن أحد الأقارب من تسليمه رسالة: وديع مات وإيدا حامل بطفل، انهار الشاب، بكى لساعات، بصق وسب ولعن، طرق باب الزنزانة حتى دميت قبضته، ركل الجدران حتى نفدت طاقته، سقط على الأرض فالتف حوله زملاؤه، واسوه فهدأ ظاهريا لكن البركان بداخله لم يخمد.

يتألم، يقول لنفسه: ما ذنب أبي المسالم، طبيب الفقراء لا يستحق مثل هذا المصير أبدًا، هل أنا السبب؟

سالت دموعه ثانية، اعتبر نفسه مذنبًا، قاتلًا أنهى حياة أقرب الناس إليه، تساءل، هل سأغادر هذا المكان يومًا؟ هل سأرحل من هنا على قدمي أم في نعش؟ ما ذنب إيدا؟ أحبتني بصدق، وثقت بي فدمرت حياتها، باتت زوجة لسجين، ستصبح أمًّا بعد أشهر، طفل سيأتي إلى الدنيا وربما لن يرى أباه أبدًا، هل أنا على صواب؟ أم أنه خليط من نزق وغرور وادعاء بطولة.

يحاول استجماع شتات نفسه، يعرف أنه سوف يجن لو استمر بالتفكير، يلجأ إلى استرجاع ذكريات الصبا ليخادع عقله، ينجح، يلوح شبح ابتسامة على شفته عندما تظهر صورة فؤاد بمخيلته. تلوح فيلا سليم بيك من بعيد فيقترب، الجلسة الأسبوعية للعائلة، آل (حداد) مبتهجون، الأطفال لعبوا حتى أنهكوا، الطعام على المناضد، الأمهات تحاول إقناعهم بترك الحلوى المنزلية اللذيذة كتحلية وتناول وجبة الغداء، يلتهمون الباستا والدجاج بأقصى سرعة وينصرفون للعب، يجلسون في دائرة بوسط الحديقة إيذانا ببدء اللعبة التي ابتكرها (البيك).

«ماذا ستصبح بالمستقبل؟».

يقولها عميد العائلة وهو واقف بمواجهة الأطفال، يلتف حول الدائرة الآباء والأمهات مستعدين لفاصل من البهجة، يستمتعون بالحديث البريء، يضحكون من قلوبهم ويدونون مقولات الأولاد ليذكروهم بها عندما يصيرون شبابًا.

يجلس البيك على العشب ويبدأ في طرح سؤاله على كل منهم: ماذا تريد أن تصبح يا ولد؟

أمين ينوي دراسة الطب، ميلدا تتمنى العمل بمشفى، حنا يأمل أن يكون قبطانًا يجوب المحيطات، فريد الأكبر ببضع سنوات يتلعثم، اخضرَّ شاربه وخشن صوته فصار يخجل، ربما ملَّ اللعبة، أسئلة مكررة وإجابات لا تتغير، يقول لنفسه: لم أعد طفلًا، لمَ يصر عمو أن أجلس وسطهم؟ يرد بعد أن يكرر البيك سؤاله: لا أعرف يقينًا حتى الآن، لم أقرر بعد، تضحك هلجريد، تقاطعه، ترد نيابة عنه: سيكون ابني طبيبًا لامعًا مثل أبيه.

لم ينس قط ما قاله فؤاد في ذلك اليوم، الطفل الأصغر بالعائلة ليس مثل الجميع، رد بثقة: أريد سيفًا يا بابا، ضحك الجميع، عقب البيك: لقد ولى زمن السيف يا ولد، الضباط الآن يحملون البنادق ويقودون الدبابات، أردف فؤاد: لا أريد أن أصبح ضابطًا، كل ما أحتاج إليه هو سيف، يسأله البيك: ولمَ السيف؟ يرد: لأحرر العالم، يضحك الجميع، يتعجب البيك، يهز رأسه يتساءل: ممن تحرر العالم يا ابني؟ يرد: من كل شرير وظالم.

يضحك فريد، يمسح دموعه ويواجه نظرات رفقاء الزنزانة المندهشة من تحوله المفاجئ، يقف بمواجهتهم، يحدثهم بصوت يملؤه الحماس: لكل شيء كلفة، وكلما علت قيمة الشيء؛ ارتفعت كلفته، أبي مات من الخوف لذا أقسمت ألّا أخاف أبدًا، زوجتي حامل بطفل وسأبذل الغالي والرخيص ليعيش ابني ببلد يسوده العدل والحرية، لسنا قاطعي طرق، نحن شرفاء، وطنيون، نحاول

بكل الطرق السلمية إصلاح مجتمعنا، ستتحرر مصر يومًا، أنا بائس، حزين ويعتصر قلبي الألم، لكنني لن أتراجع مهما كلفني الأمر، مصيرنا واحد ومستقبلنا واحد.

صمت فارتفعت الصيحات، تشجع المعتقلون وودّعوا الخوف، بدأت الهتافات، سرى الحماس وانطلقت أهازيج الحرية لتزلزل جدران الليمان، انتقلت العدوى إلى العنابر المجاورة، تحول السجن بلحظة من مكان موحش إلى ساحة يملؤها الأمل، بدا صوت دبيب الأقدام قادمًا من بعيد، اقترب فارتفعت الأصوات أكثر بالهتاف لتعلن نهاية الخوف، فُتحت الأبواب، مر السجانون إلى الداخل وبأيديهم الكرابيج والهراوات، ردّوا على أناشيد الحرية بطريقتهم الخاصة، كسروا العظام وجلدوا الأبدان، ضربوهم بقسوة حتى تعبوا، غادروا بعدما عم الهدوء المكان.

بندبة أعلى الحاجب وجرح بالفخذ وبضع كدمات بالوجه والظهر غادر، أسبوعان قضاهما بالليمان ثم صرفته النيابة لعدم كفاية الأدلة، بالطبع كان لسليم حداد دور، حادث أحد الوزراء وقدم هدية ضخمة لـ(بيك) يعمل بالقصر الملكي.

عاد إلى المنزل فوجده خاويًا، هاتف عمه كامل فأخبره أن إيدا وهلجريد لم تطيقا البقاء، لم تستطيعا قضاء ليلة واحدة بالبيت منذ وفاة وديع المسكين، لم يعرف بما يرد، صمت فأعقب عمه: احضر حالًا، نحن بانتظارك.

كلما فكر كيف سيواجه أمه انقبض قلبه، ماذا سيقول لها؟ كلمات

الأسف والمواساة ليس لها معنى، الرعب الذي اختبرته بسبب اعتقاله لا يحتمل، موت أبيه مأساة، هو السبب لا يمكن إنكار ذلك.

وصل فوجدهم مجتمعين بانتظاره، أول ما مر إلى الداخل احتضنه كامل وأخذ بالبكاء، قبّل يد أمه وعانق زوجته طويلًا، مد يده إلى البيك فرفض مصافحته، قال بخشونة: اجلس واستمع ولا تتكلم، جلسة عائلية عاصفة يتخللها الكثير من البكاء والنحيب، انتهت بقبوله لشروط عميد العائلة: لا سياسة بعد اليوم يا ولد، أنت مجرد طبيب، دورك هو تشخيص الأمراض، مداواة الناس مهمة إنسانية كبرى، نحن أقلّية، مسيحيون ولسنا حتى مصريي المولد، يهز رأسه، ليس متأكدًا هل يمثل الاقتناع أم لا، دموع أمه وذكرى أبيه جعلتاه يوافق بلا أي محاولة للاعتراض، استسلم طالب الطب الموشك على التخرج وصحب عائلته إلى شقة المرحوم وديع.

أبعد فكرة النضال عن عقلة مؤقتًا وأراد إسعاد أمه، قرر العمل بمستشفى الكنيسة التبشيرية بمصر القديمة، قال لها: سأحل محل بابا في المشفى فاحتضنته وأخذت في البكاء، أعاد افتتاح عيادة شبرا المغلقة، لم يبدل باليافطة أخرى جديدة، حتى عندما طالبت إيدا إضافة اسمه أسفل اسم أبيه رفض، رد بانفعال: عيادة بابا ستبقى كما هي، الناس يحضرون هنا لطبيب الفقراء، لا فرق بين وديع وفريد بالنسبة إليهم.

لم يفِ دخله بالتزامات العيادة، بالرغم من ذلك رفض لأكثر من مرة عروض سليم بيك الجدية لمساعدته ماديًا، اتفق مع العم

كامل على افتتاح عيادة أخرى للميسورين، جهز غرفة بشقة مصر الجديدة وحولها إلى حجرة للكشف على المرضى، استمرت هلجريد بعيادة شبرا وتولت إيدا مهام إدارة العيادة الجديدة.

قبل أن يولد الطفل بشهر أو أكثر بقليل عين بمدرسته القديمة، غادر الكلية الإرسالية بمصر الجديدة صبيًا وعاد إليها طبيبًا يرتدي البذلة والطربوش، أخيرًا أصبح بلا ضغوط مادية، العمل لاثنتي عشرة ساعة يوميًا جعله قادرًا على الوفاء بمصروفات عائلته وعيادته.

أتى وديع الصغير إلى الدنيا فابتهجت الأسرة، حاول آل (حداد) نسيان ذكريات الماضي القريب المرة واحتفلوا، بفيلا سليم بيك، أقيمت المأدبة الضخمة احتفالًا بمولد (آخر العنقود)، خلعت هلجريد زي الحداد وضحكت من القلب، صافح البيك فريد بحرارة، أخبره بسعادته البالغة لنجاحه في عمله واستكماله لمسيرة والده، قال بود ظاهر: وعدتني بالابتعاد عن الأولاد مثيري الشغب وأوفيت بوعدك، حاول إقناع ابن عمك بالكف عن أعماله الصبيانية.

فؤاد خريج مدارس الفريير والذي يكره الحديث بالفرنسية بالمنزل قد صار شاعرًا، أراد تحرير العالم بسيفه وعندما كبر وأدرك استحالة ذلك قرر تحريره بكلماته، أيد الوفد ثم عارضه، مقت الاحتلال وآمن بملكية دستورية تحرر البلاد، انقلب على الليبرالية وانضم للحزب الشيوعي المصري، ترك الأحزاب بالنهاية والآن ينادي بضرورة تحرير العالم العربي من المحتل الغاصب.

في اليوم التالي عاد إلى فيلا عميد العائلة للقاء فؤاد، جلس معه لنصف ساعة فقط فأدرك التحول الذي أصابه، لم يعد مغرمًا بالشعر الفرنسي ورواده وبات مولعًا بأمهات الكتب العربية، تاريخ العرب صار شغله الشاغل، الوطن العربي الكبير ومستقبله أصبح طاغيًا على أغلب حديثه، المصري الخالص بمواجهة العروبي، للأسف لا أرضية مشتركة للنقاش، ينتابه القلق من تحولات الشاب الحادة، يريد تنفيذ رغبة عمه، فقد لمح لأكثر من مرة بأنه السبب في ما آلت إليه حياة ابنه، يؤنب نفسه: أنت السبب، زرعت روح الثورة في قلبه، كان مجرد فتى يقضي جل وقته في النادي وسط أصدقائه الأجانب، أنت من أعرته الكتب وشجعته على قراءتها.

يسرح، لا يركز فيما يقوله فؤاد، يسمع شذرات ويهز رأسه، يمثل التركيز وينتبه فقط عندما يصرخ فيه قائلًا: الحكام خونة ومتآمرون، أضاعوا فلسطين.

يصمت للحظات، لا يعرف بما يرد، يتنحنح ثم ينطلق في الحديث المخطط له قبلًا، يقول وكأنه يريد إبراء ذمته: ابتعد عن السياسة، أرجوك، حاول أن تستمتع بوقتك، حب، ارتبط بفتاة حلوة ومنطلقة، تزوج وكوّن أسرة، لو استطعت هجر الكتب افعل، لن يتحمل أبوك اعتقالك، نحن أقلية، مسيحيون وأصولنا ليست مصرية، ليس لنا ثقل ولن يدافع أحد عنا، يقاطعه منفعلًا: أنا مصري حتى النخاع، ليس لمخاوفك مبرر، من حقي أن أقرأ وأفكر، لا أحد قادر على منعي من ذلك، لكل إنسان قضية

وواجبي الدفاع عن قضيتي، لو لم أفعل ذلك فما الفارق بيني وبين الحيوانات، يجد أن لا فائدة من استمرار الحديث فينسحب، يعرج إلى مكتب البيك ويؤكد له أنه قد قام بأقصى ما يستطيع، يعده بأن يكرر محاولاته ثم ينصرف.

يغادر الفيلا فيطلق زفرة ارتياح، صحيح يعترض على أغلب أفكار ابن عمه لكنه يغبطه، يقول لنفسه: لا طعم للحياة، أن تتحول الدنيا إلى عمل فقط شيء صعب، أن يصبح هدفك الوحيد هو إعالة أسرتك أمر مأساوي.

ترتسم على وجهه ابتسامة، ينهي حديثه الداخلي قائلًا: حمدًا لله يا فؤاد أنك لم تقبل التحول إلى حيوان.

رغمًا عن كل شيء تتحسن حياته بعض الشيء، ينغمس في العمل ويلمع نجمه، يتوافد البكوات والأفندية إلى عيادته، يتمكن من ادخار بعض المال وينجح في تأجير شقة أخرى بهليوبوليس، يفتتح عيادته الجديدة ويخلي غرفة الكشف بشقته لمولوده الثاني، يأتي سامي فريد حداد إلى الدنيا والأوضاع مستقرة، أمه منشرحة بنجاح ابنها وزوجته منشغلة أغلب الوقت برعاية طفليها وشراء أثاث أنيق للمنزل، العم كامل يزدهر عمله ويدشن صيدليتين بعابدين وحلوان، سليم بيك تتوسع علاقاته ويصبح على بعد خطوة من الحصول على الباشاوية.

هو مستسلم ظاهريًا لكن بداخله بركان، امتنع عن المشاركة في التظاهرات والاجتماعات الحزبية لكنه لم يقطع صلاته بأصدقائه

أعضاء حركة «حدتو» الشيوعية، أحيانًا ما يضبط نفسه متلبسًا في مناقشات سياسية حادة، أو بمساعدة رفيق في كتابة بيان للحركة، لولا خوفه على أمه لعاد إلى سابق عهده، لكنه يعرف أنها لن تتحمل اعتقاله ثانية، الشاب يجاهد نفسه، عيادة شبرا تحقق له بعضًا من توازن نفسي يفتقده، تطبيب الفقراء يشفي الغصة التي لا تفارق حلقه، بعد أن ابتعد لسنوات عن الكنيسة عاد إليها، بدأ الأمر بزيارات متباعدة تحت ضغط هلجريد، اصطحب زوجته وأبناءه مضطرًا إلى هناك، بمرور الوقت أدرك أن التدين يخفف من وطأة توتره، فواظب يوميًا على الصلوات، توليفة غريبة لم يستسغها المقربون له؛ مسيحي متدين وشيوعي صرف.

أضاف إلى جدوله المزدحم عملًا جديدًا، يوم أسبوعي خصصه لمداواة المرضى في الريف، يملأ حقيبته بأدوية البلهارسيا والمضادات الحيوية ويتحرك. يحب الريفيين، ودودون وبلا ضغائن، بزيارته الأولى قابلوه بتوجس، مع الوقت وثقوا به وأحبوه، باتوا يستقبلونه بوجوه بشوشة ويودعونه بالدعوات المخلصة.

كم تمنى أن يصبح صورة من وديع، لكنه يعرف باستحالة ذلك، الوضع مختلف وكذلك الأفكار، أبوه ظل حتى آخر عمره يوقن بأنه ليس مصريًا خالصًا، رغم سنواته الطويلة بالقاهرة يدرك ذلك ويعيه جيدًا، يعرف أنه ضمن أقلية، كثيرًا ما قال لابنه: نحن شوام، أقلية بالنسبة للمصريين، المسيحيون أقلية بالنسبة للمسلمين، نحن إنجليين، أي أقلّية بداخل الأقلّية المسيحية،

الأرثوذكس يعتبروننا خواجات، يبتسم وهو يتذكر كلمات أبيه، يقول لنفسه، يا للعجب! أنا أنتمي إلى أقلية شيوعية داخل الأقلية الإنجيلية التي ينتمي أغلبها إلى الأقلّية الشامية، والتي يجمعها وعاء الأقلية المسيحية.

متأكد من أن الاختلاف بينهما هو كونه مصريًا، ليس ضيفًا ولا لاجئًا ولا مغتربًا، يعيش بوطنه وسيدفن في ترابه، يشعر بأوجاعه ويأمل بتحرره، ليس إيمانه المسيحي هو دافعه إلى العمل وإنما انتماؤه الوطني، دائمًا ما يقول لإيدا: أعالج المصريين لأنهم مصريون، أبناء وطني، أهلي وناسي، لن يرتقي الوطن إلا بالأصحاء يا حبيبتي.

ربما الشعر هو ما ساعده على الوفاء بوعده، قد يكون وجد في السلوى، يذهب إليه ليخرج تجاربه الشعورية في قصائد، يعبر عن تيهه بكلمات، يتساءل عن معنى الوطن والإيمان والانتماء، يكتب كلّما سنحت الظروف، يعلم أن شعره متوسط القيمة لكنه لا يستسلم، يقول لنفسه كلما فكر في هجران الشعر: يكفي أن أطرد هواجسي، أضع غضبي على الورق لأتحرر منه.

أكتب لأنسى لا لأتذكر، هكذا قال يومًا لفؤاد فضحك، رغم الاختلافات لم تنقطع أواصر صداقتهما، ابن عمه شاعر بحق، هو يعرف ذلك ويقدره، شاب أفكاره واضحة وأسلوبه مبتكر، يكتب بسلاسة وعذوبة يحسد عليها، بالطبع زمن النقاشات السياسية قد ولى، تحول إلى مجرد مستمع، يلقي فؤاد شعره الثوري، يلعن بطش الحكام وجبن المحكومين، يجاهر بآرائه ولا

يلتفت لاحتجاج آل حداد، كلما حدثه أحدهم يرد بفخر: أنا مصري عربي ولن أنحني أبدًا.

لا يلومه كما الجميع، فقط ينبهه، يقول له: احذر، حاول قدر المستطاع الابتعاد عن المشكلات، يبذل الكثير من الجهد للتقريب بينه وبين أبيه، البيك غاضب، يقول بحدة: ستنهي بتهورك على مستقبل العائلة، ابتعد من فضلك عن مثيري الشغب، يرد فؤاد بضراوة: لا شيء أسوأ من الخيانة، لا يزدهر مستقبل العائلة بالألقاب بل بالسيرة الحسنة، الشجاعة لا الغبن في مواجهة الظلم هي البطولة.

يمل فريد، يدرك أنه لا حل فيبتعد، يمتنع عن الحضور، تتفاقم الأمور سوءًا فيهاتفه عميد العائلة، يذهب مضطرًا بعد إلحاح أمه، يصل فيتمتم بالكلمات المكررة ثم يصطحب فؤاد إلى مقهى قريب، يمثل على غير رغبته دور الأخ الكبير، يقول بهذر: ليست مظاهرة يا ابن العم، أبوك ليس الملك وأمك ليست المندوب السامي البريطاني، من فضلك توقف عن استفزازهما، ما المغزى من تشغيلك لأسطوانات القرآن بالمنزل؟ ما الداعي إلى إجبار مسيحيين على الاستماع إليه، أمك متدينة للغاية وأنت تعرف، لماذا تهوى إغاظتها؟ يضحك، يرد بهدوء: أتجيد كتابة الشعر؟ يستغرب من تغيير ابن عمه لمجرى الحديث، يقول: أنا لست شاعرًا، أكتب لمجرد التنفيس ليس أكثر، يعقّب فؤاد: أنا شاعر وأؤكد لك أنه لا يصح أن تتعامل مع اللغة دون دراسة القرآن بتمعن، يضحك قائلًا: كفاك تمردًا، أنا لم أرَ مسيحيًا يفعل ذلك،

بالرغم من ذلك فلك مطلق الحرية، المهم أن تعرف أن للحرية قيودًا، استمع وحدك يا أخي، ما الداعي لإغضابهما، يضحك فؤاد: لا أجبرهما على الاستماع، هما من يأتيان إلى حجرتي بمحض إرادتهما، ثم إن صوت محمد رفعت رائع.

بعد الكثير من الشد والجذب يوافق على مضض، يقول: لأجلك فقط، سأنقل الجرامافون إلى الغرفة الملحقة بالحديقة، سأمارس حريتي بعيدًا، وأرجو ألا يتبعاني.

تبث الإذاعة البيان الأول لحركة الضباط، صوت السادات الرخيم يدفع إلى الطمأنينة، يسعد فريد بإزاحة الملك، انقلاب سلمي دون نقطة دماء واحدة، القاهرة ساكنة وفاروق غادر في هدوء، نجيب رجل يشهد له الجميع بالنزاهة ومن المتوقع إجراء انتخابات نيابية حرة بالقريب، سيكتسحها الوفد بكل تأكيد.

يأمل الطبيب الشاب في غد أفضل، سيصبح الشيوعيون غير مطاردين كما الماضي القريب، يحلم بجولات ميدانية تجوب قرى مصر وربوعها، للتعريف برؤى الحزب وأفكاره، هو ورفاقه قادرون على إقناع الناس، يأخذه الحماس فيقول لنفسه: ربما بعد سنوات قليلة ننافس على تشكيل الحكومة، ما المانع في أن نصير يومًا حزبًا للأغلبية؟

يعم التفاؤل أوساط الشباب، يستعد للعودة للعمل السياسي، يقول لرفاقه: لقد انقشع الضباب أخيرًا، سنغادر الغرف المغلقة إلى غير رجعة، سنخرج إلى العلن ونتحدث بلا خوف، تهب رياح

الخماسين فجأة، تلهب الأعين، تنسال الدموع، يؤكد العسكريون بوجوب مطاردة الفئران، يقول أحدهم بزهو: لسنا ليّني العود كفاروق، كلٌّ إلى جحره وإلا الموت، الخوف يوتر الأعصاب، تدب الخلافات داخل الحزب فيربأ بنفسه ويبتعد.

«لا يهمني إلا مصلحة الوطن، تسقط الأحزاب لو كانت عقبة في طريق التقدم»، قالها فوافقه فؤاد على غير العادة، ابتسم قائلًا: بعد أن ينتهي نجيب وناصر من ترتيب البيت من الداخل سيحرران فلسطين من أصدقائك اليهود، يرد فريد ضاحكًا: أدعم أي قرار يسعدك بشرط ألا يريق الدماء، أخيرًا ينسجمان، يتحدثان لساعات متذكرين أيام الصبا، يضحكان بصدق ويلقيان النكات، يستمع سليم بيك إلى القهقهات فيحضر، يقول لهما: غريب أمركما، بأيام العز كنتما تتشاجران وبعدما ولَّت تضحكان، يبتسم فؤاد بوجه أبيه، ربما للمرة الأولى منذ سنوات، يداعبه: اجلس يا دكتور معنا، يرد الأب: دكتور؟ كنت بيك يا ولد، تقترب الأم، تسألهم بالفرنسية: هل أجهز العشاء؟ يتخلى فؤاد عن عناده ويجيبها بالفرنسية: اجلسي رفقتنا يا ماما، يقترح فريد دعوتهم على العشاء بالخارج، يقول: منذ فترة لم تجتمع الأسرة، سأتصل بماما وإيدا، يقاطعه البيك: لن يغادر أحد الفيلا الليلة، هذه الجلسة لن تتكرر، يردف فريد: إذن ما رأيكم في إحضار وجبات من الألفي بيك؟ يضحك فؤاد قائلًا: اسمه مطعم الألفي فقط، ألغيت الألقاب يا ناس، المهم لا تبخل في الكباب يا دكتور.

يتصل بالمطعم، يسجل طلبه ويخبرهم أنه سيحضر خلال ساعة لتسلُّمه، يستأذن الجميع في الانصراف، يقول: سأحضر إيدا وماما والأولاد وأعود سريعًا، يعقب البيك بهذر: لا تنسَ الطعام، يرد ضاحكًا: من بيت مصر الجديدة على المطعم طوَّالي.

يهاتف زوجته ثم ينصرف، يقود سيارته ويدندن لحنًا حديثًا لعبد الوهاب، تسطع الأضواء بوجهه فيغمض عينيه للحظات، يخرج رأسه من الشباك ويزعق في السائق السائر عكس الاتجاه، يقول بغضب: ما تفعله مخالف يا أستاذ، قد تتسبب بحادثة مروعة، يتلعثم أول ما يكتشف أنها سيارة بوليس، ليست واحدة وإنما ثلاث، يبتعدون فيلتفت إلى الخلف ويتابعهم، ينقبض قلبه أول ما يراهم يبطئون قبالة الفيلا، ينعطف عائدًا، يصل فيجدهم قد مروا إلى الداخل، يركض وهو يستمع لصوت شجار، يصل فيرى فؤاد قيد الاعتقال.

البوليس واحد؛ ملك، عسكر، فاروق، نجيب، لا يتغير شيء، الوجوه البغيضة نفسها، ذات الخشونة والجلافة، لم تفلح محاولات البيك في إقناع الضابط بأن هناك خطأً بالأمر، يرد بتعجرف بأن الأوامر واضحة فيسبّه فؤاد، ينهال العساكر عليه ضربًا ثم يجرونه قسرًا إلى الخارج، يندفع البيك إلى غرفة مكتبه ليهاتف المسئولين، يحاول فريد بلا جدوى معرفة أي معلومات من الضابط حول التهمة، والجهة التي سوف يرحلونه إليها، تمر الدقائق ببطء يتخللها نحيب الأم، يخرج البيك، يفشل كما المتوقع، باشاوات الأمس أصبحوا الآن لا حول لهم ولا قوة، المكالمات انتهت

بمصمصة الشفاه والدعاء بألا يصيب الشاب مكروهًا، ينهار البيك، يبكي في العلن ربما للمرة الأولى بحياته.

يغادر هربًا من أصوات النحيب، يقود سيارته كما الغائب عن الوعي حتى يصل إلى منزله، يمر فيجد أمه وإيدا أمامه والدموع تغرق أعينهما، يتحاشى النظر نحوهما ويتوجه إلى غرفته، يلاحقانه، تمسك هلجريد بكتفه لتوقفه، تحدثه بكلمات متقطعة تتخللها شهقات: إياك يا ابني، لن أتحمل أن يكون هذا هو مصيرك، ابتعد قدر ما تستطيع، لو لا تقدر على ذلك غادر، سافر إلى أعمامك بلبنان، لك حرية الاختيار، إما طبيبًا فقط بالقاهرة وإما هجرة بلا عودة، العسكر أقسى من فاروق، هم رجال حرب، يمتلكون السلطة والسلاح، وسيواجهون الكلمات بطلقات الرصاص، لا يعرف بمَ يرد، يرتمي على السرير، يطلب منها إغلاق الضوء ومغادرة الغرفة، يتقوقع حول نفسه ويغمض عينيه فتغادر، يستمع لنشيجها فيبكي هو الآخر، يقول لنفسه: اختر وتحمل عواقب اختيارك.

(16)

حياة

يقول أحد المثقفين: المصيبة الكبرى أننا ننسى، نتناسى ماضينا وننغمس في حاضرنا، يتساءل: هل النسيان عملية تحايل رخيصة؟ البشر ينسون، الأمم تنسى، يؤكد: التذكر من سمات الحضارة، لن تتقدم الأمم إلا بتذكر تاريخها وعدم تكرار مآسيها مرة أخرى.

هل كلام المثقفين ليس له معنى؟ أظنك بمجرد قراءتك للفقرة السابقة ستقولين بضيق: أصدقاؤك حديثهم ماسخ يا بهيج، كلماتهم تبدو أنيقة لكن بلا مضمون، أصدقك القول، انا بنفسي اختبرت ذلك، أجتر الذكريات طوال الوقت، لم أدفن رأسي في الرمال وأحفظ عن ظهر قلب التاريخ المأساوي لبلادي، ماذا حدث لي جراء ذلك؟ لا شيء، لم أصبح متحضرًا بعد، أكرر الأخطاء نفسها وكأنني مسير، تأكدت من أن التاريخ مجرد حلقات مفرغة، تتغير الأسماء، تتبدل الأحداث، لكن النهايات واحدة.

الشباب يذاكرون جيدًا، يعرفون أدق التفاصيل عن ماضينا التعيس، قـرءوا الكتب، استمعوا للمؤرخين وهم يروون التاريخ الرسمي الذي كتبه المنتصرون، وأتاح لهم الإنترنت معرفة روايات المنهزمين أيضًا، رغم ذلك لم يتعلموا، لا شيء إلا السفسطة والمجادلات العقيمة، هذا فقط ما يفعلونه.

أنهيت الحوار مع هادي بدبلوماسية أجيدها، غادرت المقهى متوجهًا إلى بيت ورد، وصلت كما الميعاد ففوجئت بالزحام، عشرون شابًا وفتاة كانوا متواجدين، كنت أظن أنها زيارة شخصية فعرفت متأخرًا أنه افتتاح تجريبي، أول ما رأتني منصورة انطلقت نحوي مرحبة، تجاهلت هادي وصافحتني بحرارة، أمسكت بيدي وأصرت على تعريف أصدقائها بي.

ديكورات تشبه إلى حد كبير الموجودة بمطعم ولاء، صور لأم كلثوم ونجيب محفوظ وتشي جيفارا تملأ الحوائط، غرفة مغطاة بأفيشات أفلام أحمد زكي وأخرى تحتوي على عشرة بورتريهات لمحمد منير، صالة واسعة تغطي أغلب حوائطها الزهور الصناعية وجمل بالخط الكوفي لمحيي الدين ابن عربي.

الحاضرون لم يمثلوا الاهتمام المبالغ فيه بشخصي، لا أحد عانقني أو لقبني بالكاتب الكبير، أظن أنهم لم يسمعوا باسمي من قبل، منصورة اكتفت بالتعريف البسيط: هذا هو العم بهيج، عرَّابي ومرشدي في عالم الثقافة، دقائق وتفرقوا من حولي، بقيت هي جانبي وأخذت في شرح ما سوف يحدث خلال الساعتين المقبلتين، قالت بحماس: شيفو سيغني للشيخ إمام وورد ستنشد جزءًا من السيرة الهلالية، سيصاحبهم كالا على العود، بعدها ستُعرض ثلاثة أفلام مستقلة لمخرجين مصريين حاصلين على جوائز دولية كبرى، أهز رأسي، أشير إليها أن تذهب لتكمل عملها، تبتسم قائلة: البيت بيتك، قبل أن تتحرك يتحدث هادي، يعاتبها، بعد كل هذا المجهود الذي بذله في

تجهيز المكان أصبح كما الأغراب، حتى لم تبلغه بموعد الافتتاح، ترد بنعومة: الأمر حدث دون ترتيبات، الأصدقاء رتبوا لسهرة بمنزل أحدهم، كما تعرف لا أفضل الزيارات المنزلية، رفضت بلطف فألحوا، وافقت شرط أن نقيمها هنا، يفك الشاب تكشيرته قليلًا فتكمل: أنا لم أخالف الاتفاق بيننا، أنت من انشغلت بمشروعك الجديد. أنتبه، هي الأخرى تعرف بأمر دار النشر، تنفرج أساريره، يؤكد لها أنه عمل مؤقت، يشدد أنه تطوعي ولن يشغله مطلقًا عن بيت ورد، يستأذن في الانصراف للإشراف على التجهيزات بنفسه، يهرول ناحية ماكينة الصوت ويشرع في تركيبها، يتشاور مع الشباب لتحديد المكان الأمثل لوضع البروجيكتور، تعتذر لاضطرارها تركي بعض الوقت، تجلسني على كرسي وتضع مشروبًا غازيًا على المنضدة أمامي، تتحرك في حماس كما النحلة فأشفق عليها، جهد بلا طائل يا ابنتي، فالنصاب سيبدد أموالك بالنهاية.

تمتلئ المقاعد من حولي، تزدحم المنضدة بالمشروبات والأطعمة الخفيفة، تطفأ الأنوار وتضاء الكشافات الخافتة، تنطلق الموسيقى يصاحبها عزف منفرد على العود، أستمع لأشعار أحمد فؤاد نجم فتنتابني قشعريرة، أتذكر الماضي، تلوح أمامي مظاهرات الشباب وسجن القلعة، تتداعى للذكريات فينقبض قلبي، ترتفع الأصوات بالغناء، الكل يحفظ قصائد نجم السبعينية، يمر الوقت ببطء، أجلس كما الظل لا يشعر بي أحد، الشباب منشغلون، يتحدثون بثقة، يتوهمون أنهم يعرفون جميع الإجابات، مشكلات

مصر سهلة الحل، الأمر بسيط، الفن وليس شيء آخر، السينما قوة ناعمة، المسرح، الأدب.

هراء يا حياة، يظنون أن أشعار كيكو الساذجة وقصائد ريتاج الركيكة ستصل إلى الشعب وتحركه، مثلما حركته من قبل أشعار نجم ودنقل وحداد.

وددت إخبارهم بالحقيقة المرة، الشعب لا يأبه مطلقًا، الفن نخبوي، لم يغن الفلاحون يومًا في قراهم تلك الأشعار، لم يسمعوا بنجيب سرور، يحبون كشك لا إمام، نجم بالنسبة لهم حالة تلفزيونية، وفؤاد حداد مجرد مسحراتي.

من الواضح أنني قد قطبت جبيني، الفتاة الجالسة بجانبي لاحظت ذلك، فأشارت لمنصورة كي تحضر، قالت لها: يبدو أن الصوت المرتفع يزعج عمو. بالطبع فردتُ وجهي ومثلتُ المرح، قلت: بالعكس، سهرة ممتعة للغاية ذكرتني بأيام جميلة مضت.

أُغلقت الأنوار فأطلقت زفرة، قلت لنفسي: الحمد لله سيبدأ عرض الأفلام أخيرًا وسيجبر هؤلاء الشباب على إغلاق أفواههم.

الجوائز السينمائية هذه الأيام باتت تهتم بأمور غريبة، أفلام تفتقر إلى الحد الأدنى من الجودة، ممثلون هواة وكادرات فقيرة وسيناريوهات في قمة الضعف، فيلم تدور أحداثه كلها خلال ساعة واحدة، بنهار يوم جمعة، تحديدًا قبل موعد الصلاة بقليل، يستقل شاب وفتاة باص، حافلة حكومية مكيفة تحمل شعار هيئة النقل العام بالقاهرة، يخرج الشاب من جيبه عملة ورقية بقيمة

خمسة جنيهات ويمنحها إلي السائق، يبتسم ويشير إليه بالاحتفاظ بالباقي، يهرولان إلي مؤخرة الأتوبيس الخالي من الركاب، أول ما يجلسان تبدأ الفتاة في خلع حجابها، يحتضنها الشاب ويأخذ في تقبيلها بعنف، يدفع يده لتغوص أسفل ملابسها، يداعب كل شيء تطوله يده، تغمض البنت عينيها ويعلو صوت أنفاسها، تظهر معالم القاهرة تباعًا، تستعرض الكاميرا الأتوبيس الخالي، تتوالى المحطات بلا صاعدين أو هابطين، تظهر حبيبات العرق على وجه الشاب، يلهث أما هي فتعض على شفتيها، قبل الوصول إلى المحطة الأخيرة يطلقان آهة مفتعلة، تحتل الشاشة صورة السائق بابتسامته اللزجة، ترتدي الشابة حجابها ويعدل الشاب بنطاله، أخيرًا يتوقف الأتوبيس وينتهي الفيلم، لحظات من الصمت ثم ينطلق الجميع في التصفيق، أقلدهم مضطرًا وأخفي اندهاشي من شباب هذه الأيام.

الفيلم الثاني مثال للقذارة غير المبررة، أغلب أحداثه تدور في غرف مقززة ببيت آيل للسقوط، أبطاله: امرأتان ترتديان ملابس تعلوها الأوساخ ورجل يشبه قطاع الطرق، «ضرتان»، واحدة بمنتصف العمر والأخرى مراهقة، الكره هو سيد الموقف، مشاهد تبرز نظرات الأعين، لم تفلح الممثلتان بالطبع في رسم تعبيرات الوجه المناسبة، قاطع الطريق يرتدي ملابسه، يخلع أسمالًا ليرتدي أسمالًا، يودعهما بفظاظة ويغادر، تتحرك الكاميرا خلفه، يمشي بحرص بالغ حتى لا يسقط، حارة مصرية لم أرَ مثلها من قبل، مستنقع من الأوساخ، مياه مجاري متدفقة وقمامة على الجانبين،

يختفي، يبتعد عن الكادر، يحتل الشاشة مدخل البيت المتهالك، تمر الكاميرا إلى الداخل وسط الظلام، ينقبض قلبي من منظر السلالم القذرة، بنهايتها بابان، غرفتان متجاورتان لكلتا الزوجتين، ينفتح الباب الأول، تخرج منه المرأة متوسطة العمر، تطرق الباب الثاني، ينفتح، تظهر المراهقة، تتحادثان بأسلوب همجي، الأولى تلوح بيديها والأخرى تلوي شفتيها كالبلهاء، بلا مقدمات تتحرش متوسطة العمر بالمراهقة، ترفع جلبابها القذر وتتحسس جسدها، تقاومها الثانية وبالأخير تستسلم بغنج، علاقة مثلية غير مفهومة بالمرة تستمر لدقيقتين وتنتهي بصرخة، الأولى التهمت نهد الثانية في تلذذ، تمادت فزاد ضغط أسنانها على حلمة المراهقة، تظلم الشاشة فأرتاح، أطلق زفرة فتظهر الحارة ثانية، الرجل الذي يشبه قاطع طريق يجاهد للمرور وسط الأوساخ، يلقى التحية على أناس أشبه بالمتسولين ثم يصعد راكضًا درجات السلم، تفتح المرأة متوسطة العمر بابها، تقف أمامه كعاهرة وتدعوه إلى الدخول، يرفض فتمسك بيده وتجره إلى الداخل، تحتضنه وكأنه آلان ديلون، تطلق ضحكة رقيعة لا أعرف لماذا، تخبره هامسة أن يكف عن عض ثدي زوجته الثانية، تجحظ عيناه، ويزيحها بعيدًا، يغادر، يطرق باب المراهقة بعنف، تفتح فيسبها، يمزق جلبابها، يرى الدائرة الزرقاء بنهدها فيصفعها بقوة، يركلها بقدميه فتبدأ في إطلاق صرخات هستيرية، تظهر المرأة متوسطة العمر، تمر إلى داخل الغرفة، تصرخ هي الأخرى، يخبرها الرجل بأن «الشر....» تخونه فتلطم خديها وتولول، تشاركه في ضرب المراهقة المنهارة، تدفعها عارية إلى خارج الغرفة.

لم أطق الاستمرار، انسحبت إلى دورة المياه وظللت داخلها حتى انتهت فقرة الأفلام المستقلة المهمة، التي ستعيد إلى مصر أمجادها الغابرة. سمعت أصوات التصفيق الحاد فخرجت، رأيت سيف جالسًا بركن قصي وينظر نحو الحاضرين بغضب، أدار رأسه فرآني، نهض وتحرك تجاهي، عانقني وأمسك بيدي وكأنه يخشى هروبي.

نمر إلى البلكونة فينفث غضبه في الهواء، يغلق بابها ويشعل سيجارة، تنطلق الكلمات من فمه بسرعة، الشاب مستاء، يذم شفتيه، يبتلع الدخان، ينفثه ومعه غضبه، يقول: أنا السبب، طاوعتها، خفت أن أتركها وحيدة، أقاطعه: طالما أحببنا من لا يشبهنا سنتعب، يعقب: هي أتت من مجتمع مغلق، طبيعي أن تحاول رؤية الدنيا، الكل يجرب إلى أن يكتشف الحقيقة، أبتسم قائلًا: إذن أصبر، انتظر انتهاء اللعبة، يرد: أخاف أن تنغمس أكثر ولا تستطيع المغادرة، أسأله: وما العمل؟ فيصمت.

ينصرف الحضور تباعًا، يسألني هادي: هل ستغادر الآن؟ أمط شفتي، انظر إلى ساعتي ثم أجيبه: لا مشكلة في السهر قليلًا فقد قبلت دعوة سيف للعشاء، يعقب: قليلًا! لا أظن ذلك، أقول: لا أفهم، فيرد ضاحكًا: ستفهم عندما نصل.

فندق ذات ثمانية طوابق يقع بقلب وسط البلد، مبنى ضخم يعلوه الكافيتريا، بالأحرى البار، هذا ما أدركته أول ما غادرت المصعد، مساحة واسعة مكسوة بالبلاط الأبيض، تطل على مشهد بانورامي للقاهرة، عشرات المناضد المتجاورة والمئات من زجاجات البيرة

المتناثرة عليها، جرسونات كما الماضي يرتدون القمصان البيضاء والبيون الأسود، ابتسامات مفتعلة وترحيب مبالغ فيه بالجميع دون تمييز، لو أطلقت اسمًا على المكان سيكون: ملتقى الشباب الحداثي المحب للمشروبات الروحية والسفسطة.

أصارحك القول يا حياة، قناعاتي خراء، عشت عمري مقتنعًا بهراء الكتب وأحاديث المثقفين، طالما رددت كما الببغاء: المد الوهابي، السلفيون أحكموا قبضتهم، ثقافة البدو تغلغلت وصارت وسمًا لمجتمعنا، أنا جاهل، أعترف بذلك دون خجل، قراءة الجرائد والتفكير ثم إبداء وجهات نظر دون النزول إلى الشارع غباء مطلق، أين ما كنت أظنه؟ أغلب الشابات هنا بلا غطاء رأس، يدخن السجائر ويحملن بأيديهن زجاجات الستيلا.

تخيلي، أنا بهيج داوود المتشدق طوال الوقت بالحرية، ضبطت نفسي مستاءً من أمور كنت أعتبرها بديهيات تقدمية، امتعضت للحظات من الاختلاط الزائد عن الحد بين الجنسين، اشمأززت من أزياء بعض الشابات ورأيت أنها مبتذلة وفاضحة، كشرت ورددت بفظاظة على فتاة ودعت للتو مرحلة الطفولة، وهي تسألني عن قداحة لتشعل بها سيجارتها، من الواضح أن الوهابية قد غادرت مصر غير مأسوف عليها وسكنتني وحدي! يبدو أن تعابير الانزعاج قد ارتسمت على وجهي، لاحظتْ ذلك منصورة فداعبتني قائلة: أنت ابن عصر يقدس الحريات، رددت: بالفعل، ناصر لم يمنع الخمور ولم يفرض الحجاب، الممنوع الوحيد كان انتقاده، يعقب سيف: كان رجلًا عظيمًا وزعيمًا لن يتكرر، يضحك

هادي قائلًا بمكر: وديكتاتور أيضًا أسوأ مائة مرة من مبارك الذي تتظاهران ضده.

يحضر الجرسون، يسألنا بأدب بالغ عما نريد تناوله، ينظر تجاهي فأجيب: قهوة سادة علها تعالج الصداع الذي يحتل رأسي، اضحك لدعابتي فيمط شفتيه، يقول: للأسف الكافيتريا تغلق أبوابها الساعة الخامسة، الشيفت المسائي لا يقدم أي مشروبات ساخنة، يعتذر ثانية فألتزم الصمت، يحل سيف الأزمة، ينهض، يتحدث مع مدير المكان، لحظات ويحضر المشروب الساخن، أكتم ضحكتي وأشكره، أتغاضى عن الكوب الضخم المطبوع عليه رمز إحدى شركات المشروبات الروحية، لا أستاء من الشاي خالي السكر الذي حل محل القهوة، أرتشفه ببطء وأتأمل القاهرة من أعلى.

تشكر منصورة هادي على الجهد الذي بذله في تأثيث بيت ورد، يضحك سيف، يرفع صوته قائلًا: تحية لصاحب السبع صنايع والمائة مهنة، تقاطعه: هادي بالفعل متمرس في الأعمال التي لها علاقة بالثقافة، يضحك معقبًا: الثقافة والنساء الثريات والمطاعم.

الهجوم هو خير وسيلة للدفاع، قرأت هذه الجملة مرارًا في الكتب، لكنها المرة الأولى التي أرى فيها تطبيقًا فعليًا لها، ذم هادي شفتيه، كشر للحظة، طرد غضبه الوقتي سريعًا وكست وجهه ابتسامة، قال بهدوء: أعرف أنك لا تحبني، ذلك لا يغضبني مطلقًا، هذه هي ضريبة النجاح، يقاطعه سيف: أنت ناجح؟ ترفع منصورة صوتها: كفى من فضلكما، جئنا هنا للاحتفال وليس للشجار.

وكأنها لم تنطق بكلمة، كل منهما متأهب ومستعد، يبدوا أنهما كانا ينتظران منذ زمن حلول لحظة المكاشفة، يجيب هادي: نعم أنا ناجح، رغماً عن ظروفي الصعبة تفوقت، التحقت بالجامعة، حضرت إلى القاهرة حاملاً أحلامي ولم أستسلم للصعوبات، ثقفت نفسي بنفسي، بلا مال أو نفوذ صرت مهندسًا، يصفق سيف قائلًا: قصة تصلح لتكون مسلسلاً تلفزيونيًا ناجحًا، يهاجمه هادي، يقول بحدة: أين نجاحاتك يا باشا؟ طالب في مدارس خاصة، أمريكية أم بريطانية؟ هل كنت تذهب إلى المدرسة بباص مكيف أم بسيارة بابا الفارهة؟ يوجه نظره نحوي ثم يكمل: التلميذ البليد رغم كل سبل الراحة والرفاهية فشل، مجموع متواضع بالثانوية العامة، بالطبع هذا شيء تافه بالنسبة للأثرياء، الدرجات المرتفعة تهم الفقراء فقط، الموضوع بسيط، طالما الدولارات متوفرة، فليختار الابن المدلل جامعة خاصة تعجبه ليصبح مهندسًا، لا مشكلة، هادي يواصل الليل بالنهار ليحقق حلمه وبالنهاية نتساوى، تقاطعه منصورة، تطرق بكلتا يديها على الطاولة، تقول بغضب: كفى، يعقب سيف: ليس لي ذنب، أربع زجاجات بيرة أسكرت صديقك وجعلته يهذي، تنهض الشابة، تقول: سأغادر، تنظر نحوي: هيا يا عم بهيج، لنجلس مع أصدقاء بكامل وعيهم، أرفض ولا أعرف لمَ، ربما أود اكتشاف المزيد، تلح وعندما لا أستجيب تنسحب.

تبدأ الجولة الثانية، يبادر سيف بالحديث، يقول: يعجبني أداؤك، طريقتك في الحوار تليق فعلاً بمثقفي وسط البلد، يرد هادي:

تقول مثقفًا وكأنها سبة، هل نسيت أننا قد تقابلنا لأول مرة بندوة ثقافية بوسط البلد، كنت أنا نجمها، يزدرد سيف ريقه يقول: تعرف أنني حضرت مضطرًا، لم أرد ترك منصورة وحيدة وسط مُدَّعين، يقاطعه هادي مستنكرا: مُدَّعون؟ هل أنا مُدَّع؟ قرأت مئات الكتب، كتبت ونشرت عشرات المقالات، أنا مثقف حقيقي يا باشا، يضحك سيف قائلًا: مثقف؟ ماذا تعني هذه الكلمة على وجه التحديد؟ كل ما تفعله هو حفظ المقولات وترديدها كما الببغاء، هذه هي وسيلتك الوحيدة للتعرف على أولاد الذوات، تحاول الارتقاء اجتماعيًا، تود الإيقاع بشابة غنية علها تنتشلك مما أنت فيه من بؤس، يضحك هادي، يسأله: وأنت يا باشا؟ لماذا تشارك بالمظاهرات، تندس وسط الحشود لتدعي الجراءة والعدالة الاجتماعية، لماذا تهتف ضد التوريث؟ لو كنت مثقفًا لفهمت، مبارك ديكتاتور، أبوك مثله ديكتاتور، أنت ديكتاتور، تهتف بعلو صوتك ضد الفساد، لولا الفساد لما كنت. يصفق سيف يقول بسخرية: برافو، أفحمتني، فيلم كلاسيكي بديع، علي ابن الجناييني الذي سيظفر بإنجي ابنة الباشا، أنا السيئ الوحيد، رمز الشر، دون لف أو دوران خذها نصيحة مني، منصورة خط أحمر، سأحرص على حمايتها مهما كلفني الأمر، البنت عود أخضر وأنت شيطان، يضحك هادي يرد: عود أخضر؟ أنت ساذج، لا أحد يستطيع الإيقاع بها، ثم أن ما بيننا مجرد عمل لا أكثر من ذلك.

لا أعرف هل فرحت لانتهاء الحوار فجأة أم حزنت لذلك، لن أنكر استمتاعي بهذه الجلسة، وددت استمرارها لساعات، لكنها

انتهت رغمًا عني، بمجرد أن أنهى هادي جملته الأخيرة حضر ضيف غير متوقع، عادت منصورة وبصحبتها عجوزًا يشبهني، مد الرجل يده وصافحني بحرارة، تولت الشابة مهمة التعريف، قالت والابتسامة تملأ وجهها: ما رأيك في هذه المفاجأة؟ الأستاذ سعيد السنباطي، عندما علم بوجودك أصر أن يأتي بنفسه إليك، قلت: يا لها من مفاجأة مدهشة، رد بود: خشيت ألا تتذكرني؟ عقبت كذبًا: هذا مستحيل، ضحك قائلًا: حمدًا لله على سلامتك، سعدت للغاية بعودتك، تساءلت: عودة من أين؟ لم أغادر مصر مطلقًا، ابتسم معقبًا: أقصد عودتك إلى الحقل الثقافي، أنت قيمة كبيرة وشباب اليوم في أمسَّ الحاجة إلى خبراتك، وصلة من المديح المتبادل استمرت لخمس دقائق، من يرانا يظننا صديقين حميمين، قد افترقنا منذ زمن وأخيرًا التقينا، للحق زاملته لجلستين في إحدى لجان وزارة الثقافة، كان ذلك منذ ربع قرن ونيف، لم نتبادل خلالهما إلا التحية، لا أعرفه مطلقًا بشكل شخصي ولو قابلته صدفه في الطريق لن أتعرف عليه.

المحبب بالنسبة إلي في هذا اللقاء هو استمتاعي بروية تعابير وجه هادي، غزا العرق جبهته ولم يستطع رسم ابتسامة مصطنعة على شفتيه، نظرات السنباطي نحوه أبهجتني، حسدت جراءته، كثيرًا ما تمنيت أن أفعل مثله، لكنني لن أستطيع، وكأنه ينظر إلى كلب أجرب، خليط من استياء وفوقية وتعال.

لم نجد كلمات لنتبادلها فتبادلنا أرقام الهواتف، عانقني ثانية وأكد على ضرورة تكرار اللقاء، قبل انصرافه أشار إلى هادي باحتقار،

قال: شادي يعرف مقهى خليفة، أتواجد هناك يوميًا بعد الساعة الخامسة مساءً، أتمنى أن تشرفني.

امتقع وجه الشاب، السنباطي يريد إشعاره بضآلته، مجرد ولد من حواريه السابقين حتى لا يتذكر اسمه، يغادر بعدما وعدته بحضوري في القريب للقائه، يحدث هادي منصورة بغضب ظاهر، يقول: لماذا جئت به؟ ترد: البار يتسع للجميع، الأستاذ حضر منذ قليل صحبة كالا، سيساعده في نشر ديوانه الشعري الأول، يضحك هادي، يقول: إذن فالمشروبات والعشاء على حساب كالا، تعقب منصورة: هذا أقل شيء يقدمه للأستاذ السنباطي، الرجل سيذهب معه غدًا إلى الناشر،وقد أكد له إنهما لن يغادرا إلا بعد توقيع العقود، ينفجر هادي قائلًا: بالطبع سيوقع كالا العقد، سيلتقط الصور وينشرها على صفحته على الفيس بوك، أما السنباطي فسيحصل على نسبته، أسأله: أي نسبة؟ فترد منصورة: لا تأخذ حديثه على محمل الجد. أنظر نحوه فأراه يجز على أسنانه، قبل أن أهم بمحادثته يطلق زفرة ثم يقول: هيا بنا يا أستاذ فقد تأخر الوقت والطريق إلى منزلك طويلًا.

(17)

ملهمتي حياة

اكتشفت مؤخرا أنني لست ماهرًا في استخدام الاقتباسات، لن أتفلسف بعد اليوم، لن أوجع رأسك ثانية بكلمات المثقفين المنمقة، سأدخل مباشرة إلى صلب الموضوع دون تمهيدات لا داعي لها.

أعتقد أنني قد أكثرت من استخدام كلمة بكاء بمرادفتها العديدة في الفصل السابق، حاولت يا حبيبتي إعادة تحريره لمرات عدة، لكني لم أنجح في حذف هذه الكلمة، لا أحب الميلودراما لكن قصة آل حداد أرغمتني على استخدامها، على ذكر البكاء، ما رأيك في هذه الصورة الشعرية: بكيت مسحت دموعي، بمسح دموعي بكيت، رائعة، أليس كذلك، كتبها فؤاد حداد بأحد دواوينه، لكنني لا أتذكر هل ألفها بفترة اعتقاله الأولى أم بعد ذلك.

أُلقي بابن العم في السجن فانقلبت حياة فريد، حبس نفسه بغرفته لأيام، أطال الصمت ونبذ الدنيا، أغلقت عيادتي شبرا ومصر الجديدة، رفض مقابلة العم كامل الذي تردد على البيت يوميًا لمحاولة إخراجه من حالته، أصبح شغله الشاغل هو الإجابة عن السؤال: ما الجدوى؟ ناجى الله، طرح تساؤلاته وانتظر الإجابة، آمن وكفر عشرات المرات، بكى بلا سبب وضحك بلا معنى، بالنهاية نهض، شذب لحيته وارتدى ملابسه، قبَّل الصغيرين

وديع وسامي وعانق إيدا، لم يستطع مواجهة هلجريد وغادر، أدار محرك سيارته وانطلق في رحلته الأخيرة، لقد اتخذ قرارا واليوم هو موعد تنفيذه، بما أنه ليس هناك إجابة واضحة عن أسئلته فالمعنى واضح، ليس هناك غاية أو هدف للحياة، إذن فكفى عذبا بغير طائل، دقائق من الضغط بقوة على مقود السرعة هي كل ما يلزمه، سيريح الجميع ويرتاح، سيبكون لأيام ثم يستكملون حياتهم، سينسونه، سيمصمصون شفاهم وهم يتذكرون الشاب صاحب الحظ العَسِر الذي سقط بنهر النيل. المتهور الذي أخفق في الضغط على المكابَح بالوقت المناسب.

موت أكثر عبثية من الحياة ذاتها، قالها لنفسه وزاد من سرعة السيارة، لاح النيل أمامه فضاعفها، اقترب من السور الحديدي فأغمض عينه، انتظر صوت الارتطام وبرودة المياه وهي تتسلل إلى جسده، مرت الثواني كالدهر، لم يحدث شيء ففتح عينيه، خانته السيارة، قبل مترين على الأكثر من كورنيش النيل توقفت بلا أسباب، ابتسم، ضحك بهستيرية، طرد الأفكار من رأسه وقطب جبينه، قال لنفسه: لا معجزات، لا تمني نفسك، نفِّذ بلا تأجيل، لا يلزمك إلا إعادة إدارة المحرك والضغط بقوة على دواسة الوقود، أطلق زفرة، حرك يده وقدمه بالوقت ذاته، لم يحدث شيء، عصته السيارة، حاول لعشر مرات ثم يأس، غادرها، أغلق بابها بعنف وسار مبتعدًا، اقترب من الكورنيش، قال لنفسه: لا تنقصك الشجاعة، ارتقاء إلى أعلى السور ثم قفز إلى أسفل وينتهي الأمر، لاصق

جسده السور الحديدي، أمسكه بيده، تردد للحظة، ظهر شريط حياته أمام عينيه فسقطت دمعة، هم بالقفز فدوى الصوت عاليًا من خلفه: دكتور، انتبه، التفت فرأى ثلاث صبيه يلوحون له، اقتربوا، حيوه فلم يجب، عقبوا: ألا تتذكرنا؟ نحن تلاميذ بالمدرسة الأمريكية، مثَّل الابتسام وهز رأسه، مدوا إليه أيديهم، شعر بالدفء يتسلل إلى جسده فتعمد إطالة المصافحة، قال أحدهم: قلقنا عليك، تغيبت عن الحضور إلى المدرسة لأسبوعين، عقَّب أخر: كوَّنَّا وفدًا وذهبنا إلى بيتك، أكمل ثالث: ألم ترَ الورود؟ البنات أصررن على إرسالها معنا، أخبرتنا زوجتك بأنك مريض ولن تستطيع مقابلتنا.

التلاميذ أصروا على تقديم المساعدة للطبيب: غادر أنت يا دكتور، نحن سنحضر ميكانيكيًا، قبل الغد ستكون سيارتك كالجديدة، نعرف عنوان بيتك لا تقلق، أوقف أحدهم تاكسي فركبه ولا يعرف لمَ!

صعد درجات السلم ببطء، لم يتخيل مطلقًا أنه سوف يقابل هلجريد وإيدا والولدين ثانية، ليس متأكدًا من شيء بالمرة، لا يعرف هل استسلم أم سيكرر المحاولة مرة أخرى، ضغط زر الجرس فظهر وديع الصغير، قال بسعادة: المطبخ امتلأ بالفطير والبط والقشدة يا بابا، أصدقاؤك ذوي الجلاليب أحضروا معهم الكثير من الهدايا الرائعة، مر إلى الداخل فقابلته أمه، أخبرته أن أربعة زوار ينتظرونه بالصالون، تسأل: من؟ فردت: يقولون إنهم مرضاك.

أهل الريف طيبون، لا ينسون أبدًا من قدم لهم يد المعونة، يأملون في رد الجميل لو استطاعوا ذلك، غاب فقلقوا، الشاب الطيب الذي يداوي المرضى انقطع عن زيارتهم، أسبوعًا تلو أخر من ثم قرروا البحث عنه، قالوا: رجل أتى إلينا دون معرفة مسبقة وقدم لنا المساعدة، بشوشًا ويواظب على إحضار الأدوية، يشعر بما نعانيه من شظف العيش لذا يملأ حقيبة سيارته بالطعام الوفير، ابن أصول لا يحرجنا، يقدم ما معه للأطفال ويقول بود: إنها مجرد هدية، والنبي قبلَ الهدية.

رحلة بحثهم عنه لم تكن سهلة، ثلاث زيارات إلى القاهرة حتى عثروا عليه، في البدء فشلوا، فإيجاد شخص لا يعرفون إلا اسمه في عاصمة يسكنها مئات الألوف أمر شبه مستحيل، أبناء الريف يمتلكون ذكاءً فطريًا، هداهم تفكيرهم إلى تركيز البحث في المناطق التي تتركز فيها عيادات الأطباء، سألوا عن مسيحي يشبه الشوام ويعالج الفقراء مجانًا، بعد ساعات قليلة توصلوا إلى عنوان عيادته بشبرا، على الرغم من أنها مغلقة فالجيران دلوهم على مكان سكنه. حضروا مُحملين بالهدايا والدعوات الصادقة بشفائه.

هل هي مجرد صدفة؟ قالها لنفسه بعد مغادرتهم، بالأحرى صدفتان، الريفيون وطلاب المدرسة الأمريكية، ربما هي إجابة السماء عن سؤاله، استلقى على السرير وحاول النوم هربًا من التفكير، دقائق مرت ثم حضر وديع الصغير، قفز إلى جانبه وأخذ في لكزه: انهض يا بابا، أولاد كثر بالخارج، هناك بنت تحمل باقة زهور ضخمة، يفتح عينيه، يتلكع في النهوض، تظهر هلجريد،

تمر مسرعة إلى داخل الغرفة، تقول بتوتر: الطلاب يملؤون الصالة، أرسلت إيدا لشراء المياه الغازية واستعارة كراسي إضافية من الجيران.

خرج لمقابلتهم فأحاطوه بالمحبة، سكنت آلامه، تساءل: لماذا أتيتم؟ أنا لست أستاذًا أدرس لكم، الجميع يمرض ويتغيب عن العمل، فما المشكلة؟. يرد أحدهم: أنت دائمًا ما تهتم بأمرنا دون أن نطلب، نعرف أنك لست مدرسًا وإنما صديق يقدم النصائح، يعقب أخر: أنت من أقنعت والدي بالموافقة على انضمامي لفريق المسرح، يتدخل ثالث: لن أنسى يوم حضرت إلى منزلنا وجلست لساعة تحاول إقناع أمي بعودتي ثانية لدروس الموسيقى، يعقب فريد: لم أعرف قبلًا أنني مهم لأحد إلى هذه الدرجة، تقاطعه البنت الحاملة لبوكيه الورود: أنت مثلنا الأعلى يا دكتور، كنت طالبًا بمدرستنا وتفوقت حتى أصبحت طبيبًا شهيرًا، يضحك، ربما لمنع دموعه من الانفلات: لست شهيرًا، لا أحد يعرفني غيركم فتقاطعه: من لا يعرف طبيبنا المجاني؟ تكمل أخرى: شبرا كلها تحبك، يبتسم فتعقب ثالثة: ومصر الجديدة بضواحيها تحبك جدًا.

زيارة الطلاب كان لها مفعول السحر، بسببها اختفت الغصة التي لم تغادر حلقه منذ القبض على فؤاد، أبلغهم بعودته القريبة إلى المدرسة، أخذه الحماس فأخبر هلجريد وإيدا بعزمه على استئناف العمل بالعيادتين بدءًا من الغد، قال لهما وكأنه يوصل رسالة إلى نفسه: سأعود لممارسة عملي، ما ذنب المرضى؟ يستحقون العلاج ولا يصح أن تظل عيادة وديع مغلقة أمامهم أكثر من ذلك.

تنفرج الغيوم مؤقتًا، يظهر شعاع الشمس شاحبًا في الأفق، يتراجع عن فكرة الانتحار وينغمس في العمل بغية النسيان، يمثل المرح أحيانًا لأجل أسرته، يحاول إلهاء نفسه بشتى الطرق، لكن ذكرى فؤاد حداد ما تزال تدمي قلبه.

رغم البعد المكاني يظل ابن عمه حاضرًا بقوة، الشاب الجريء الذي دفع ثمنًا باهظًا في سبيل التعبير عن أفكاره يظهر دومًا بأحلامه، بالأحرى كوابيسه، لا يمر أسبوع إلا ويحضر، كثيرًا ما يؤنبه، يقول: أنت سبب ما أنا فيه، كنت صبيًا أرتاد الحفلات الراقية ولا أملُّ مغازلة الحسناوات، استدرجتني يا فريد، أوقعتني في الفخ، اقرأ هذا الكتاب، متأكد من أنه سيغير طريقتك في التفكير، هل أنت مع أم ضد؟ ما تقييمك لأفكار الكاتب وأطروحاته، للحرية ثمن إذا أردناها، كل من نالها قد ضحى بالكثير، وجب علينا أن نعمل عقولنا، ما الفارق إذن بيننا وبين الحيوانات إذا لم نعبر عما يدور بعقولنا، أغويتني يا ابن عمي، للقراءة سحر لا يقاوم، أمسكت بيدي، سرت بجانبك كما المُغيَّب، أوصلتني إلى طرف الهوة ثم تراجعت أنت، بات حديثك محض هراء، الزوجة، الأطفال، مستقبل الأسرة، حججك بالية.

يستيقظ فزعًا، ينتهي الحلم، يشعر بجفاف حلقه فينهض، يرى إيدا مرتعبة، تقول له: صراخك مخيف، ملامحك كانت تثير الذعر، وكأن أحدًا يمسك بعنقك ويخنقك.

أحيانًا ما يبقى فؤاد بمكانه، يظل بزنزانته فيأتي إليه فريد، يجد الطبيب نفسه بقلب المعتقل، يهرول هربًا من الحرس، يمضي

إلى العنبر الكئيب ليلاقيه، يراقبهم من كثب، يراهم بوضوح لكنهم لا يشعرون بوجوده، يتعجب لرؤية ابن عمه متقمصًا دور المدرس، الشاب الصلد يعلم زملاءه الفرنسية ويلقي عليهم شعره، بعد أن يصفقوا بحرارة ينزوي بركن وينبش الأرض بيده، يخرج قلمًا ضئيلًا لا يتجاوز طوله عقلة الإصبع، يناوله أحدهم علبة سجائر فارغة فيفردها بحرص ويدون عليها كلماته، ينتهي فيعيد تشكيلها ثانية، يخفيها بطيات ملابسه.

يحاول تهريبها من المعتقل، يقول لشخص قد أتى لزيارته: يجب أن تخرج كلماتي إلى العلن، يظهر من بُعد ضابط مزهو ببذلته، ترتسم على شفتيه ابتسامة صفراء، يشير إلى العسكر فيركضوا تجاهه، يفتشونه هو وزائره، يقرؤون ما دوَّن على علبة السجائر ويسلمونها إلى الضابط، يجرونه إلى زنزانة منفردة، يعنفونه فلا يأبه، الجلادون يحبون الراكعين وهو ليس منهم، يرهبونه، يشهرون هراوتهم فيرفع رأسه بشموخ، يحدثه الضابط بخشونة، فيرد: لم أرتكب جرمًا، يضحك ويصفعه فيصرخ فيه: سيأتي العقاب يومًا، سيطاردك العار طيلة حياتك، ستتبدل الأماكن فاحذر، يشير إلى العسكر فينهالوا عليه ضربًا، يصمد، لا يذرف الدموع أو يتوسل أحد، يتماسك رغم آلامه ويسبهم، يصيح الضابط: كفى، يشير إلى الأغلال في طرف الحجرة، يحضرها أحد العساكر ويكبله بها، يقول بخبث: أخرجوه، بمنتصف ساحة المعتقل يلقون بالشاب الثائر، ينهض وينظر نحو الضابط فيصيح فيه: اركض يا بطل، يضحك العساكر ويهوون عليه بالكرابيج لينفذ أمر قائدهم،

يجري هربًا من آلام جراحه، يطلقون وراءه الكلاب، يسمع نباحهم خلفه فيزيد من سرعته، يبذل أقصى طاقته ليبتعد، يلهث وتعلو أنفاسه، تخونه قدماه فيسقط، يصرخ: فريد، أنقذني، يبكي بهستيريا أول ما تتشممه الكلاب وتبدأ بنهش جسده.

يخاف فريد حلول الظلام، يكره النوم، يصل النهار بالليل، يبتعد عن غرفة نومه، يوشك على إدمان الأقراص التي تساعده على الاستيقاظ، تمر الساعات ثم يخذله جسده، يرتمي على أقرب مقعد ويغفو بغير إرادته.

يهب مفزوعًا فيجد هلجريد بجانبه تبكي.

يجرب الكثير من الحيل، يرتاد الكنيسة كل يوم، يقدم الهبات للفقراء، يكثف زياراته لبيوت المعوزين، يطبب الناس ولا يبرأ هو، تستمر الكوابيس، تهاجمه بلا هوادة فيهرب إلى الريف، ينطلق إلى هناك طمعًا في هدنة، يصل فيستقبلونه بترحابهم المعتاد، يبدأ بالعمل وسط دعائهم المستمر له، ينتهي فيستحلفونه بالبقاء، يقول كبيرهم: الصباح رباح، فيمثل الرفض لدقائق ثم يمتثل، بسرعة يجهزون له غرفة، يدعوه إلى عشاء على شرفه، يأكل بشهية، يجاذبهم أطراف الحديث، فجأة يصمت، يتساءل: أين أطفالكم؟ يردون ضاحكين: يلعبون في الغيط، يعقب: هل يجيدون القراءة والكتابة؟ فيجيبه أحدهم، لا هم لنا إلا لقمة العيش، التعليم لميسوري الحال وأهل العاصمة لا لنا.

يحول غرفة نومه إلى فصل دراسي ويطلب منهم استدعاء الأطفال،

يحضرون مبتهجين لمقابلة الطبيب صاحب الهدايا، يوزع عليهم الحلوى، يشكرونه فيشرع من فوره في تعليمهم، تمر الساعات وكأنها دقائق، الأطفال سعداء ومتجاوبون للغاية، مستمتعون برسم الحروف وتهجي الكلمات، يتأخر الوقت فينهي حصته، يطالبونه بالاستمرار، فيبتسم قائلًا: سأمكث يومًا آخر لأجل خاطركم.

يغادرون غرفته فينام، تودعه الكوابيس أخيرًا، يستيقظ فرحا ويقرر قضاء أسبوع كامل وسط الحقول الخضراء، ينشغل بتعليم الصغار وتطبيب الكبار، يتمنى لو لا يغادر هذا المكان أبدًا، تمر الأيام الحلوة سريعا ويحين وقت الرحيل، يودعهم مضطرًا مع وعد بلقاء قريب، يؤكد: سأقضي إجازتي الأسبوعية وسطكم، سأصحب وديع وسامي معي ليلعبوا مع أطفالكم.

يعود طبيبنا الشاب كما سابق عهده، متحمسًا وتملأ وجهه الابتسامة، تلاحظ ذلك إيدا فتسأله عن سر التغيير، يضحك قائلًا: اكتشفت أن هناك جدوى للحياة، يسهب في حكي ما جرى برحلته الريفية، يحدثها عن الأطفال واستيعابهم المدهش لشرحه، يستطرد: ليست مجرد حصص لتعليم القراءة والكتابة، الهدف هو إعداد النشء للمستقبل، يجب غرس القيم بعقولهم، الإيمان بالحرية، الإخلاص، النبل، حب الوطن، لا أمل في التحضر لشعب جاهل. تهز رأسها وتمثل الاهتمام فيكمل بحماس: تعرفين، لو أضاع المرء عمره كله في تربية طفل واحد ونجح في أن يجعله إنسانًا سويًا- فكفى، ذلك عمل يستحق، تبتسم فيعقّب: ليس

بالشعارات الرنانة تنهض الأمم، ما أهمية كتابة منشورات مليئة بالأفكار الحماسية وتوزيعها على أناس تربوا على القهر وألفوه، الأهم هو تثقيف الإنسان، تعليمه، جعله مدركًا لحقوقه وعارفًا لوجباته. يصمت أخيرًا، تكسو عينيه لمعه، تعانقه وتقول: المهم أنك عدت، سافر إلى الريف كما تشاء وعلم أطفالهم، لكن لا سياسة أرجوك، يكفيك المرضى والتلاميذ، يضحك فتمازحه: لو شعرت بالفراغ ذاكر للولدين، سامي ووديع بحاجة لرعايتك خلال الفترة المقبلة، يتساءل: لماذا؟ هل مللت وستتركينني، يكمل بهذر: هل أخوك ينتظرك بأستراليا؟ ترد بخجل: أختهم ببطني ومن الواضح أنها عنيدة كأبيها، يرفع حاجباه بدهشة، يحوطها بذراعيه ويطبع قبلة على جبينها، يهمس بأذنها: أختهم؟ فترد: هذا ما أتمناه، فقد تعبت من مرافقة الذكور، يضحك قائلًا: وأنا أيضًا، المهم أن ترث جمال أمها.

تتناثر الأقاويل على استحياء، تنتشر، تصل لمسامع آل حداد فيتجاهلونها، يؤكد العم كامل بأنها مجرد شائعات مغرضة، يقول بغضب: ألم يكفهم ما حل به؟ فريد لا يعلق، يهز رأسه ويمضي إلى عيادته، الأمر لا يعنيه بالأساس، ما يهتم به فقط هو أن يُفرج عن فؤاد حيًا يرزق، بالفعل في زيارته الأخيرة له دارت برأسه الكثير من الأسئلة وعلامات الاستفهام، ساعتها لم يخبر العائلة إلا بما يريح قلوبهم: فؤاد سليم البدن، روحه المعنوية بالسماء، اطمئنوا، هو في غاية الفرح لنشر ديوانه الأول، على الرغم من عدم مغادرته السجن فأشعاره باتت تتردد في كل مكان.

الكل يمثل الطمأنينة، ينتظرون مغادرته للمعتقل فقط ليعرفوا حقيقة تلك الشائعات، يخرج وبدلًا من إقامة احتفال تتحول فيلا سليم بيك إلى سرادق عزاء كبير، الأخبار كانت صحيحة، فؤاد رجل صريح ولا يجيد الردود الدبلوماسية، يسألونه: هل هذا الهراء صحيح فيرد ليس بهراء، لكل منا إرادة حرة، لسنا حيوانات، اتخذت قراري، لم أناور أو أخادع، يقاطعه العم كامل منفعلًا: أنت تدمر العائلة فيرد: كل إنسان مسئول عن تصرفاته، تتعالى أصوات آل حداد: خذلتنا، أنت طائش ومجنون، يضحك قائلًا: لكم دينكم ولي دين.

يدخل الشاب إلى المعتقل وهو مسيحي إنجيلي ويغادره مسلم سني، انتظر الجميع إطلاق سراحه ليكون عرسًا فصار مأتمًا.

(18)

البعيدة حياة.

يقول ألدوس هكسلي: مشكلة القصة الخيالية أنها تنطوي على مغزى أو معنى بأكثر مما ينبغي، بينما ما يحدث بالفعل في الحياة، لا يبدو وكأنه له معنى أو مغزى على الإطلاق. يتساءل في حيرة حقيقية: هل الحياة الواقعية خالية من المعنى؟

كلما توغلت أكثر في كتابة سيرة فريد حداد ترن هذه الجملة في أذني، أتساءل أنا الآخر عن الفائدة من سرد قصة طبيب الفقراء، ربما كتابة قصة خيالية أكثر فائدة، على الأقل سينتصر في نهايتها الخير أو يسود العدل، للأسف كلما انتهيت من تأليف فصل وأعدت قراءته أقول لنفسي: الحياة مجرد عبث، هراء ينتهي بالموت، ربما أعتزل الكتابة يا حبيبتي وأرضى بوحدتي وحياتي الخاوية.

رغما عني طبقت مقولة ألدوس هيكسلي على حياتي، استرجعت ماضيي فلم أجد إلا أحداثًا تتلاحق بلا رابط، كم توسمت بشبابي أن تكون هناك قوى خفية خلف كل شيء، ربما تمنيت ذلك لأجد معنى لحياتي، لم أجد إلا اللهاث، ركض بلا طائل وراء الوهم الذي يلوح في الأفق وكلما اقتربنا يختفي، يمر العمر سريعا فنيأس، نرضى مرغمين بالخراء، يشتعل رأسنا بالشيب وتقترب النهاية فنغير بوصلتنا، نترك الحياة الفارغة ونركز نظرنا نحو السماء، نتعلق بالأمل، بحياة أخرى أيا كان نوعها، ننتظر

المكافأة أو حتى العقاب، شقاء، نعيم، أي شيء، أنا مللت ذلك الأمل الزائف، رضيت بالخواء، يكفيني دور المشاهد، أتابع وأتهكم، أتعجب وأحاول الضحك كلما رأت عيني شواهد تلك العبثية المطلقة.

أحببت منصورة كما ابنتي تمامًا، أعجبت بتصوراتها الساذجة وأحلامها غير القابلة للتحقيق، اعتبرتها خير ونيس أؤنس به سنواتي الأخيرة، أبتهج كلما رأيتها أو سمعت صوتها، أطمئن وهي قربي وأخشى طوال الوقت أن يحل بها سوء، العبث لا ينتهي، يتصل بي سيف، لم يبدأ بإلقاء التحية كالمعتاد وإنما رماني بحجر، قال باقتضاب: الأمر يخص منصورة فأنقبض قلبي، تابع: والدها عرف بأمر اشتراكها في المظاهرات ويصر على مغادرتها مصر بأسرع وقت، رفضت فأكد أنه سيحضر بنفسه ولن يغادر إلا وهي بصحبته، أستوضح منه: ما المشكلة؟ المشاركة بتظاهرة سلمية ليست مصيبة يا ابني، يقاطعني: الموضوع متشعب، يجب أن أغلق الخط الآن وسأوافيك خلال ساعة على الأكثر.

ألدوس هيكسلي على حق، أجزم بذلك، الحياة عبث مطلق، حضر، تحدث لساعة ولم أقاطعه، انتهى فقفزت الكلمات إلى خارج فمي بسرعة: أبوها على حق، يجب أن تغادر، سأقابلها ولن أتركها إلا بعد أن تقسم بالابتعاد عن المشكلات.

في الأسبوع الأخير حدثت تطورات مؤسفة، هكذا قال لي، بإحدى التظاهرات غيرت قوات الأمن إستراتيجيتها، رأت أن الحصار يفجر الحماس ولا ينهيه، لذا استبدلوا بجنود الأمن

المركزي مواطنين أحرار، لم يضيقوا على المتظاهرين كالعادة وإنما تراجعوا إلى الخلف، هكذا كانت تعليمات القيادات الأمنية: ابعدوا العساكر عن محيط المظاهرة، افتحوا ممرًا ثم أغلقوه، أحضر أباطرة الحزب الحاكم عشرات البلطجية، سلموهم الأعلام والتيشيرتات المغطاة بالشعارات الوطنية وصور مبارك، أعطوهم الأمر بالتقدم فانطلق من تسميهم الصحف الحكومية «المواطنين الشرفاء» ليتعاملوا مع مثيري القلاقل.

قرصة ودن لا أكثر، الحكومة تريد أن يعرف معارضو النظام حجمهم الطبيعي، تأمل أن يتفهموا أنه لو أطلقت الأوامر للكلاب بالهجوم سينهشونهم لا محالة، معركة غير متكافئة لم تطل، تفرق الحشد في دقائق قليلة، أهالي الحي المجاور لوسط البلد أعطوا درسا بليغا للعملاء، إحقاقا للحق لم تكن علقة موت، لم يصب المتظاهرين إلا ببعض الخدوش والكدمات البسيطة، بالإضافة طبعًا إلى انقباض القلب، سماع اللعنات وهي تنصب عليهم من مصريين مثلهم أصابهم برجفة، ربما تساءل بعضهم في حيرة: هل من أجل مثل هؤلاء نطالب بالحرية والعدالة؟ نصيب منصورة كان صفعة خلفت احمرارًا على وجنتها، يؤكد أنها قد تجاوزت الأزمة بسرعة، حتى أنها أوقفته عندما انفعل وحاول اللحاق بأحد البلطجية، قالت له بهدوء: لا تنجرف لمخططاتهم، يريدونها معركة بين مؤيدين ومعارضين.

ما حدث بعد ذلك هو سبب ما آلت إليه الأمور، هكذا قال فازدرت ريقي وأنصت، في أثناء سيرهما بأحد الممرات الجانبية

بوسط البلد متوجهان إلى المقهى، ظهر المواطنون الشرفاء ثانية، يعقب: وكأنهم كانوا يتبعونها هي بالذات، أربع سيدات، ضخام ومرتديات الجلاليب السوداء المميزة لسكان المناطق الشعبية، يقفن بمنتصف الممر، أحسسنا أن بالأمر شيئًا غير طبيعي فتوقفنا.

أشارت منصورة إليه بالتراجع، استدار فوجد بمواجهته رجلين، أمسكا به وجذباه إلى الخلف، أما السيدات فتقدمن باتجاهها، رأيت الدموع في عين الشاب وهو يحكي فاقتربت منه ووضعت يدي على كتفه، كبلوه، لم يضربوه أو حتى يسبوه، جعلوه فقط يشاهد حبيبته وهي يُنكل بها، ليس عراكًا أو ترهيبًا مثلما حدث بالمظاهرة، ما جرى كان شيئًا أخر لا أجد الكلمات المناسبة للتعبير عنه، ربما إذلال، لم يكيلوا لها اللكمات أو ينعتوها بالجاسوسة وعديمة الوطنية، الأمور التي تحدث بالممرات الجانبية تختلف تمامًا عما يجري بالعلن، مزقوا ملابسها، تحسسوا جسدها، أطلقوا بذاءات جنسية لم أسمع مثلها من قبل، انتهكن بأيديهن أماكن حساسة صعب أن أسميها، إحداهن تركت علامة على صدرها وأخرى طعنت بإصبعها أسفل ظهرها، حفلة اغتصاب معنوي، يسألنها وهم يؤدون مهمتهم، هل تشاركين في المظاهرات ليحتك بك الرجال؟ هل أعضاؤهم الجنسية تعجبك لهذه الدرجة؟ شر....، بالتأكيد هذا الشاب هو الذي يروي مؤخرتك بعد كل مظاهرة.

لم ينتهِ الأمر عند هذا الحد، فالمشكلات لا تأتي فرادى، من الواضح أن المكوث الطويل بوسط البلد يجلب العداوات، نشاط منصورة

وحماسها قد أتى بثماره أخيرًا، نشرت لها أكثر من مقالة صحفية عن الأفلام المستقلة بمجلة معهد جوته، وحظيت بوظيفة بإحدى المنظمات المعنية بتقديم الدعم النفسي لضحايا التعذيب.

النجاح قد يحول الأصدقاء إلى أعداء، مؤامرة أبطالها صديقات المقهى، كوكتيل من غيرة البنات والحقد والضغينة، بعد سهرة لطيفة ببيت ورد التقطوا لها الصور، تساءلت: ما معنى ذلك؟ فأكمل: إحدى زميلاتها أصرت أن تصطحبها إلى بيتها، الحجة كانت جاهزة: الوقت متأخر، لا يصح أن تعودي إلى المنزل وحدك في هذا التوقيت، بيتي قريب، البلهاء وافقت، الصديقة التي يمتلئ قلبها بالحقد أتمت الخطوة الأولى بنجاح، في الطريق قالت بمرح: سنسهر حتى الصباح، سنرقص حتى نتعب، يلزمنا الشراب لنبتهج. يصمت، ينظر إلى الأرض ويحز على أسنانه، يقول بضيق: بيرة ورقص بملابس النوم وفيديو مسيء قد يضيع مستقبل الفتاة، في الصباح انتشر الفيديو، في البدء بين شلة وسط البلد ومن ثم في أحد مواقع الإنترنت الإباحية، أحدهم رفعه تحت عنوان: سكرانة ترقص لعشيقها في غرفة النوم، لم يكتف الأوغاد بذلك، أقصد من كانت تعتبرهم أصدقاءها، أرسلوه إلى أمها مرفقًا به رسالة، يوضحون بها نشاطها السياسي ويملئونها بالأكاذيب حول علاقتها المتعددة، أقاطعه: وكيف أوصلوه إليها؟ يرد بضيق: أمها كما الجميع يا عم بهيج تستخدم الإنترنت. صمتُّ، لم أقدر على الكلام، حتى لم أتساءل عن أسباب كرههم المفاجئ لها، أو عن كيفية تصويرها دون أن تكتشف ذلك.

للأسف يا حياة بعض البشر سيئون، أعتقد أن الحياة مليئة بالأشرار فقط لنظن أن لها مغزى.

اتصلت بها، لم أبدأ بوصلة الترحيبات المعتادة، أول ما ردت قلت لها بحزم: احضري على وجه السرعة، أجابتني باستحالة ذلك، أخبرتني أنها في بيت ورد لإنهاء الترتيبات النهائية استعدادًا للافتتاح، قالت بنبرة يملؤها المرح: لو تريد رؤيتي جرب أن تغامر وتأتي إلى وسط البلد دون مرشد، أغلقت الخط بوجهها وهرولت إلى الخارج، استقللت تاكسي ليقلني إلى قلب القاهرة الملعون.

أعترف أنني لست خبيرًا في الإقناع، أول ما وصلت اندفعت متحدثًا، اطمأننت عليها فأجابتني: أنا في أفضل حال، تحاشيت التطرق لما حدث، اختصرت ذلك بجملة: الأحداث الأخيرة المؤسفة، هي الأخرى لا تحب اجترار الذكريات السيئة، ردت باقتضاب: كل مُر سيمُر يا عم بهيج. أصرت أن أقوم بجولة في بيت ورد بعد انتهاء تجهيزه.

تمسك بيدي كطفل، نجول بأرجاء الشقة، تسهب في شرح كل تفصيله بالمكان وأنا أجز على أسناني، أقول لنفسي: كيف تمتلك هذه الشابة كل تلك الصلابة؟ ربما ترتدي قناعًا زائفًا تخفي خلفه روحا محطمة، تابعت حديثها عن التناسق بين ألوان الأرضيات والجرافيتي على الحوائط وأنا أنفث بغضب، كدت أن أنفعل وهي تريني ماكينة إسبريسو وتقول بفخر: نجحت في شرائها من إيطاليا بسعر مغر، عبر تطبيق إلكتروني يتيح الشحن إلى مصر، أصرت أن

تعد لي فنجانا، قالت مازحة: تذوق وقل الحقيقة، إسبريسو بيت ورد أم قهوة بهيج منزلية الصنع، لم أستطع تمالك أعصابي، زعقت فيها: كفى تمثيلًا! نحن بشر، لسنا أبطالا خارقين، ما العيب في أن يغلق المرء باب غرفته وينتحب؟ ادعاء القوة يضر لا يفيد. ردت بهدوء: لا تكبر الموضوع. أدارت وجهها عني وبدأت في إعداد القهوة، أمسكت بالفنجان ورميته أرضًا، عاركت الهواء بيدي ثم جررتها إلى خارج المطبخ، قلت: ملعون أبو الإكسيبريسو، وأجلستها في مواجهتي، فُكت عقدة لساني أخيرًا، تحدثت بإيجاز وحاولت قدر المستطاع الاختصار، أكدت على جسامة ما حدث معها، لعنت غدر الأصدقاء، سببت الحكومة والشرطة والمواطنين الشرفاء، رجوتها أن تسافر، قلت: غادري ولو مؤقتًا، شهر أو شهرين بصحبة أسرتك، ستتحسن حالتك النفسية، قاطعتني: مستحيل، ماذا عن العمل؟ زعقت: ملعون أبو العمل، هو سبب أغلب المشكلات، ابتسمت: المشكلات لن تنتهي.

أمسك بيدها، أفرد أصابعها، أشير إلى الاختلاف الظاهر بينها، أقول: أصابعنا ليست متشابهة وكذلك الناس، اقتربي ممن يشبهك، الطيبون لا يؤذون، تضحك قائلة: لست خبيرًا في هذه الأمور يا أستاذ. أتلعثم، تخرج الكلمات من فمي متقطعة: أنا لا أفهم الناس لكنني أخاف عليك، من فضلك كفى مظاهرات، كفى أصدقاء، أقصد شلة وسط البلد، لا تنخرطي في عمل له علاقة بالسياسة من قريب أو من بعيد، تقاطعني قائلة: وماذا أفعل؟ هل أجلس طيلة اليوم في غرفتي وأستمع إلى الموسيقى مثلًا، أصرخ فيها: أي

عمل غير ما تعملين، وأي أصدقاء غير من تعرفين، ترد: لكل عمل خطورته، وأي أصدقاء قد يكونون خسيسين.

تتركني وتمر إلى المطبخ، بعد قليل تعود حاملة الصينية وبها فنجانان، تقول بمرح: ملعون أبو الإكسيبريسو، أعددت قهوة تركي محوجة تليق بك، تناولني فنجاني، أحتسيه ببطء وأفكر كيف سأقنعها، تبادر هي بالحديث فأخرج من المأزق، أصغٍ إليها لنصف ساعة وأول ما تنتهي أحتضنها وتنفلت دموعي رغماً عني.

ليست ساذجة كما كنت أظن، حديثها عقلاني، كم نعتها بسري قبلا بالبلهاء وابنة جزر البدو التي تفوح منها رائحة النفط، اكتشفت أنني عنصري للغاية، قالت ضاحكة: لم نكن نعيش بخيام ولم أذهب إلى المدرسة في مرة على ظهر ناقة، سكان الخليج أغلبهم متعلمون، ليسوا براميل نقود كما تصورهم الأفلام التجارية الهابطة، أبي لا يشبه كفار قريش وأمي ليست كالجواري.

الشابة واقعية للغاية، تفعل ما تحب في العمل والحياة، تضع الأهداف وتجتهد كي تحققها، «الكل يعاملني كهدف سهل»، تقولها فأكشر، تكمل: شابة ثرية آتية من مجتمع مغلق، وحيدة وبلا خبرات، الجميع يطمع في شيء، مال، جنس، مصلحة، مجتمع البدو الذي تحتقره أكثر رقيا، لم أقابل هناك مثل هؤلاء المخادعين والأفاقين، ظاهرهم كباطنهم تمامًا بلا خبث أو زيف، تعرف يا أستاذ أنه لولا جزر النفط التي تكرهها لما حققت شيئًا بحياتي، إقامتي الطويلة هناك جعلتني أوقن أن النجاح ليس مستحيلاً، لو فقط اجتهدت، بلا واسطة أو نفوذ أو تقديم تنازلات، أبي

جنى آلاف الجنيهات وكل ما كان يملكه هو الطموح، أكتم ضحكتي وأهز رأسي فتكمل: التربية كمغترب تعلمك الحرص، المجتمع المغلق يربيك على الحذر، عدت إلى مصر وزادي الطموح والحرص والحذر، لم ينجح أحد في إيذائي، تعرفت على أنواع شتى من البشر، جلت في شوارع وسط البلد وسهرت في مقاهيها وباراتها، جلست مع أنذال وأفاقين ومنافقين، عملت بوظيفة أحبها ومارست هوايتي في الكتابة، دخلي من العمل في المنظمة وكتابة المقالات بموقع معهد جوته يعادل أربعة أضعاف مرتب هادي بشركة المقاولات، بيت ورد هو الآخر سيحقق النجاح، حلمي سيظهر إلى النور، سيزدهر المكان، سينمو وستتعدد فروعه، أرفع حاجبي، فتقول بهذر: تربية أبوين عاشا في الخليج لعقدين، أقاطعها: الأمور ليست بمثل هذه البساطة، عملك هو سبب المتاعب.

إجابتها بسيطة، ربما تشبه كلام الكتب لذا استهوتني: كل إنسان عليه أن يسعى، أن يحقق أهدافه في الحياة، طريق طويل نقطعه، مليء بالعثرات، نسير، نهرول، نركض، نسقط وننهض، لا نبالي بالسهام الموجهة إلينا، ستصيبنا لا محالة ما دمنا نحاول، كلما اقتربنا أكثر سيحاولون عرقلتنا، من يؤمن بنفسه حتمًا سيصل.

أتحمل في صبر هراءها وأول ما تنتهي اسألها: ولماذا نتحمل كل هذا العناء؟ ترد بثقة: لنحقق أحلامنا، أبتسم قائلا: والاشتراك في المظاهرات طريق لأي هدف، الحرية، الديمقراطية، كل هذه العبارات الضخمة الجوفاء، تقاطعني بعصبية: لا شعارات ولا

دياولو، فقط لأشعر أنني مواطنة، عشت عمري مغتربة، ليس لي حق إبداء الرأي أو النقد أو الاعتراض، عدت إلى بلدي، موطني، أرضي، لأتحدث بحرية،لأقول: لا، بصوت عال بلا خوف، لا مانع أن أضرب، ينكل بي، لكن لا أحد قادر على قول: مالك أنت، ليست بلدك، لا دور لك هنا، اعملي واجمعي الأموال فقط وبصمت، تعريت؟ تأذيت نفسيا؟ بالطبع طبيعي أن أحزن، أتساءل لماذا كل هذا العنف والإذلال، رغم كل شيء لن أتوقف، قول كلمة «لا» تستدعي التضحية، أقاطعها قائلًا: هذه صبيانية، طيش شباب، أحلام ساذجة، ترد: فليكن، من حقي أن أمارس الصبيانية والطيش، لا أعرف كيف أقنعها فأقول: أتمنى أن لا يتسبب بيت ورد هو الآخر في حدوث المشكلات، تبتسم: لا نهاية للمتاعب ما دمنا على قيد الحياة، أدبدب بقدمي على الأرض، أقول: كفى كلام كتب، تربت على كتفي تطوقني بذراعيها، تقبل جبهتي فأضحك قائلًا: تعرفين، أنا لم أقترب من أحد قط بعدًا عن المشاكل، تستنكر: وأنا؟ ، أرد بسرعة: أنت استثناء، تعقب: وهادي؟ أرفع حاجبي وأقول: لا أفهم قصدك، تكمل: أردت مفاتحتك في الأمر منذ فترة، لكنني رأيتك سعيدا فصمت، أسألها: أي أمر؟ فتطلق زفرة وتسترسل في الحديث.

علاقتهما ليست مثلما تخيلت، قائمة فقط على المصالح المتبادلة، بالتحديد خبرة مقابل هدايا، دوره ينحصر في تعريفها بعالم وسط البلد، وهي لم تبخل في مكافأته، لأوضح أكثر، حضور أمسية شعرية يعقبها جلسة مثقفين على مقهى قذر، ثم نزهة على الأقدام

في أزقة القاهرة القديمة، الشاب يقوم بدور المرشد وهي من تتكفل بكافة النفقات، لا مانع من منحة عينية أو مادية تقدمها له، سيتحرج قليلا ثم يبتسم شاكراً مرت أشهر وهما متوافقين، ظهر اسم بهيج داود في الأفق فتلبدت الأجواء، ضحكت عندما أخبرتني بذلك، تساءلت عن السبب فأسهبت، تكرر اسمي لمرتين أو ثلاثة أمامها، مرة نطقه هادي في أثناء تحليله لرواية تجريبية ألفها كاتب مغمور بأحد نوادي الأدب المتربة، وبأخرى خرج من فم شاعر سبعيني ضمن أسماء لكتاب قاربوا الموت دون الحصول على أي تقدير من الدولة، التصق اسمي بعقلها فطلبت منه توفير نسخة من أحد أعمالي، فوت يومين وفي الثالث حضر وبيده «كوثر»، تضحك قائلة: حاسبني عليها بعشرة أضعاف ثمنها الأصلي، بحجة مجهوده الضخم للحصول على تلك الرائعة نادرة التوافر، تعترف لي أنها لم تقرأ الرواية حينها، كل ما شغل عقلها هو القيام بمغامرة للبحث عن هذا الكاتب المتواري عن الأنظار، تسألني: هل تتذكر ذلك الفيلم بطولة شون كونري؟ أضحك فتكمل: تخيلتك تشبهه لا أعرف لماذا، اقترحت عليه الأمر فتحمس للغاية، وجدها فرصة لا تعوض، سيضمن لفترة طويلة وجبات مجانية، وجلسات مقهى شاملة المشروبات، طمع في منح مجزية كالمعتاد ولم يبالِ بتكشيرة سيف الذي أصر على مرافقتنا.

انتهت رحلتهم بنجاح، وصلوا إلى هذا الـ(بهيج داود)، المحتجب عن الناس، لا أشبه شون كونري لكنها أحبتني. طيب ونقي

كما الأطفال، هكذا قالت فضحكت، لاحظ التماع عينيها وهي تستمع لحديثي فأراد إنهاء الأمر بسرعة، بعد مغادرتهم بدأ يشرح لها لماذا أصبحت مغمورا وحقق الآخرون النجاح، قلل من قيمتي الثقافية ومن منجزي الإبداعي فاستغربت، أول ما عادت إلى منزلها فوجئت بالمنشور الطويل الذي كتبه على الفيس بوك، «الرمزية وتأويلاتها في مشروع بهيج داود الفكري»، ألعوبان، لا شك في ذلك، للمرة الأولى تلاحظ تناقضه، بمرور الأيام ظهرت أمام عينيها مساوئه تباعا، ليس مجرد رجل يقدم المساعدات مقابل المال وإنما أفاق، وصولي ولا يهتم إلا بمصالحه، تابعت منشوراته اللاحقة باندهاش، صورته معي وأنا أبتسم ببلاهة ، ومقال عن بنية النص عند بهيج داود، مقتطفات من رواياتي وبعض من صور قديمة جمعتني بمشاهير كتاب الماضي، سألته في مرة: لماذا تؤكد طوال الوقت على تواضع موهبته وبالوقت ذاته تتملقه، رد بمرح: للشيب حكم، من الحق العجوز أن يسعد لبعض الوقت في أواخر أيامه، على الأقل لقد أنجز عشرات الكتب والمقالات خلال مسيرته، وليس مثل آخرين يصدعون رؤوسنا وإنتاجهم الأدبي لم يتجاوز مجموعتين قصصيتين، تكمل: كنت أعرف تفصيلا كيف كانت علاقته بالسنباطي ولماذا انحدرت، أدركت ساعتها كم يتمنى أن يجعلك تحل محله، وسيبذل كل ما في وسعه لحدوث ذلك، لم أفكر في مصارحتك بالأمر، قلت لنفسي: ما الفائدة من تعكير مزاج العم بهيج، ليظل سعيدا بالشاب المثقف الذي صادقه أخيرا بعد سنين من الوحدة.

أجزم يا حياة، أن هذا الشاب ذكي للغاية، ظل شهرا يعد العدة للقائي الأول بأصدقائه، سبق حضوري إلى المقهى أكثر من جلسة تحضيرية، أقنعهم حتما أنني سأكون منقذا، كاتب كبير ينتمي لجيل ذهبي للثقافة المصرية، صادق المشاهير ورواياته كانت محط اهتمام نقاد عصره العظام، نظم حملة على الفضاء الإليكتروني ليعيدني ثانية إلى الحياة، أمد الصفحات الثقافية بصوري القديمة وحـواراتي الصحفية، أعد تقرير عن مبارزتي الأشهر حول الأصول الفرانكفونية للثقافة المصرية ونشره مسلسلا، كل ذلك دون علمي، منصورة رأت أن ذلك لصالحي فتغاضت عن الأمر، وضع مثالي والجميع مستفيد، بهيج يشغل البقية الباقية من سنوات حياته وهادي يجني من ورائه بعض المكاسب، ظهرت «جماعة كيميت الأدبية» إلى النور، بعد لقائي الأول بالشباب دشنت صفحة تحمل هذا الاسم على موقع الفيس بوك، المنشور الأول بها كان عبارة عن صورتنا الجماعية، أنا بالمنتصف وهو بجانبي ويده على كتفي والشباب يحوطانا، تحتها نبذة مختصرة عن المجموعة الثقافية حديثة الإنشاء وأمسيتها الأولى، بحضور الكاتب الكبير بهيج داود، لم تهتم، قالت لنفسها: هو يحاول تكوين شلة ينافس بها السنباطي فما المشكلة، بيت ورد هو ما أظهر التصدع في علاقتهما، كانت قد اتفقت معه على القيام ببعض الأعمال نيابة عنها، مجرد مساعد، يتابع العمال ويشرف على التجهيزات المزمع إقامتها، للأسف تطلعات الشاب بلا حدود، تضحك قائلة: ظنني ساذجة، أبدى ملاحظات حول الطريقة المثلى لإدارة المكان فاستمعت في صمت، أدلى بدلوه في طريقة توزيع الأعمال والمهام

والتكاليف والأرباح المتوقعة فأثنيت على موهبته، عدد جهوده فأشدت بمهنيته، لمح برغبته في تولي إدارة بيت ورد، فردت بحزم: أنا صاحبة الفكرة ورأس المال، لو احتجت إلى أحد ليشاركني الإدارة سأعين محاسبا ذو خبرة في هذا النوع من الأعمال، بتلك اللحظة ارتسمت على وجهه تعابير الغضب، بالطبع نجح في محوها سريعا، استبدلها بابتسامة باهتة لكنها لاحظت وتفهمت، رأت أنها إشارة، حاولت في الأيام التالية تحجيم دوره، سحبت المهام تباعا، أرادت إنهاء علاقة العمل بطريقة راقية لا تسبب القطيعة، الغريب أنه لم ييأس، ازداد حماسا، قال بوضوح: بيت ورد ليس حلمك وحدك، واجبي أن أساعدك، أمور مثل التعامل مع العمال تحتاج إلى رجل، بمجرد الافتتاح سأغادر، سأكون قد أكملت دوري، وافقت على مضض، قالت لنفسها: لا مشكلة ما دام يعرف أن دوره مؤقت، لاحظت بعدها ولأكثر من مرة وجود تناقض بين الفواتير والأسعار المتفق عليها، الطامة الكبرى كانت عقد توريد الأثاث، أطلعها على الأسعار فلم تعلق، أشاد بجودة المنتجات ومتانتها، شكت في حماسه فاستعانت بصديق يعمل في مجال تجهيزات الفنادق، أرسلت إليه الماركات والمواصفات وبعد يومين حضر إليها وبيده قائمة الأسعار، كانت تتوقع أن هادي قد أضاف إلى الأسعار مبلغا بسيطا لنفسه كعمولة، تتقبل ذلك عن طيب خاطر فكثيرا ما فعل ذلك قبلا، هذه المرة كان الأمر بالغ السوء، الشاب قد اتفق مع البائع على إعداد فاتورة تتجاوز السعر الحقيقي بأكثر من الضعف، غضبت، فكرت في مصارحته ثم تراجعت، استعادت هدوءها وأخبرته أنها أجلت الافتتاح

لفترة، عندما ألح على ضرورة الانتهاء من التجهيزات، بحجة ارتفاع الأسعار المتوقع خلال الفترة المقبلة، ردت باقتضاب: سأتعاقد مع مكتب ديكور، لوضع تصميم أكثر احترافية وسيتولى أعمال التأثيث، عرف أن لا فائدة متوقعة سيجنيها من ورائها منها فارتمى بحضن ولاء.

وسط البلد (أوضة وصالة) هكذا قالت فلم أفهم، عقبت: بمجرد نشر إعلان الدار على الفيس بوك عرف جميع مثقفي مقاه وسط البلد الأمر برمته، وصلتها المعلومات فانزعجت، أحدهم قال لها بأسى، الرجل العجوز لا يستحق مثل تلك المهانة بآخر أيامه، رفعت حاجبي وسألتها: ما المهانة يا ابنتي؟ فانطلقت في الحديث.

مشروع للربح السريع، كان فكرة هادي ووافق هوى الطنط، لنخرج كاتبنا المغمور من عزلته ونجني بعض الأموال من ورائه، الموهومين كثر وموضة التأليف في أوجها، النقود لن تكون عائقا وخصوصا لأبناء الطبقة الميسورة، الصفقة واضحة، سنحقق لك حلمك، لكن ذلك لن يكون مجانيًا.

ولاء نفضت التراب عن الشيخ العجوز، وضعته داخل فاترينة وسلطت عليه الأضــواء، الساذج سيرهق عينيه في القراءة والتمحيص، سيتوهم أنه قد اختار بإرادته الحرة الأعمال الصالحة للنشر، بعدها سيتواصل هادي مع الفائزين: ألف مبروك، سيقولها بحماس، ثم يبدأ في شرح قواعد النشر للدار الوليدة، تؤكد منصورة أن أغلبهم سيوافق بالنهاية فالعرض جدير بذلك، للأسف لم

يجدوا مغفلا أفضل مني، لم يكن إعلانا لفتح باب النشر، أظهرت لي المنشور على هاتفها المحمول وأشارت إلى بعض الأسطر، قرأته بتمعن فكدت أبصق على صورتي البلهاء في صدارته، زعقت: عجوز غبي، «مسابقة للنشر»، هكذا كان العنوان الرئيسي، المشاركة مفتوحة لجميع كتاب مصر والوطن العربي، المدة المقررة لتلقي الأعمال أسبوعين وبعد شهر ستعلن النتيجة النهائية، حفلا أنيقا ستتخلله فقرات غنائية وإلقاء للشعر، المغفل الكبير بهيج داود هو من سيسلم الفائزين الدروع وشهادات التقدير وسط حضور صحفي وإعلامي مكثف، المسابقة مقامة بالتعاون مع جماعة كيميت الأدبية وستتولى منشورات الأمل طباعة ونشر وتوزيع الأعمال الفائزة والتي تأهلت إلى القائمة الطويلة، بادر بإرسال عملك على الإيميل الخاصة بالمسابقة.

أساليب النشر تغيرت، الأمر بات مختلفا الآن، ادفع لتمر، هكذا قالت لي، أشارت بعدها إلى السطر الأخير بالمنشور: بعض الأعمال ستتكفل الدار بطباعتها مجانا والأخرى ستكون التكاليف مناصفة بينها وبين الكاتب، قلت بأسى: ما هذه المهزلة، فردت: كهذا تتم الأمور، وأؤكد لك لن يكون النشر مجانيا لأحد، ستتعدد طرق الإقناع، وبالنهاية سيدفع الجميع وهو سعيد ومقتنع تماما، أتساءل كيف؟ فترد: لو اعترض أحد سيكون الرد: الدار ستتحمل مصاريف الطباعة، ما سوف تدفعه سيفي بالكاد أعمال التدقيق اللغوي والتحرير والإخراج الداخلي للكتاب، للأسف لا طريقة لإخراج عملك إلى النور إلا عبر مساهمتك بمبلغ رمزي، صمت،

ظلت الأسئلة تدور في رأسي بلا إجابة، ما الفائدة من بهيج المغمور؟ لمَ استعانوا بي تحديدًا دون غيري؟ صرحت بتساؤلاتي لها فردت: لمصطلح الكاتب الكبير رونقا، للشعر الأبيض بريق، قاطعتها: ولماذا أنا بالذات؟ فضحكت قائلة: أنت مجاني ومتاح، أغلقت عيني وأطلقت زفرة، زعقت: ملعون أبو هادي، ربما ولاء هي الأخرى ضحية، قاطعتني: كفاك طيبة، لا ضحية إلا أنت، ما جعلني أصارحك بالأمر هو حضورها بالأمس إلى بيت ورد، طلبت مني سعرا مخفضا لتأجير إحدى الغرف، تريد أن يكون المكان مقرا لعقد دورات تدريبية لتعليم الكتابة الإبداعية للمبتدئين، ستقام مرتين أسبوعيا وستستمر لثلاثة أشهر، أنت ستكون المحاضر الرئيسي، عندما سألتها: هل وافق الأستاذ على ذلك؟ ردت بثقة: لن يرفض أديبنا الكبير أبدًا تأدية خدمة لشباب الكتاب، هو مقتنع للغاية بدوري الثقافي ويثمنه.

لم أستطع الحديث، حُبست الكلمات في فمي، ظللت لدقائق أهرول بأنحاء بيت ورد وأشوح بيدي، لاحقتني قائلة: أرجو هدئ من أعصابك، أطلقت وابلا من اللعنات ثم أمسكت بهاتفي واتصلت بولاء، قلت باقتضاب: أنا منسحب، لن يكون لي دور بمشروعك، تساءلت: لماذا؟ فأغلقت بوجهها الخط، ألقيت الهاتف بقوة نحو الحائط فتهشم، احتضنتني الشابة فانفلتت من عيني دمعة، ربتت على كتفي فبكيت كما الأطفال.

(19)

حياة

أتعرفين لماذا نتعلق بالحياة، لماذا نخشى مغادرتها، سأوضح لك، ارتباطنا بالأشخاص هو السبب، أحبتنا، أصدقاؤنا، أهلنا، نحب الحياة لأنهم فيها ونخشى الموت حتى لا نبتعد عنهم.

أعتقد أن علاقة فريد حداد بالحياة معقدة بعض الشيء، لو عبرنا عنها عبر مجموعة من الحلقات، فبموت وديع قد انكسرت حلقة، واختفت أخرى بعد اعتقاله، وثالثة بسجن فؤاد، ورابعة بموت سليم بيك، ربما عدد الحلقات التي صارت تربطه بالدنيا قد تقلصت إلى النصف ببلوغه سن الثلاثين.

نسيت بالفصل السابق ذكر وفاة عميد العائلة، الحقيقة تجاهلت ذلك عمدا، للأسف هناك تاريخان مختلفان للوفاة، الأول قبل دخول فؤاد المعتقل بأشهر قليلة والثاني بعد قُبِضَ عليه بأيام، خشيت بناء أحداث طبقًا لتاريخ غير مؤكد، لذا لَم أذكر الأمر.

مشكورة منصورة، حاولت مساعدتي قدر استطاعتها، أول ما أخبرتها تحركت من فورها، قالت بثقة: الأمر بسيط، عائلة حداد يسهل الوصول إليها، أبناء فؤاد لم يغادروا مصر مثل عائلة فريد، سأراسلهم وأجمع لك المعلومات اللازمة، ابتسمتُ وربتُّ على كتفيها شاكرًا، قلت مداعبًا: سنرى ماذا سوف تفعل محققتنا الهمامة.

مر يومان فعاودت زيارتي، لم أتطرق للأمر مطلقًا، تحدثنا لساعة بموضوعات شتى، انتهى الكلام فصمتنا هنيهة، قبل أن تودعني تحدثت هامسة، أطرقت رأسها إلى الأرض وقالت: آسفة، لم أستطع مساعدتك، عشر رسائل أرسلتها ولا رد، حاولت تلطيف الأجواء، قلت: قد يكونون دقة قديمة مثلي ولا يفقهون شيئًا في التكنولوجيا، بالتأكيد لم يروها، ردت بضيق: متأكدة من أنهم قد اطلعوا عليها، برامج الرسائل تظهر ذلك.

بعد أن غادرت اتخذت قراري، كل ما سأشك فيه سأبتعد عنه.

أعتقد أن مسألة إسلام فؤاد حداد قد أحدثت شرخًا في العلاقة بينه وبين العائلة، ربما أبناؤه لا يعرفون شيئا عن فريد، قد يكونون لم يقابلوا سامي ومنى ووديع قط، أو حتى سمعوا بأسمائهم من قبل، متأكد من أنهم لم يردوا على رسائلها لأنهم لا يمتلكون أية معلومات عن الأمر.

لنترك الحاضر المؤلم ونعود إلى الماضي الأشد إيلاما، أمر غريب، خرج فؤاد من المعتقل ففقد فريد حلقة أخرى من الحلقات التي تربطه بالحياة، رغم بعد المسافات والسجن والحراس كانا قريبين وعندما زالت الحواجز ابتعدا، لعن الله الرؤى والأفكار والقناعات، افترق ابنا العم، سار كل منهما في طريقه وودعا صداقتهما، لم يكن الدين سببًا لفراقهما، ببساطة فريد المؤمن بالحرية والتكافل والمساواة وفؤاد المناصر للقومية العربية لم يعدا يطيقان اللقاء، حاولا لمرات تجاوز الأمر وبالنهاية استسلما، جلسة تبدأ باستعادة الذكريات، دقائق تمر ببطء ثم صمت ثقيل، لا يهضم فؤاد

أفكار فريد، يعترض على سلوكه، يقول: كيف يا ابن العم ترضى بذلك، أغلب زملائك بالحزب أجانب، ما لليونانيين والإيطاليين والروس بقضايا مصر؟ لماذا تدافع عن اليهود وتصادقهم، كيف تفعل ذلك وبني جلدتهم يقتلون أشقاءنا ويغتصبون أرضنا؟

يدافع عن نفسه، يقول بصدق: كلنا مصريون، نؤمن بالأفكار نفسها، لا يهم العرق أو الجنس أو اللون. يزم فؤاد شفتيه، يلوح بيده، ترتسم علامات عدم الاقتناع على وجهه، يسأله فريد: ما هو تعريفك للوطن؟ لماذا ليسوا مصريين بنظرك؟ بالفعل أصولهم تعود لبلدان شتى، بالتأكيد دياناتهم ومذاهبهم مختلفة، بعضهم لم يولد بمصر، المهم أنهم يعشقون تراب هذا الوطن، قضوا أغلب حياتهم هنا، تربوا على هذه الأرض، تعلموا في مدارسنا، عملوا بمصانعنا، سيموتون على هذه الأرض ويدفنون فيها. يضحك فؤاد، ويقول: أنت ساذج، أغلبهم عملاء، يعيشون بيننا ولا يبغون شيئًا إلا دمار الوطن، هدفهم إجهاض تجربة ناصر. يسود الصمت، يدرك كل منهم استحالة تغيير قناعات الآخر، تبقى المشكلة في كيفية إنهاء اللقاء بلباقة تليق بصديقين فرقتهما الأيديولوجيا.

ينفرط عقد آل حداد بموت سليم بك، غاب عميد العائلة فانقطعت اللقاءات، كل انشغل بحياته، رضي فريد بذلك، بالأحرى لم يهتم، فالارتباطات العائلية ترهقه، أتت «منى» إلى الدنيا فخففت من وطئ التعاسة الذي يحيط بالأسرة، انضم طفل جديد إلى عائلة الطبيب الشاب فزاد ذلك من مسئولياته، لم تكن

الأعباء وحدها هي المشكلة وإنما الضغوط، ولادة إيدا لم تكن سهلة هذه المرة، أصيبت بالحمى ومكثت لأسبوع بالمستشفى، استردت عافيتها بصعوبة فزاد ذلك مخاوفها، بات السؤال يؤرقها، يلح عليها طوال الوقت، ماذا لو مت؟ تسأله فيرد: بعد الشر، تقاطعه: حديثي جدي، كان الموت قريبًا بالفعل، بأي لحظة من الممكن أن أغادر الدنيا، من سيربي الأطفال من بعدي؟ يعانقها، يطبع قبلة على وجنتها، يقول بحنو: من فضلك كفى تفكيرًا في الأمور السيئة. تبتعد عنه، تقول: أنت السبب، أرتعب كلما فكرت بمستقبل الأولاد، الموت بأمر الله أما السجن فبإرادة الإنسان. ينكس رأسه إلى الأرض، يطلق زفرة، تكمل: أنتظر ردك، يحدثها بروية: أنت مؤمنة، متدينة مثل أمي تمام، إذن فليتم الموت، والاعتقال بمشيئته! تنفعل: كفاك تمثيلًا، أنت السبب في رعبي الدائم، طوال الوقت أفكر ماذا لو مت واعتُقل بعدها فريد، من سيرعى الأولاد؟ أرجوك ابتعد عن أي شيء قد يسبب لنا الأذى. يحاول ضمها إلى صدره، يلف ذراعيه حول وسطها فتتملص وتتراجع خطوتين إلى الوراء، تقول باكية، أريد أن نغادر، نترك مصر، ما رأيك أن نذهب إلى أستراليا؟ يرد بهدوء: لا، لن أترك وطني أبدا، تضحك بهستيرية قائلة: جد فلسطيني وأب لبناني، من فضلك كفى حديثًا عن الوطن، المستقبل هناك، لا قيود أو سجن لمن يعبر عن رأيه، سنعيش مطمئنين، ستمارس عملك الذي تحبه وستعبر عن رؤاك بحرية، يقاطعها: رؤاي في ماذا؟ في كيفية إنقاذ الكانجرو من الانقراض، أم في كيفية حماية الغابات الشجرية من الزحف العمراني؟ تريدين أن أعيش

بأستراليا وأطرح أفكارًا عن كيفية نهوض مصر، أجلس خلف مكتب يطل على حديقة رائعة على بعد مئات الأميال من وطني وأعارض النظام؟ لست منافقًا، لن أقبل أن أكون هذا الشخص أبدا. تنتحب، تسيل دموعها، يمسحها فتزيح يده وتبتعد خارجة من الغرفة، يجلس ويضع رأسه بين راحتي يده، يفكر في كيفية التهدئة من روعها، تظهر هلجريد، تقف بمواجهته، ينظر نحوها فتباغته قائلة: كفاك عنادًا، جدك هاجر من أجل مستقبل أبنائه، أبوك هو الآخر فعل ذلك، أنت أب لثلاثة أطفال وواجبك توفير مستقبل أفضل لعائلتك. يرتبك، يوقن أن حديث إيدا لم يكن عفويا، هناك اتفاق قد أبرم بين أمه وزوجته، سيضيقان الخناق عليه حتى يرضخ، يمسك بيدها ويطبع عليها قبلة، يقول: لا تقلقي، أنا بعيد تمامًا عن أي مخاطر، لن أورط نفسي في شيء، فكرة السفر تحتاج إلى الكثير من التفكير، أعدك بدراسة الموضوع، وأتمنى فقط أن تهدئي من روع إيدا.

كان الشعر هو السلوى له، لكن لكل شيء جميل نهاية، تركه الشعر، كلما أمسك بالقلم عانده، يحاول لساعات ولا يستطيع كتابة بيت واحد، يقول لنفسه بأسى: ابتعد فؤاد وابتعد الشعر معه، أصبح لا مجال للتنفيس إلا العمل فانغمس فيه، يغادر المنزل مبكرًا ولا يعود قبل منتصف الليل، زيارات صباحية للمرضى، ساعات من العمل المرهق بالمستشفى وعيادتي شبرا ومصر الجديدة، يتأخر قدر ما يستطيع للهرب من جو المنزل المشحون بالتوتر، يصل فيجد إيدا دائمًا بانتظاره، تختلق المشكلات لتفتعل شجارًا،

مرة نعتته بالمبذر فضحك، قال: أنا لست استهلاكيًا، احتياجاتي بسيطة للغاية، ردت بانفعال: يكفيك الكشف والعلاج المجاني، لسنا مؤسسة خيرية، ما معنى إهدار الوقت والنقود لأجل تثقيف العمال؟ يحتج: لكل إنسان الحق في التعلم. وقبل أن تهم بالحديث يبتعد، يمر إلى غرفة نومه ويغلق بابها.

راودته هذه الفكرة منذ فترة طويلة، تحديدًا منذ اليوم الذي امتنع فيه الريفيون عن إرسال أبنائهم، بعد انتهائه من الكشف عن المرضى، فوجئ بعدم حضور الأطفال كالمعتاد، تسأل عن السبب فرد أحدهم: الكل يعمل يا دكتور، إنه موسم جمع القطن، ليس هنا إلا المرضى والعجائز، جلس بانتظارهم، مرت ساعة ولا جديد، حل الليل، عاد الجميع بعد يوم عمل شاق، قابلوه بالترحيب، دعوه على العشاء وأقسموا ألا يغادر في الظلام، لم يبالِ بحديثهم وحثهم على ضرورة حضور الأطفال لبدء الدرس الأسبوعي، ضحكت إحدى النساء قائلة: لا تتعب نفسك، التعليم رفاهية، عقَّب آخر: خشينا أن نكسر بخاطرك فوافقنا على مضض، يكفي ما قدمته للأطفال، وأكمل ثالثٌ: من فضلك لا تحرجنا.

يومها فكر في الأمر: لا أمل بوطن أغلبه من الأميين، أول ما عاد من الريف باشر العمل، جهز الكتب، وعندما أخبر أحد أصدقائه بالفكرة أعجب بها وساعده في توفير مقر، إيدا اعترضت، قالت: أنت تائه، نحن بشر لا رسل، كفاك عبثًا واهتم بعملك وأسرتك، رد بحماس: ليس هراء، أفعل ما أظن أنه صواب، أكمل: لعلمك، للكبار الحق في التعلم أيضًا. رمته

بنظره نارية ثم أخذت أطفالها وذهبت غاضبة إلى الكنيسة، لتطلب من الرب المساعدة ورفع البلاء.

لم يفتر حماسه، سدد إيجار سنة كاملة لصاحب الشقة وجهزها بأثاث بسيط، اشترى سبورة وطباشير وخصص ساعتين يوميًا للتدريس لعمال المصانع، أبلغ رفاقه السابقين بالحزب عن الأمر فتوافد العمال بكثافة، ذُهل، لم يتوقع مثل هذا الإقبال، امتلأ المكان برجال رغبوا عن صدق في التعلم، تجاوبهم وإصرارهم أدهشه، بعد أسابيع قليلة أتقن الجميع مبادئ القراءة والكتابة، يومها أول ما عاد إلى البيت قال لإيدا بتحد: التعلم ليس حكرًا على أحد، كالعادة لم ترد، اكتفت بذم شفتيها وتقطيب جبينها.

تجربة رائعة جعلته رائقًا، لكنها وئدت قبل أن تكتمل، صاحب العقار أخبره باقتضاب أن الضوضاء التي يسببها العمال أغضبت سكان العمارة، أكد أنه سوف يحرر محضرًا بقسم الشرطة لو استمر الأمر، أكمل بحدة: لا تحضر أصدقائك إلى هنا ثانية، يكفيهم عملهم بالمصانع، هم لا يحتاجون إلى تعلم التاريخ واللغة والأفكار الشيوعية.

فهم ما يلمح إليه الرجل، حتى قبل أن يوضح له صديق مشترك حقيقة الأمر، أحدهم حذر صاحب العقار، أخبره أن بالموضوع خطوة قصوى: من استأجر شقتك شيوعي وسجين سابق، الشرطة تراقبه من كثب، قد يسبب لك مشاكل جمة، الأفضل أن يغادر هو ورفقاؤه بغير رجعة.

الطبيب الطيب لم ييأس، قرر تكرار محاولته لكن بمكان آخر، قال لنفسه: لِمَ التركيز على العاصمة؟ الأمية بكل مكان. في زيارته الأسبوعية إلى الريف ألقى باقتراحه، بعد انتهائه من الكشف وصرف الأدوية قال: أعرف أن الأطفال منشغلون للغاية، ما رأيكم في افتتاح فصل لمحو أمية الكبار، ضحكت إحدى العجائز قائلة: بعد ما شاب ودوه الكتاب! ظل لساعة كاملة يشرح لهم الجدوى من التعليم، قال بحماس: ستستطيعون كتابة العقود، قراءة الكتيبات الخاصة بالزراعة وطرقها الحديثة. لا يشعر بتجاوبهم، صامتون ومكتفون برسم ابتسامة تغلفها سخرية مبطنة، يرمي بكارته الأخير: تعلموا لتتمكنوا من قراءة الكتب الدينية. يرد أحدهم بثقة: يكفينا القرآن يا دكتور، كتاب الله يغني عن كل شيء. يقاطعه: كتاب؟ يعني كلمات، لقراءتها يلزمك التعلم، يرد آخر: لا نقرؤه، القرآن في قلوبنا، نصلي الفروض والنوافل ونرتل آياته طوال الوقت، يستمر بمحاولاته المضنية حتى يطلق أحدهم الجملة التي ينتهي بعدها أي حوار: أنت من غير ديننا ولن تقدر على فهم ما نقصده. يجد أن الحديث أخذ في التقدم إلى منحنى لا يفضله، فيصمت مضطرًا، يمثل الابتسام ويقول: كما تريدون، لكن لو غيرتم رأيكم بأي وقت فأنا بالانتظار.

رغمًا عن كل شيء هم أناس طيبون، بعد أن فرغت الجلسة تناسوها، جهزوا الغداء وجلسوا حول الطبيب المسيحي ذي الملامح الشامية بوجوه تكسوها الابتسامة، ودعوه بالدعاء له ولأسرته، أول ما انطلق بسيارته مغادرًا سرت الإشاعة وانتشرت

في ربوع القرية، الطبيب الطيب بشوش الوجه قد هداه الله، امتلأ قلبه بالإيمان ويخشى الإعلان عن إسلامه حتى لا يعرض نفسه للمشكلات.

رغم الفشل في افتتاح فصل تعليمي بالريف فزياراته لم تنقطع إلى هناك، القاهرة باتت مدينة موحشة بالنسبة إليه، يشعر بالدفء كلما غادرها، ربما السبب الرئيسي لمواظبته على السفر أسبوعيًا هو الابتعاد ولو مؤقتًا عن زوجته وأمه.

إيدا لاحظت أن حالة زوجها النفسية تتحسن كلما غادر إلى الريف، رأت أن ابتعاده عن العاصمة مريح لكليهما، على الأقل تبقى مطمئنة أنه بعيد عن أي أنشطة سياسية، شجعته على السفر والمكوث لأيام، لو تأخر في مرة أو منعه العمل المتراكم عن الذهاب، تلح عليه بترك كل شيء والانطلاق إلى هناك، بالتأكيد استغرب، فهي دائمًا ما تؤنبه على إهدار الوقت والأموال، سألها في مرة: لِمَ هذا التغير المفاجئ؟ فردت باسمة: أي شيء من شأنه تحسين حالتك المزاجية سأدعمه بقوة، اقترح عليها مرافقته فتحججت بـ»منى» الرضيعة، وافقت بصعوبة على فكرته باصطحاب وديع وسامي الصغيرين بزيارته القادمة.

رحلة استمرت ليوم واحد، أظن أنها قد حُفرت في ذاكرة الطفلين إلى الأبد، الاستقبال الحافل أذهلهم، عشرات الريفيين يرحبون بهم بحرارة، معانقات بالجملة وربت على الأكتاف وقبلات، وديع قال لأمه بفخر بعدما عاد: بابا رئيس جمهورية الفلاحين، يحبونه أكثر من جمال عبد الناصر. استمتع الولدان باللعب وسط

الحقول وركوب الأحصنة، أكلا الفطير اللذيذ وعسل النحل والقشدة، تجولا بين الأشجار وشاهدا للمرة الأولى الثمار وهي لا تزال معلقة بأفرعها، أقيمت مأدبة ضخمة على شرفهما، أدركا قيمة أبيهما، يومها عرفا كم هو عظيم.

الجميع هناك يبجله ويحترمه، هكذا فهمت إيدا من حديث وديع، يكمل الولد بفخر: كادوا أن يحملوا سيارتنا يا ماما وهم يودعوننا، يحبون بابا جدًا وإحدى العجائز أخبرتني أنه أعظم طبيب بالعالم، لعبنا مع الأطفال وكانوا يتعمدون الهزيمة أمامنا، عندما سألتهم: لماذا تجعلانا نفوز دائمًا، ردوا: لأجل والدكما، أمهاتنا أكدوا علينا أن نفعل ذلك، حتى تحبا الحضور إلى هنا دومًا.

الفلاحون طيبون بحق، اشتد قيظ الظهيرة فلم يجدوا مكانًا أفضل من مسجد قريتهم ليجلسوا فيه ابني الطبيب، المبني الوحيد ذو القبة العالية والمزود بمروحة سقف، لم يفكروا للحظة في اختلاف الدين، الطبيب الطيب يبذل جل جهده لخدمتنا، فلا يصح ترك ابنيه عرضة للبعوض والرطوبة الخانقة، وديع وسامي قضوا وقتًا لطيفًا بمسجد القرية، لعبا بمرح في المكان الفسيح الرطب، واستمتعا بمحاولة قراءة الكلمات المزخرفة المدونة على الحوائط، استمعا بإعجاب إلى الرجل الكفيف الذي يتلو القرآن.

بطريق العودة أخبرا فريد، قال سامي: عمو اللي بيغني في الجامع صوته حلو جدًا. لم نفهم جيدًا كلمات الأغاني على الرغم من أنها باللغة العربية، رد ضاحكًا: لو سمع أهل القرية حديثك لركضوا خلفنا بعصيانهم، أكمل بجدية: ليست أغاني، هذه كلمات من

كتابهم المقدس، يقاطعه وديع: لا يا بابا، هذه الكلمات مختلفة عن الترانيم التي نسمعها في الكنيسة، يعقب فريد: ترانيمنا غير آياتهم يا حبيبي، نحن مسيحيون وهم مسلمون، كتابهم المقدس مختلف عن كتابنا، لا يفهم الطفل معنى حديث أبيه، ترتسم علامات التعجب على ملامحه، يتساءل: ولماذا ليس كتاب واحد للجميع مسيحيين ومسلمين؟ أليس كلنا نعيش بنفس البلد؟ يبتسم فريد، يصمت ثم يغير الموضوع، يحاصره الولدان فيرد باقتضاب: لا أعرف، حقيقة لا أعرف.

(20)

حياة

روي عن بوذا أن ملكًا قديمًا قد جمع سكان بلدته من العميان وقسمهم إلى مجموعات منفصلة، ثم أرسل كل مجموعة إلى فيل، ووجههم الحراس إلى منطقة معينة من الفيل ليتلمسوها، بعدما عادوا استدعاهم الملك وطلب من كل مجموعة وصف هذا الحيوان، المجموعة التي لامست الرأس وصفوا الفيل بأنه يشبه بشدة إبريق الماء، أما الذين تعرفوا على الأذنين فأكدوا أن الحيوان يشبه السلة، والذين أمسكوا القدم قالوا إنه يشبه العمود تمامًا، أما من لامسوا الناب فأصروا على أن هذا الحيوان يشبه الجذع، ثم بدأت المجموعات تتجادل فيما بينها، وكل منهم يصر على أن تعريفه للفيل هو الصحيح والآخرون مخطئون.

أنا أعمى، بالأحرى كلنا عميان، نرى جانبًا واحدًا من الأشياء، طوال الوقت نفكر بعمق، نعصر أدمغتنا حتى نهتدي إلى فكرة، للأسف هي بالأغلب خاطئة، نتفلسف ونطلق الآراء، نقسم أن رؤيتنا هي الصواب ولا ندرك للحظة أننا لم نرَ الصورة الكاملة.

قضيت نهاري أحاول ترتيب الـ«بازل»، كلما ظننت إدراك النجاح أكتشف خطأ ظني، اتخذت قراري بالانعزال، لا حاجة لي في التعامل مع البشر بعد الآن، هاتفي المحمول تهشم ولن أصلحه، نزعت فيشة التليفون الأرضي وقطعت سلك جرس

الباب، أغلقت حسابي على موقع الفيس بوك، وأقسمت ألا أفتح بريد الإليكتروني ثانية، تعبت، لم أعد قادرًا على المواصلة، الوحدة أرحم مائة مرة من هذه الحياة المضطربة.

تجاهلت الطرق على باب الشقة، لم أفكر في النهوض، زادت حدته، أصبح متسارعًا وحادًا وتتبعه نداءات، ميزتُ صوت بواب العمارة وهو يهتف باسمي وآخرون يستحثونه على كسر الباب.

أهب واقفًا، تتوتر أعصابي، أسير على أطراف أصابعي حتى أصل إلى الباب، أضع أذني عليه وأستمع إلى الحديث الدائر، البواب مقتنع، العجوز لم يظهر منذ أيام، وحيدا ولا أهل له، لو مرض فلن يجد من ينجده، ربما مات، لو لم يتدخل أحد سيتعفن الجثمان، يصمت البواب، يتغير حديثه فجأة، من الواضح أنه فكر في عواقب الفعلة المتهورة، يقول: ربما ليس موجودًا، لو كسرنا الباب قد يتهمني بالسرقة عندما يعود، أستمع إلى المداولات الدائرة على أعتاب شِقتي، أرتاح لرفضه رجاءاتهم وقرب انصرافهم يائسين، تنتاب أحدهم شجاعة مفاجئة، يؤكد أنه سيتحمل المسئولية كاملة، يقول: لن أقف مكتوف اليدين أمام احتمالية أن يكون الأستاذ مريضًا وفي حاجة إلى من ينقذه، أستمع إلى المشادات بينه وبين البواب، امتلأ الدور بهواة حشر أنوفهم في أمور الغير فخفت الفضيحة، اتخذت قرارًا خاطئًا قد أندم عليه، أدرت مقبض الباب، أخرجت رأسي فنظر الجميع نحوي، وجدت بعضًا من شباب شلة هادي أمامي فأدخلتهم وأغلقت الباب بسرعة.

دقيقة واحدة من السلامات والاطمئنان على الصحة، وتبيان كيف حضروا مفزوعين بسبب عدم ردي على الهاتف والبريد الإليكتروني، استخدمت فظاظتي قدر المستطاع، شكرتهم باقتضاب وظللت واقفًا بالصالة، لم أدعهم للمرور إلى الداخل، قلت بحدة: ماذا تريدون؟ فانطلقوا في حديث أُبغضه.

تتبدل وجهات النظر تبعا للمصالح الشخصية، هذا ما اختبرته اليوم، هادي الذي كانوا يعتبرونه (الآلفا) تحول إلى الولد، صاحب السلطة وموزع الأدوار بجلسة المقهى، بات نكرة، الحكاية بدأت بمنشور ولاء على مواقع التواصل الاجتماعي، وتناقلته بعض المواقع الإليكترونية المغمورة: «اعتذار الكاتب بهيج داود عن عدم التحكيم في مسابقة المواهب، وسوف نوافيكم قريبًا بآخر المستجدات». يومها حاول الشباب مهاتفتي بلا جدوى، أمطروا بريدي الإليكتروني بعشرات الرسائل، لاحقوني على تطبيقات المحادثة التي لا أجيد استخدامها.

الأمر كان كالتالي، هناك اتفاق قد أبرم بينهم وبين هادي، سينشرون أعمالهم الأدبية عبر منشورات الأمل، «الأستاذ لن يمانع مطلقًا، فاتحته في الأمر فرحب»، هكذا قال لهم الوغد، أكمل: لم نقرر بعد هل ستنشر ضمن الأعمال الفائزة بالمسابقة أم ضمن سلسلة أخرى يجرى الإعداد لها، «أصوات مصرية معاصرة»، اسم جميل ومعبر، أكد أنه هو من اقترحه وأثنى الأستاذ على ذلك العنوان اللافت، «بهيج في جيبي الأيمن وولاء في الأيسر»، هذا ما اختتم به حديثه ليطمئنهم وهو يتسلم النقود، «الأُلعُبان» حصل من كل واحد

منهم على ألفي جنيه نظير خدماته، أقسم لهم أن النشر سيكون مجانيًا، هم استثناء بالطبع لأنهم أصدقاؤه، محظوظون؛ سيكتب الأستاذ مقدمة لعمل كل واحد منهم، بالإضافة إلى مقالة نقدية سوف تُنشر في جريدة كبرى.

أحدث منشور ولاء زلزالًا، طالما ابتعد بهيج فلا «أصوات مصرية معاصرة»، ثقة هادي لم تهتز، لم يختفِ أو يُغلق هاتفه، أول ما طلبوا مقابلته حضر توًا، تحدث بأريحية ورباطة جأش، أقسم أن النشر سيتم دون تأجيل، أكد أن نصوصهم قد أُرسلت بالفعل إلى المدقق اللغوي، مط شفتيه ثم أغمض عينيه وقال هامسًا: لست بسارق، نحن أصدقاء عمر، لم أضع قرشًا واحدًا في جيبي، سددت مستحقات التدقيق والإخراج الداخلي بالإضافة إلى تكاليف تصميم الأغلفة، وذلك لأضمن عدم التأخير، أوهموا أنفسهم بصدق حديثه، تظاهروا بالاقتناع عله يطرد التوتر الذي انتابهم، عانقوه في آخر اللقاء وأصر أحدهم على دفع ثمن الشاي والمياه الغازية التي (طفحها) النصاب.

في اليوم التالي صُعقوا، أعقبت ولاء منشورها بآخر، سطر واحد وصورة كانا كفيلين بتعكير مزاجهم،» الكاتب الكبير سعيد السنباطي قد انضم إلى أسرة منشورات الأمل، سيتولى الأديب القدير رئاسة لجنة تحكيم المسابقة، ويسعدنا موافقته على القيام بمهام مدير النشر بالدار»، خبرٌ كما الصاعقة، كبير مقهى خليفة قد حل صديقهم وأستاذه، بعدما جعلهم هادي يعادون الرجل؛ اختفى وتركهم أمام فوهة المدفع وحدهم، رحلة البحث عنه

باءت بالفشل، أغلق هاتفه ولم يرد على رسائلهم الإليكترونية، ابتعد عن مقاهي وسط البلد وباراتها، ولا أحد يعرف محل عمله أو سكنه، توجهوا إلى ولاء، هرولوا إلى مطعمها فقابلتهم بجفاء، أكدتْ بوضوح أنه لم يعد من مستخدميها، قالت بحدة: ابحثوا عن النصاب ولا تلوثوا سمعتي، لا أعرف شيئًا بخصوص النقود. ثم استدارت إلى المطبخ.

أنهوا قصتهم ثم صمتوا، تنحنح الواقف بمواجهتي فأبعدت وجهي ونظرت إلى الحائط، نهضت، قلت بحدة: ليس لي شأن، ابحثوا عنه بعيدًا عني، لم يغادروا، لم يعتبروا سيري نحو الباب إعلانًا عن رغبتي في إنهاء اللقاء، جلسوا منكسي الرؤوس في انتظار بارقة أمل، مر الوقت فسئمت، قلت بعصبية: ليس بيدي شيء، فرد أحدهم: كلمتك مسموعة يا أستاذ. مططتُ شفتي فأكمل أخر: لا نريد شيئًا إلا موافقتك على مرافقتنا، تساءلت: إلى أين؟ فرد ثالث: إلى مطعم ولاء، بالطبع رفضت، لم أقتنع بجدوى ذلك. تكالبوا عليَّ، ألحوا، توسلوا، أحدهم قال بانهيار تام: اعتبرها خدمة أخيرة، صوته المختنق بدموعه جعلني ألين بعض الشيء وأتخذ القرار الخاطئ، بالطبع لم يكن قراري هو الذهاب برفقتهم، وافقت فقط على مكالمتها تليفونيًا، أعتقد أن عقلي الباطن قد ظنها فرصة مناسبة لتلقينها درسًا، رسمت سيناريو للمكالمة، سأفرغ كل غضبي ثم أرمي بالهاتف، لا أملك هاتفًا حتى، إذن لا رفاهية أمتلكها لتهشيمه على الحائط، سأستعير هاتف أحدهم وعندما أنتهي سأغلق الخط بوجهها.

للأسف لم يجرِ المخطط كما تخيلته بعقلي، بعد جملتي الأولى هاجمتني، نطق لسانها بكلمات أدمت قلبي، أصابني الدوران فجلست على أقرب كرسي، سلمت الهاتف لصاحبه الذي استمر لدقائق في الحديث إليها محاولًا استجدائها.

تخيلي، السافلة تقول: صعب علي حالك فأردت مساعدتك، قالت بوضوح: لا أحد يعرفك، اسمك وصورتك ورواياتك، سألتني باستخفاف: متى أجريت آخر حديث صحفي؟ لم أرك على شاشة التلفزيون منذ كنت بالجامعة، متى أصدرت كتابك الأخير؟ وكم قارئ حرص على اقتنائه وقراءته؟

كفى بؤسا، تعبت وأتعبتك معي بقصصي الخائبة، قررت الامتناع عن كتابة هذا الهراء، قد تكونين غادرتِ بلا رجعة، كرهتِ العجوز البغيض فغيرتِ عنوانك، وداعًا يا حبيبتي، قد تكون هذه رسالتي الأخيرة.

(21)

حياة

سأعود بالزمن إلى الوراء، نصف قرن ونيف تفصلنا عن تلك الحقبة، سأحكي لك عن عصر الثورات الكبرى، عن أحلام الحرية ومقاومة الاستعمار، قد أتحدث قليلًا عن الإمبريالية وربما نَسُبُ معًا الرأسمالية وتأثيرها الكارثي على دول العالم الثالث.

أمازحك يا حبيبتي، أعرف أن هذه الكلمات الرنانة لا تعنيكِ بشيء، هي فقط مجرد محاولة مني لتلطيف الأجواء فالميلودراما ستبدأ الآن، سأكتب اليوم فصل النهاية في حياة طبيب الفقراء فريد وديع حداد، لا تقلقي، سأحاول قدر المستطاع أن أكون مقتضبًا، فكما تعرفين بهيج لا يحب الأحداث المأساوية مطلقًا.

وصل الشيوعيون إلى سدة الحكم بالعراق فثار جمال عبد الناصر، غضب وتوعد فغضب مساعدوه لغضبه وتوعدوا أيضًا، لا أستطيع الجزم إن كان فريد وأصدقاؤه من أعضاء الحزب الشيوعي المصري قد ابتهجوا للأمر، بالطبع تحمسوا، ففصيل يحمل القيم نفسها ويؤمن بالأفكار ذاتها قد استحوذ على السلطة ببلد عربي؛ حدث تاريخي ينذر بالكثير، يعلمون أن الرد سيكون قاسيًا لذا توجسوا، تطمينات خالد محيي الدين وقيادات اليسار المصري هدأت من روعهم بعض الشيء، مرت الأيام فغادرت الطمأنينة قلوبهم، ما كانوا يخشونه بدأ بالحدوث، النظام قرر محاسبتهم على

ذنب لم يقترفوه، انطلقت حملات الاعتقال، بدت بأول الأمر أنها عشوائية ومع مرور الوقت اتضح كل شيء، مذبحة الشيوعيين قد بدأت للتو، وسيدفع المئات أرواحهم ثمنًا لأفكارهم.

فريد لم يهتز، ليست شجاعة وإنما الحلقات التي تربطه بالحياة قد تضاءلت للغاية، بدا وكأن ما يجري لا يعنيه مطلقًا، بالطبع ازدادت الغصة بحلقه وهو يرى أصدقاءه يُزج بهم واحدًا وراء الآخر إلى السجون، ما أقصده أنه كان ميتًا بجسد حي، إيدا لا تهدأ، تحاصره بالأسئلة، لا هو سؤال وحيد يبقى بلا إجابة، متى سيلين عقلك الذي كالحجر وتوافق على السفر لأستراليا؟ يحضر العم كامل، زيارة ظاهرها الاطمئنان على منى الصغيرة وباطنها تضييق الخناق عليه حتى يرضخ لرأى العائلة، يحدثه عمه عن الأحوال السيئة فيرد بفتور: ما سوف يحدث سوف يحدث فلمَ الخوف؟ يلح كامل: من فضلك غادر أنت وأسرتك، ما تفعله ليس بطولة وإنما صبيانية.

تسير الحياة بصورة طبيعية لبعض الوقت، ينغمس الطبيب الشاب في العمل، يتنقل بنشاط بين المستشفى والعيادتين ويواظب على زيارته الأسبوعية إلى الريف، يُقبَض على معظم معتنقي الفكر الشيوعي فيعرف أن دوره قد اقترب، يطيل السير بالشوارع ويمعن النظر في المارة وكأنه يودعهم، تأخذه قدماه إلى مدرسته القديمة، يقف ناظرًا إليها لدقائق ويستعيد ذكريات طفولته، تلوح أمام عينيه صورة فؤاد فيوقف تاكسي ويتوجه إلى فيلا سليم بك، يتأملها من بعد، يتردد في المرور إلى الداخل، يتمنى ملاقاة

ابن عمه، جلسة تمتد لساعات كما الماضي، يقترب أكثر، ينظر عبر فتحات السور، يرى الأرجوحة بأقصى الحديقة فيستدعي عقله الذكريات، تتوالى المشاهد أمام عينيه، يظهر البيك محاطًا بأطفال العائلة، المناضد متناثرة وآل حداد يتضاحكون في سعادة، يقاطعه الصوت، ينتبه، يرى عيناي تراقبه من بين فتحات السور، يرجع رأسه إلى الوراء ويبتعد، قبل أن يغادر يناديه، يفتح بوابة الفيلا ويوجه إليه الحديث: للأسف يا دكتور لا أحد بالداخل، يطلق زفرة ارتياح ويغادر.

يسير حتى يتعب، يستسلم وينهي رحلته عائدًا إلى البيت، يستلقي على السرير مغلقًا عينيه هربًا من أي حديث محتمل، تمر هلجريد إلى الغرفة وتجلس جانبه، تلكزه برفق فيلتفت قائلًا: مرهق يا ماما ولست قادرًا على الكلام، الصباح رباح، تقبل جبينه وتخرج إلى الصالة حيث إيدا الجالسة بانتظارها، يتناقشون لساعة في كيف سيقنعونه بالسفر والردود المناسبة لتفنيد حججه، ينظرون حلول الصباح لإنهاء الأمر، للأسف لا يأتي الصباح وفريد حرًا، في الثالثة بعد منتصف الليل يقرع زوار الفجر الباب بعنف، يستيقظ آل حداد مفزوعين، يركض وديع الصغير نحو الباب ليستطلع فتمسك به هلجريد، تتقدم إيدا فيشير إليها فريد بالتوقف، يقول بحزم: عودوا إلى غرفكم، بالطبع لا يتحرك أحد، ينظرون نحوه وهو يقترب من الباب ويسأل الطارق بنبرة هادئة: من؟ يأتي الرد بصوت خشن: بوليس، افتح بسرعة وإلا كسرنا الباب، تنفجر المرأتان بالبكاء، يفتح فيندفع إلى الداخل ضابط وعسكريان

وثلاثة بملابس مدنية، بلا كلمات يتجه المدنيون نحو الغرف، تحاول هلجريد إيقافهم فيزعق أحدهم فيها: ابتعدي! يسأل فريد الضابط: هل معك أمر بتفتيش المنزل؟ فلا يرد، يشير إلى العسكريين فيحيطون به، يقول: عليكم التزام الهدوء، لا داعي للجلبة، الدكتور سيذهب معنا للتحقيق معه، لن يستغرق الأمر الكثير من الوقت، يجذبه العسكريان فيسمر قدماه بالأرض رافضا للتحرك، يزعق الضابط: لا داعي للمقاومة، تصرخ إيدا فيندفع الأطفال بالبكاء.

يغادر منزله للمرة الأخيرة، تنفتح نوافذ العمارة على مصارعها، ليشاهد الجيران الطبيب الشاب وهو يُجر ويُلقى به داخل صندوق عربة الشرطة، تودعه النظرات الحزينة ونداءات زوجته وأمه والأولاد، تتحرك العربة فينطلقون في صراخ هستيري.

تجري إيدا إلى الشارع الخالي كما المجنونة، تركض بملابس النوم وهي لا تعرف ماذا تفعل، ترى ظلًا يتحرك فتتوقف، يقترب فتتبين ملامحه، يقف العم كامل بمواجهتها، تجلس على ركبتيها منهارة، تلطم خديها باكية فيصيح فيها: توقفي، تنظر نحوه فتجده هو الآخر دموعه تسيل، تسأله: ماذا سنفعل؟ فيرد، لا أعرف يا ابنتي، يساعدها لتنهض، تمسح دموعها بكفيها وتقول بحزم: يجب أن نذهب بسرعة إلى قسم الشرطة، بالتأكيد قد أخذوه إلى هناك.

ساعات قضياها في البحث عنه بلا جدوى، لا أحد بأقسام مصر الجديدة والأزبكية وشبرا يعلم شيئًا عن الأمر، عادا إلى المنزل مُحمَّلين بالأسى، قابلتهم هلجريد صارخة: أين ابني؟ فنكسا

رأسيهما، حاول كامل طمأنتها، ربت على كتفيها وقبل أن يهم بالحديث أزاحت يده قائلة بتوتر: ابني لن يعود، أعرف ذلك وأنتظره منذ زمن.

البكاء ليس حلًا، الجميع أدرك ذلك فتمالك كل منهم أعصابه وبدأ بالتفكير، انسحبت هلجريد إلى غرفتها صاحبة معها الأولاد، بقي كامل سارحًا فسألته إيدا: من أبلغك؟ رد باقتضاب: لا أحد، لم أكن أعلم بالأمر، أردفت: ولماذا جئت في هذا الوقت المتأخر؟ فرد بأسى: لأستنجد بفريد، قبضوا على فؤاد بنفس الليلة، لم أعرف كيف أتصرف فهرعت إليكم.

تبلدت مشاعره، فَقَد تباعًا جميع الحلقات التي تربطه بالحياة فصار كالميت، أستطيع القول إنه في تلك الأثناء كان كالمغيب، ركب عربة البوليس فعرف أنه الأول، افتتحوا به سلسلة الاعتقالات بهذه الليلة، انطلقوا بشوارع القاهرة لساعات حتى امتلأت السيارة عن آخرها، تعرف على الجميع، أغلبهم أصدقاء وزملاء حزب، أغمض عينه ليتحاشى الحديث أو حتى رؤية نظرة تلوح من عين أحدهم تجاهه، دار بعضٌ من همس بينهم ثم ساد الصمت، أعتقد أن الرعب قد سيطر عليهم لذا صمتوا منتظرين ما ستحمله لهم الأيام القادمة من بؤس، لاحت القلعة أمامهم فعرفوا أن مستقرهم سيكون بزنازينها سيئة السمعة، فُتحت الأبواب ورحب صريرها بالضحايا الجدد، مروا إلى الداخل، عرفوا أنهم آخر الواصلين، الساحة بها عشرات العربات وأفواج من البشر المكتسية وجوههم بالفزع، أنزلوهم بالطرق على جوانب

العربة والسباب بأقذع الألفاظ، وقفوا قلقين ومنتظرين المجهول، لقد سمعوا الكثير من قبل والآن هم من سيختبرونه بأنفسهم، لم يتأخر حفل الاستقبال، بمجرد أن انطلقت العربات مغادرة وأغلقت أبواب القلعة، صاح أحد الضباط: اركضوا، لم يفهم أحد ماذا يقصد، عم السكون للحظات ثم انطلقت الهمهمات، ظهر العساكر ملوحين بالهراوات والكرابيج، خرجوا من أبواب مختلفة بالوقت ذاته وكأنه استعراض قد جرى التدريب على تنفيذه بدقة، تقدموا بخطوات منتظمة نحوهم، هرولوا حتى اقتربوا منهم، دون كلمة واحدة توافق العقل الجمعي للمعتقلين، تحركوا بلا تخطيط، بدء ماراثون العدو وانتهى سريعًا بخسارتهم كما المتوقع، كانت ضريبة الحفل حصة إصابات طالت أغلبهم، أوقفوهم بصفوف طويلة ثم وزعوهم على الزنازين وسط وابل من السباب يطلقه الضباط والعساكر باقتدار يليق بمحترفين.

فريد المجرد من أي مشاعر استلقى على الأرض، وجه جسده ناحية الحائط وأغمض عينيه، الطبيب الذي فقد كل الحلقات التي كانت تربطه بالحياة لم يشعر بلسعات الكرابيج على جسده، حتى لم يهتم بالنظر إلى الكدمات التي تغطي ظهره وفخذيه، أعتقد أنه كان مدركًا بأنها النهاية، متقبلًا للأمر تمامًا، كل ما يتمناه أن يحدث بسرعة ليستريح إلى الأبد.

لم يكن إمضاء الوقت بمعتقل القلعة صعبًا بالنسبة إليه، قضى أغلب ساعات تلك الليالي الموحشة في اجترار الذكريات، يظهر أمام عينيه المغمضة شريط سينمائي يحتوي ماضيه، فيلا سليم بك

وحديقتها الرائعة، أشجار الباباز والرمان والتوت، الأرجوحة الحمراء، وطاولة البلياردو ذات الشبكة اليسرى المقطوعة، غرفة الموسيقى بأقصى الركن الأيمن ومخبئهما السري للتدخين هو وفؤاد خلفها، يرى مغامراته الطفولية هو وصديق عمره، لقاءه الأول بإيدا وتلعثمه وهو ينطق كلمة أحبك، تورُّدَ خديها وقبلته المتهورة، تنطفئ الشمس، تصير الأجواء رمادية ويهطل المطر بغزارة، يعلو صوت دقات ساعة جامعة فؤاد الأول، تندلع المظاهرات الحاشدة، يجد نفسه بمقدمتها محمولًا على الأعناق، يصفو الجو مؤقتًا، تزدهر الورود بغير أوانها، يستمع لصوت السادات الرخيم منبعثًا من الراديو بغرفة هلجريد، يهرول فيجد أمه تردد باستغراب: الحركة المباركة لضباط الجيش؟ يندفع موج البحر، يتجاوز السابحين، يصل إلى الأطفال الجالسين أسفل الشماسي ويهدم قصورهم الرملية، يشعر بالبرودة تغزو قدميه، ينتبه لصوت فؤاد الجالس بجانبه، ينظر نحوه فيجده مبتسمًا على غير العادة، يعلوا صوت إيدا منادية: تعالا، البحر يناديكما.

تسري بجسده رعشة، تلطمه الأمواج، يقف على أطراف أصابعه حتى لا يغمر الماء رأسه، يشعر برطوبة الرمال تتسلل إلى جسده، فينقبض قلبه، ينطلق فؤاد في الحديث، يبرهن بالأدلة أنها ثورة شعب وانتفاضة وطن، يحرك شفتيه فلا تغادر كلماته فمه، ليس متأكدًا هل يعترض أم يطلق صيحة استغاثة، ينقذه سليم بك، يتقدم نحوهما ويزعق في غضب: اُخرجا الآن، عودا إلى الشاليه فقد حان وقد الغداء، لا يعرف كيف طفا جسده وحملته الأمواج،

يجد نفسه على الشاطئ وحيدًا، تتصاعد الحرارة، يصبح الجو لا يطاق، يغمض عينة اتقاءً للشمس الحارقة.

يفتحها ببطء فيذهل من مظهر الحقول اللا نهائية أمامه، اللون الأخضر الممتد يجعله منشرح القلب، تعلو الابتسامة شفتيه، يسترجع رحلته الأولى إلى الريف، يتذكر توجس الناس منه ببادئ الأمر، شاب بملامح تشبه الشوام ويرتدي البذلة والكرافتة، وجهه البشوش وابتسامته العريضة جعلهم يطمئنون له، يقول: جئت لأساعدكم، فيردوا: شكرًا، لا نحتاج إلى مساعدات، يـردف: ليست منحة، أنا طبيب، مهنتي أن أداوي الناس، يقطعونه: لا نملك نقودًا لنعطيك أجرك، يرد: نحن أبناء وطن واحد، واجبي مساعدة أبناء بلدي.

بزيارته الثانية سأله شابٌ: ملامحك ليست مصرية، أنت تشبه الشوام يا دكتور، هل أنت لبناني؟ رد مبتسمًا: أنا مصري، ولدت هنا وسوف أعيش طيلة عمري هنا، وعندما أموت سأدفن هنا.

يشم عبير الزهور، يرى أطواق الفل والياسمين، يهاديه الأطفال بها فيبتهج، يدوي صوت كلاكس سيارته عاليًا بفعل الهدوء، ربما أطلقه كصيحة وداع، يرى نفسه محاطًا بأهل القرية الطيبين، يدير المحرك فيتدافعون نحوه وكأنهم يمنعونه من المغادرة، يحيطون به ويودعونه بوابل من الدعوات الصادقة، يفسحون الطريق ليمر، يلوحون له قائلين: سننتظرك، تنبعث الرائحة الحلوة فيلتفت إلى مصدرها باسمًا، ينظر نحو «كنبة» سيارته الممتلئة بأسبتة الفطير والزبد والجبن. ينطلق السلام الوطني مصحوبًا بعزف

الأكورديون والطبلة، تبدأ الإذاعة المدرسية ويمتلئ فناء المدرسة بالطلبة، تلوح أمام عينة الطرابيش الحمراء والبذل الرمادية فتكسو الابتسامة وجهه، يتحلق حوله التلاميذ والتلميذات، يقول بهذر: مهنتي هي الكشف على الأجساد وتقديم العلاج اللازم، يردون ضاحكين: نحب الحديث معك يا دكتور، يُعقّب باسمًا: لست طبيبًا نفسيًا.

يتذكر أسئلتهم الكثيرة، الاستشارات العاطفية التي حاصروه بها، ينتظرون منه تقديم المشورة، يقولون: هذه هي تجربتنا الأولى، لا نمتلك أي خبرات في هذا الموضوع، يرد بخجل: أنا مثلكم تمامًا، ليس لي أي تجارب عاطفية، يظنونه يتهرب: لا تخادعنا، يرد: حقيقةً لم أجرب مثل تلك الأمور، لم أعرف بحياتي امرأة غير زوجتي.

فجأة تتلبد السماء بالغيوم، يمتلئ الجو بصفرة تقبض القلب، يلوح النيل بلونه الرمادي القاتم من بعيد، تنطلق سيارته بسرعة جنونية، يرى نفسه خلف عجلة القيادة وبعينة دموع، يخفق قلبه وهو يرى السور الحديدي الصدئ، يأتي صوت التلاميذ عاليًا فتنفرج أساريره، يغادر السيارة ويركض نحو ظل هلجريد الذي يلوح من بعد.

تتناثر الأقاويل، تنتشر الشائعات داخل الزنازين، تنطلق أصوات اليائسين بفرح: وفقًا للمعلومات الواردة من الخارج فإن الفرج قريب، إطلاق السراح قد بات مسألة وقت لا أكثر، ناصر يود بدء صفحة جديدة مع جميع القوى الوطنية وخصوصا اليسار.

أمل من أمل وابتهج من ابتهج أما هو فلم يهتم، قلبه يوقن أنها النهاية وعقله لا يصدق أن الحامل للبندقية قد يقدم أي تنازلات، «قريبًا سيسمحون بالزيارات»، قالها زميله الجالس بجانبه فلم يرد، ظن أنه سارح ولم يسمعه فلكزه لينتبه، أكمل: افرح يا أخي، لمَ أنت صامت هكذا؟ افعل شيئًا بدلًا من تحديقك الطويل بالجدار، رسم ابتسامة بدت رغمًا عنه مزيفة، قال: أشكرك على اهتمامك، أنا بخير، قاطعه: السلطات بالسجن قد سمحت لنا أخيرًا بإرسال رسائل لذوينا، وزير الداخلية استجاب لمطالب الرفقاء بالخارج اليوم، تحمس يا أخي وطمئن عائلتك، أخرِج ما بداخلك على الورق علك تبرأ، لم يرد، أغمض عينه وتظاهر بالنوم فابتعد الرجل.

مرت ساعة فعاد ثانية وبيده ورقة وقلم، وضعهما بجانبه وقال: اكتب رسالتك، همَّ بالانصراف فأمسك فريد بيده، قال: اجلس، لن أدون سرًا، أمسك بالقلم وكتب جملة واحدة.

أنا آسف للغاية على كل ما سببته لكم من آلام، أتمنى أن تسامحوني.

فريد

سلم الورقة لرفيقه فاستغرب، قال مستنكرًا: لم تكمل دقيقة، سطرًا واحدًا، ضحك: قلت فيه كل ما أريد قوله.

ارتفعت معنويات المعتقلين حتى لامست السماء، الترتيبات الجارية تؤكد أن أيامهم بمعتقل القلعة قد باتت معدودة، أيام وسوف ينعمون بنسيم الحرية، سيعودون إلى عائلتهم مرفوعي

الرؤوس، انفرجت شفاه العساكر بعض الشيء، لمح المعتقلون شبح ابتسامة ينفلت أحيانًا فابتهجوا، تضاءلت نوبات الضرب العشوائية، مر ضابط ذو رتبة كبيرة ليتفقد زنازينهم وسألهم باهتمام ظاهر عن المشكلات التي يعانونها بالمكان، حضر وفد حقوقي لزيارتهم وسط تطمينات بقرب انتهاء الغمة.

أخيرًا جاءت اللحظة التي ينتظرونها، أُبلغوا رسميًا بالاستعداد للمغادرة، أخذتهم الحماسة فهتف من هتف وبكي من بكى، انتظروا كالأطفال شروق الشمس، ببطء مرت الساعات، هطل المطر فجأة، تحولت السماء إلى رمادية واختفت الشمس وراء السحب، بعضهم انقبض قلبه، لكنهم ابتهجوا أول ما انفرجت أبواب الزنازين إيذانًا بالمغادرة، خرجوا من عنابرهم إلى ساحة القلعة الفسيحة، وجدوا صف العربات متأهبًا للتحرك فأطلقوا زفرة ارتياح، صاح أحدهم بثقة: ستنقلنا إلى مديرية الأمن لإتمام الإجراءات ثم يعود كل منا إلى منزله، صعدوا العربات محملين بالأمل، للأسف لم تكن رحلة الظفر بالحرية كما تصوروا، وإنما حلقة أخرى من سلسلة طويلة من الإذلال، رُحلت كل مجموعة إلى سجن مختلف، كان نصيب فريد حداد هو الزج به في ليمان أبي زعبل.

وصل إلي هناك بغد المغيب بقليل، ساعات طويلة قضتها سيارة الترحيلات في السير بشوارع القاهرة بغير هدى حتى لاحت الأسوار من بعيد، مروا إلى الداخل ذاهلين، هبطوا في ساحة الليمان فبدأت على الفور حفلة الترحيب بهم، قائد السجن رجل يهوى الابتكار، الضابط ذو الثلاث نجمات النحاسية والابتسامة الصفراء وضع

لمسته الخاصة بالحفل، لم تجرِ الأمور كما المعتاد، لم يظهر العساكر، لم يسمع الوافدون صوت الهراوات وهي ترتطم بالأرض فيستعدوا، لم يبدأ السجانون في إطلاق الشتائم والبذاءات باتجاههم، الساحة خالية إلا من مجموعة صغيرة من الضباط يتسامرون، ألقيت عليهم الأوامر، قالها مدير السجن بخشونة ظاهرة فعرفوا أنها ليلة ستكون صعبة، قال: اخلعوا ملابسكم، كما ولدتكم أمكم يا أعداء الوطن، الزنازين مفتوحة وبانتظاركم، أريد رؤية مهاراتكم في الركض يا أوساخ، بعد أن انتهى أشار بيديه فظهر العسكر فجأة، وقفوا على طرف الساحة شاهرين كرابيجهم ومستعدين، صاح فيهم: انطلقوا، فجرى الجميع سجانين ومسجونين، بالطبع الأوفر صحة هو من سيفوز، تضاءلت المسافات كما المتوقع، على الرغم من محاولات المعتقلين الابتعاد قدر المستطاع اقترب العسكر، للأسف المكوث الطويل بعنابر رطبة ومظلمة والطعام الشحيح قد أثرا بالسلب في حالتهم الصحية، بعد ثلاثين مترًا من بداية السباق لحق بهم سجانوهم، اندفعت الهراوات والكرابيج نحو أجسادهم بغير هوادة، لا يعرفون هل يُضربون عقابًا على الركض أم جزاءً على عدم استطاعتهم بلوغ الزنازين، تحاملوا على أبدانهم المنهكة أملًا في خلاص، سقطوا ونهضوا لعشرات المرات، لاحت أبواب العنابر فظنوا أن النجاة وشيكة، أحدهم التفت إلى الخلف، ليعرف المسافة التي تفصله عن أقرب مطارد فرأى فريد على الأرض، الطبيب الذي فَقَدَ تباعًا جميع الحلقات التي تربطه بالحياة توقف فجأة، ربما ظن ألَّا فائدة من الركض، قد يكون أُنهك أو ملَّ وأراد للُّعبة أن تنتهي.

انهالت الكرابيج على جسده فلم يصرخ، حتى لم يطلق آهةً أو أنينًا، سقط بلا نية للنهوض، أوجعوه ضربًا كي يتحرك لكنه ظل بمكانه، راقب الموقف قائد السجن، قطب جبينه وأشار إلى أحد الضباط ليعاقب العاصي للأوامر.

هرول نحوه وأول ما وصل إليه ركله بقدمه، أطلق وابلًا من السباب ثم قال بحزم: انهض يا ابن الكلب! نظر فريد نحوه بعيون خاوية وظل بلا حراك، صفعه قائلًا: قم وتحرك يا عدو الوطن، رد بصعوبة: أنت بلا أخلاق، بوغت الضابط، أطلق ضحكة ثم تبعها بوابل من الصفعات، جلس على ركبته، أمسك رأس فريد ورفعه لتلتقي أعينهما، ابتسم قائلًا: أنت هنا مجرد كلب. لم يستطع الرد، جسده يئن وفمه مليء بالدماء، رده كان بصقة كست وجه الضابط، صاحب النجمتين النحاسيتين صُعق، أحس بالإهانة، فكر لثانية في قتله ثم تراجع، رفع قدمه وهوى بها على رأسه، ظل لدقيقة يضغط بها على أنفه وعينيه وفمه، حركها إلى الأسفل قليلًا ثم ثبتها فوق عنقه، لا أعرف أمن حسن الحظ أم لسوئه أنه انتهى، ربما لو أطال دقيقة أخرى للفظ طبيبنا أنفاسه الأخيرة، الضجيج المنبعث من الخلف جعله يتركه ويلتفت لمعتقل آخر يلطم خده بيد ويغطي بالأخرى عورته، يضحك ويبكي في آن واحد كما المجنون، كسب فريد دقائق من الراحة، استراحة خاطفة لجسده ربما تعينه على تحمل جلسات الإهانة والتعذيب القادمة لا محالة.

وصل المعتقلون بسلام إلى خط النهاية، رغم الكدمات والجروح فهم على قيد الحياة، اكتملت اللعبة بإغلاق أبواب الزنازين

أمامهم، لم يستطيعوا الولوج إلى الداخل، سهموا لثوان ثم أتى الصوت هادرًا يأمرهم بالعودة إلى منتصف الساحة، ضحك قائد السجن من القلب وهو يشاهد هؤلاء التعساء يرتجفون من الخوف، أوقفوهم بطابور طويل إيذانًا ببدء التحقيق، رصت على عجل كراسي ومنضدة للجنة المكونة من أربعة أشخاص، ثلاثة منهم منفوشون كما الطاووس في زيهم العسكري.

لم يفكر في شيء، وقف كما المغيب وركز بصره في السماء، قاوم آلام جسده بتذكر الأيام الخوالي، لم يطل الوقت، لكزه أحد العساكر بعنف كي يتحرك للأمام، لم يقدر على الحركة فجروه، أرغموه على الوقوف بمواجهة اللجنة لإتمام التحقيق.

سأله مدير الليمان: اسمك إيه يا واد؟

رد: أنا الدكتور فريد حداد

عقب ساخرًا: دكتور إيه يا ابن الق...، دكتور روسي؟ إنت شيوعي يا واد؟

رد بثبات: أنا مصري أؤمن بالاشتراكية

قاطعه: يعني شيوعي

حاول فريد قدر المستطاع أن يرفع صوته.

قال: أنا مصري، مصنوع من طين مصر ومعجون من عرق العمال والفلاحين

لم يحتمل مدير الليمان ردوده، ربما استُفز من جراءته، أطلق

زفرة، نهض من على كرسيه وصفعه، لم يتحملها كالمتوقع وسقط على الأرض، أشار إلى العساكر فاندفعوا نحوه وأرغموه على الوقوف، نظر نحوه الضابط وقال بسخرية: روسي؟ فنطق فريد بصعوبة وبصوت خفيض: مصري، أشار إلى العسكر فنفذوا، هاجموا طبيبنا المصري حتى النخاع بـضراوة، ضربوه بعنف وكأنهم ينتقمون لكرامة قائدهم، استخدموا أيديهم وأرجلهم وهراواتهم وكعوب بنادقهم، سقط على الأرض، تلوَّى من الألم، زحف فأمسكوا بقدمه وجروه ناحيتهم، أكملوا مهمتهم على خير وجه، القاعدة أن يستمروا حتى يأمرهم القائد بالتوقف، دقيقتان وانتهى الأمر، توقفوا بلا أوامر من أحد، لاحظوا سكون السجين فأبعدوا هراوتهم عن جسده.

مات، هكذا بكل بساطة، المعتقل الذي وصل إلى ليمان أبو زعبل منذ ساعتين بأقصى تقدير قد فارق الحياة، اضطرب الضباط، سرت الهمهمات، تبادلوا الحديث لثوان ثم فضوا جلسة التحقيق المشئومة، وسيق المعتقلين إلى زنازينهم وانطلق الضباط إلى مكاتبهم لإجراء المكالمات الهاتفية بالمسئولين.

كانوا متوترين للغاية، أعتقد أنهم كانوا يمعنون في تعذيب المعتقلين لإذلالهم، لكن لم يكن من ضمن أهدافهم الموت، اقترح أحدهم حلًا للخروج من هذه الأزمة، لاقى اقتراحه ترحيبًا فشرع من فوره بتنفيذه، أحضروا طبيب السجن وعرضوا عليه الفكرة فلم يمانع، تحمس للغاية وشرع في كتابة تقرير طبي مفصل عن الوفاة.

دُوِن الآتي: المعتقل لم يشكُ من أي أمراض، حضر إلى ليمان أبو

زعبل سليم الجسد ظاهريًا، تم توقيع الكشف الطبي الدوري عليه فور وصوله وكان بصحة جيدة، أزمة قلبية مفاجئة أصابته في أثناء تواجده بساحة السجن انتظارًا لتوزيعه، للأسف لم تفلح جميع محاولات الفريق الطبي لإنعاش قلبه وفارق الحياة.

ذُيِّل التقرير بتوقيعه وسلمه إلى مدير الليمان، كما الأوامر وضع العساكر جسده بنعش ودمغوه بالشمع الأحمر، ساعات قضاها وحيدًا بساحة السجن، ربما سمع نحيب رفاقه وبكاءهم حزنًا على موته، بعد الكثير من المشاورات بين قيادات قطاع السجون والمسئولين بوزارة الداخلية تحركت العربة التي تحمل جثمان فريد وديع حداد من ليمان أبو زعبل لتوصله إلى مثواه الأخير.

سامحيني يا حياة، لست قادرًا على المواصلة، سأحاول قدر المستطاع الاختصار، فقلبي الشائخ لا يحتمل كل هذا البؤس.

رن الهاتف، كان وديع الصغير أول الواصلين، بالطبع لم يفهم شيئًا من حديث المتصل فنادى أمه، إيدا المستيقظة توا لم تستوعب.

فريد؟!

أحضر على الفور لأتسلمه!

شكرا جزيلًا يا حضرة الضابط.

ارتدت ملابسها على عجل وأخبرت هلجريد مبتهجة بالمفاجأة السارة. أصرت على مرافقتها فرفضت، قالت: اجلسي رفقة الأولاد، لن أتأخر، سأعود متأبطة ذراعه ونحتفل كلنا حتى الصباح.

أبدًا لن ينسى المصلون بكنيسة هليوبوليس الإنجليكيانية ما جرى بالقداس الصباحي لذلك اليوم؛ امرأة شعثة الشعر ترتدي ملابس يغطيها الغبار تظهر فجأة وسطهم، تهرول نحو المذبح صارخة: رفضوا أن أحضره إلى هنا، رجوتهم أن يُصلى عليه في الكنيسة فنهروني، لم يسمحوا لي حتى بوداعه، وددت لو قبلت جبينه، أردت عناقه لمرة أخيرة والبكاء قربه.

تجلس على ركبتيها وسط ذهولهم، تصرخ بهستيرية: لا كلمة بقاموسهم إلا ممنوع، ممنوع الصلاة، ممنوع الجنازة، ممنوع العزاء، ممنوع الأسئلة، مات، انتهى، هذا كل ما لدينا لنقوله.

المصلون لا يدركون معنى حديثها، اعتقدوا أنها سيدة قد مرت للتو بموقف عصيب جعلها في حالة هياج، إحدى النساء اقتربت منها، ربتت على كتفها، تشجعت أخرى فعانقتها، اقترب البقية، حاولوا التهدئة من روعها، إحداهن صاحت أول ما تبينت ملامحها: هذه إيدا، زوجة الدكتور فريد جارنا.

انتهى القداس مبكرًا بهذا اليوم، بالأحرى أُلغي، التف الجميع حولها ليواسوها في مصابها الجلل، حكت لهم بمرارة عما جرى في تلك الليلة المشئومة.

بعد أن أنهت المكالمة مع الضابط ركضت نحو قسم الشرطة، مرت إلى الداخل لاهثة والابتسامة تغمر وجهها، تعد الثواني لتقابل زوجها بعد طول غياب، لقد طال البعد، الأولاد يسألونها كل يوم: أين بابا؟ فرغت الحجج وتعبت من الكذب، أخيرا زال

الكرب، لحظات وستضمه إلى صدرها، تنتبه إلى نظرات العساكر لها، تقطب جبينها وتسألهم: أين أجد المأمور؟ يرد أحدهم: مكتبه بالدور العلوي، تصعد درجات السلم قفزا، تمر إلى داخل الغرفة، تبتسم قائلة أنا زوجة الدكتور فريد حداد، يرد بتوتر: هل حضرت بمفردك؟ ترتسم ملامح الدهشة على وجهها، ترد: جئت لتسلُّم زوجي، يزدرد ريقه، يصمت للحظات ثم يحدثها بتوتر: يبدو أن بالأمر سوء فهم، من فضلك أحضري أربعة رجال على الأقل من عائلتك، تسأله: لماذا؟ يصمت، يدير وجهه متجاهلًا سؤالها، تردف: ليس في البيت إلا الأطفال وجدَّتهم، يسود الصمت للحظات، تفكر في تلك المحادثة العبثية وفحواها، تلعن بسرها البيروقراطية الحكومية، تظن أن القانون يقتضي وجوب ضامن رجل للمعتقل لا سيدة لإخلاء سبيله، يقاطع أفكارها، يقول بلهجة يشوبها التعاطف: أليس لديك أقارب؟ جيران، معارف، يلزمك على الأقل ثلاثة رجال، تقاطعه بعصبية: رجال، لماذا الرجال؟ أنا زوجته، تخرج من حقيبتها بطاقتها الشخصية، تلوح بها له: أنا مواطنة أحمل بطاقة هوية ويحق لي تسلُّم زوجي، يشعل سيجارة، يتحدث متحاشيًا النظر إليها: يجب حضور الرجال لتسلُّم نعش فريد.

تنهار، تجثو على ركبتيها، تضرب الأرض بيديها، تولول وتصرخ بهستيرية، يقترب منها، يقول بحزم: لا وقت للبكاء، غادري الآن واحضري الرجال بسرعة، هذه هي الأوامر، لو لم تتسلموا النعش قبل حلول النهار سندفنه بمعرفتنا، تنهض، تمسح دموعها، تنطلق على غير هدى، تفكر إلى من سوف تذهب، فيلا سليم بك خاوية،

عميد العائلة مات وفؤاد في السجن، العم كامل يسكن بشبرا، لو عادت إلى المنزل وهاتفته لن يسعفه الوقت للحضور بالموعد، يئست، صارت تجرى كما المجنونة، تصرخ بلوعة فلا يجيبها إلا صمت الشارع الخالي ونقيق الضفادع.

تجلس على الرصيف، تضم رأسها بيديها، تدعو الله أن يساعدها، تتذكر يوسف، الابن الأكبر لجيرانها الفلسطينيين، هو آخِر من زارهم، جاء أول أمس حاملًا شوكولاتة للأولاد، صديق لفريد ويواظب على الاطمئنان عليهم، «نحن أقارب تجمعنا الأصول الفلسطينية»، هكذا قالت لنفسها، تصعد سلم العمارة، يعلو صوتها» أقـارب»، تبكي وترددها، تطرق بابه، يفتح يوسف فيندهش من مظهرها وحضورها في ذلك الوقت المتأخر، يسألها: ما الأمر؟ فترد بطريقة أليه: أقارب، نحن أقارب، أنت رجل، من عائلتنا، يهدئ من روعها، يعيد سؤاله، تجيبه: ليس أمامنا وقت، أحضر ثلاثة رجال ووافوني عند قسم الشرطة، يقاطعها: ماذا جرى؟ فتصرخ فيه: فريد مات!

إمعانًا في إذلالها أتت الأوامر بمنع مرافقتها لزوجها إلى مثواه الأخير، حرم عليها وداعـه، رجت الضابط فرد بصدق: لا أستطيع مخالفة التعليمات، اقتادوا الرجال إلى مدفن موحش بأطراف العباسية، أنزلوهم من عربة الشرطة فوجدوا بانتظارهم ضابطًا ذا رتبة صغيرة وجنديين، يقفون إلى جوار حفرة فارغة، ينتصب على طرف منها صندوق خشبي مغلق، بلا مقدمات يشير الضابط إلي الجنديين فيشمروا أكمامهم، يوجه حديثه إلى

يوسف: يمكنكم إنزال النعش إلى داخل القبر، قبل ذلك يجب أن توقعوا إقرارًا بتسلُّم الجثة، طلب منهم بطاقات هويتهم، دوَّن بورقة أرقامها وأسماءهم كاملة، همَّ يوسف بسؤاله عن سبب منع إيدا من مرافقتهم، قاطعه: غير مسموح بالأسئلة، غير مسموح بإلقاء نظرة على الجثمان، غير مسموح بفتح النعش لأي سبب من الأسباب، أخبر أفراد عائلة المتوفى بذلك.

عرف الجميع بالمصيبة، مقتل فريد بريعان شبابه أصابهم بالصدمة، العم كامل كان أكثرهم صلادة، ودع ذهوله من هول الفاجعة وصحب عددًا من شباب العائلة إلى قسم الشرطة، اتجهوا إلى مكتب المأمور فأخبرهم باقتضاب أن الموضوع خارج نطاق اختصاصه، قال بعصبية: اذهبوا إلى الجهات المختصة، مهمتنا انحصرت في تسليم النعش فقط، بعد فاصل طويل من الاحتجاجات غير المجدية غادروا، انضم إليهم يوسف ليدلهم على موقع الدفن، إيدا أصرت على مرافقتهم، وصلوا إلى المقبرة ففوجئوا بوجود حراسة مشددة عليها، اقتربوا فحذروهم العسكر، قالوا بخشونة: ممنوع مطلقًا المرور إلى الداخل، هذه أوامر عليا، انهارت إيدا، سبت وبصقت وأطلقت اللعنات، انتابتها حالة من الاهتياج حتى أغشي عليها فحملوها إلى السيارة وغادروا.

استمرت الحراسة على قبر فريد حداد لفترة طويلة. طرق العم كامل جميع الأبواب، من مكتب النائب العام إلى النيابة مرورا بمقري وزارتي الداخلية والصحة، الرد كان واحـدًا: الوفاة طبيعية، الأعمار بيد الله، أزمة قلبية مفاجئة أعقبها هبوط حاد

بالدورة الدموية، تقرير طبيب السجن يتسم بالوضوح والشفافية، استسلمت العائلة على مضض، تأكدوا من أنه ليس هناك أي بارقة أمل، فلا قانون يحكم هذا البلد، إيدا شرعت بتنفيذ قرارها، راسلت أخاها بأستراليا ورتبت إجراءات السفر إلى هناك، بعد سنوات قليلة من مقتل الطبيب الشاب غادر مصر جزء كبير من عائلة حداد، انفرط عقدهم، فرقهم الشتات، بيعت فيلا سليم بك بثمن بخس، هدمت بأواخر الثمانينيات وشيد مكانها برج خرساني قبيح التصميم.

انتهت القصة يا حياة، للأسف لم نحظ بنهاية سعيدة مثل نهايات الروايات الرائجة والأفلام الكلاسيكية، هذه هي الحياة الحقيقية بلا تزييف، أتمنى أن أكون قد نجحت في سرد جزء من سيرة طبيب الفقراء، الشاب كلي الحضور بشوش الوجه، الصادق في زمن امتلأ بالكاذبين.

أظنك سوف تسألين عن جنازته، على الرغم من منع الحكومة لإقامتها فقد حدثت بشكل عفوي، كانت أشبه بمظاهرة حب، انتشر خبر وفاته فتوافد المئات بلا خوف إلى منزله، الطلاب والريفيون والمرضى المعدومين والعمال، امتزجت الجلاليب بالبذل والقمصان المدرسية، اجتمع الفلاحون والأفندية، ذوو الأصول الشامية والمصريين، اليهود والفلسطينيون، جميعهم حضروا ليودعوه ويذرفوا الدموع بصدق على فقيد الإنسانية.

(22)

المحتجبة حياة.

الحياة شيء بالغ التعقيد والغموض، بحيث لا ينبغي لأحد أن يحكم على سلوك الآخرين ويدينهم.

قـرأت هذه الجملة على لسان إحـدى شخصيات مسرحية كلاسيكية أمريكية، حاول هادي اليوم إقناعي بصدق هذه المقولة، لا أعرف لماذا وافقت على مقابلته، لا أعرف لمَ أسرعت بفتح الباب ودعوته للدخول، ربما خفت تكرار مشهد اليوم السابق، البواب والجيران المستطلعون ومحاولة الدخول بالقوة، لست متأكدًا هل فتحت الباب لوئد الفضيحة في مهدها، أم أنني أردت رؤيته وسماع تبريراته، الشاب مد يده لمصافحتي فلم أمسك بها، تركته وتحركت نحو غرفة المكتب فتبعني، جلس بمواجهتي ولم تطل لحظات الصمت، تكلم، استطرد ولم أقاطعه، قال: في البدء أنا أحبك، أقسم بذلك، حقيقة أنت إنسان طيب، قرأت معظم أعمالك قبل أن أقابلك وأعجبت بأسلوبك وأفكارك.

مقدمة هزلية وخصوصًا إن جاءت من شخص مثله، رسمت ابتسامتي الصفراء على وجهي، قبل أن يكوِّنَ عقلي جملة لاذعة تليق بالرد على حديثه مر إلى صلب الموضوع، ودع المواربة وتحدث بأريحية، ربما للمرة الأولى منذ عرفته.

البداية كانت ذكر اسمي على سبيل التباهي ليس أكثر، الشاب

مثقف ومطلع وطوال الوقت يريد البرهنة لرفاقه أنه يعرف الجميع، مشاهير ومغمورين، لماذا اسم بهيج داوود دون غيره؟ ببساطة لأنه مجهول، لم يكن معروفًا بالماضي ولا في الحاضر، سبب مقنع ووجيه، لماذا دون كل المجهولين تأتي سيرتي؟ إنها الصدفة لا أكثر.

المكتبة العامة القريبة من منزله يتوافر بها الكثير من كتبي، سوء حظي أن تقع عيناه على روايتي كوثر دون غيرها بين الرفوف، حب الاستطلاع جعله يقرؤها، عمل ليس فارقًا لكنه جيد بمقاييس عصره، رواية لافتة، لماذا لافتة؟ لأن صاحبها لم يحظ بأي شهرة، كثيرون من كتاب ذلك الجيل كتبوا أعمالًا أقل من كوثر ومع ذلك حظوا بتقدير كاف.

كرر الاسم في أكثر من ندوة، ربما ذكره ليبرهن أن الحياة ليست عادلة بما فيه الكفاية، مغمور ولديه صف من الكتب بالمكتبة العامة ولم نعرف حتى باسمه، بدافع الفضول تصفح عمل آخر، أعجبه فانقبض قلبه بشدة، قال لنفسه: الجودة ليست مقياسا للنجاح، قد أعيش عمري أؤلف كتبًا جيدة ولا يسمع أحد باسمي، كان يظن أنني مت، ذكر اسمي لمرة أمام السنباطي فأكد له أنني حي أرزق، أعقب ضاحكًا: ابن ذوات لا يحب المقاهي الرخيصة والاختلاط بعامة الشعب، يسكن بفيلا ويمتلك مزرعة يقضي فيها شيخوخته دون ضجيج.

منصورة هي السبب، هكذا قال، بداية اهتمامه بالبحث عني كان لتحقيق رغبتها، أتت سيرة بهيج داوود فلمعت عيناها، أعجبت بالحكاية فرشح لها إحدى رواياتي لتقرأها ثم يتناقشان معًا في

أفكارها، شاب أراد توطيد أواصر الصداقة، لنقل وضع لبنة لعلاقة حب محتملة، قصة الكاتب المغمور المتواري عن الأنظار استهوت الفتاة فاقترحت البحث عنه، هو لم يمانع، بالأحرى رحب، فرصة لا تعوض للاقتراب أكثر منها، تقمصا دور المحققين وانطلقا في رحلة البحث.

رؤيتي تركت في نفسه انطباعًا لن ينساه أبدًا، يصر أن أصدقه أنه شعر فور جلوسه في مواجهتي بالدهشة، رأى نفسه فيَّ، بهيج هو أنا بعد أربعين عامًا، هكذا قال، لم يوضح هل ذلك أحزنه أم لا، لكنني متأكد أنه أحس بالبؤس، عدد القواسم المشتركة بيننا فنظرت نحو السقف متجاهلًا، ربما لاحظ انعقاد حاجبي فعقَّب: لست سيئًا إلى هذه الدرجة، عمري ما كنت متملقًا، لا أنكر أنني أردت تحقيق بعض المكاسب، لكن بشرط ألا يسبب ذلك أي أذى لك، يصمت فأقول بفظاظة: هل أنهيت حديثك؟ أنهض، أتحرك نحو الباب إيذانًا بانتهاء اللقاء، يبتسم ثم يقول بود: لن أغادر الآن، استمع إلي، ربما تكون جلستنا الأخيرة، أطلق زفرة، أمط شفتي وأقف قبالة باب الغرفة، ينهض ويتحرك تجاهي، يقترب ويمسك بيدي، يصر أن نجلس معًا على الأريكة، يربت على كتفي قائلًا: الود وحده هو سبب زياراتي المتكررة لمنزلك، ربما رأيتك يوما صورة لأب، لعائلة، أضحك، أقول باستهزاء: واضح جدا، أفعالك تدل على ذلك، يقاطعني: أقسم لك لم يدر ببالي أي أفكار من شأنها استغلالك، أتوقع ما أخبرَتك به منصورة، أعرفها جيدًا وأدرك طريقة تفكيرها، أرد بحدة: ولماذا أصدقك وأكذبها. يرد

بخجل: لم أرد قول ذلك لكنك اضطررتني، من أنت لأستغلك؟ ما هي المكاسب التي قد أحققها من ورائك؟ أرد بتلعثم: ولاء، دار النشر، أصدقاؤك المغفلين والمتاجرة بأحلاهم، يضحك: ظننتك أذكي من ذلك بكثير، اهبط إلى أرض الواقع يا أستاذ، المثقفون بؤساء، لا أحد يقرأ أو يهتم بالكتب، نحن مجرد دوائر متناهية الصغر أعدادها بالمئات، أقصى طموحاتنا نشر كتاب يقرؤه العشرات أو كتابة مقالة في صحيفة مغمورة بلا قراء، أحتد عليه: طالما الأمر هكذا فلمَ فعلت ذلك؟ يرد: أردت أن تتذوق طعم التورتة لمرة واحدة في حياتك، لا أفهم، يظهر ذلك على تعابير وجهي فيوضح: أحببتك، هذه حقيقة لا أستطيع إنكارها، غضبت بعض الشيء عندما استمالتك منصورة، أمر عادي، هذه الشابة تربح كل شيء بأقل مجهود، مثل كل مرة تتوهج هي وأتحول أنا إلى ظل، ساعتها قلت لنفسي: حتى أنت يا بهيج، زعقت فيه: لا أفهمك، ابتسم قائلًا: أول ما عرفتها ظننتها ساذجة، بلهاء وحلوة ووحيدة، بالتأكيد سوف تغرم بي، بعد فترة اكتشفت خيبتي، لا أحد يستطيع استغلالها، هي من تستغل الجميع، أشهر مرت ثم أدركت الحقيقة، أنا مجرد سلَّم، لا، أنا مجرد درجة واحدة منه، بمجرد أن تصعدها سوف ترفسها بقدميها لترتكز على أخرى، لم تفكر فيَّ قط كحبيب، أخذت ما تريده ثم قذفت بي إلى قاع صندوق عميق مليء بالأصدقاء غير المهمين، أسأله: هل خدعتك؟ أخبرتك مثلًا أنها تحبك، يضحك: لا، مظهرها الساذج يجعلك تظن أنها سوف تظل متعلقة بك إلى الأبد، بعدها تدرك الحقيقة وتعرف أنك أبله.

صورتنا الأولى هي سبب كل ما حدث لاحقًا، أمر عفوي يقسم أنه لم يخطط له، قابلني بعد رحلة بحث شاقة فأراد تخليد تلك اللحظة، أخرج هاتفه والتقطها، نشرها على موقع الفيس بوك بنفس اللحظة، عندما عاد إلى منزله ابتسم وهو يرى التعليقات.

بهيج الذي لا يعرفه أحد قد يصبح مشهورًا بآخر سنوات عمره، مائتا إعجاب وثمانون تعليقًا على الصورة، عشرات الكتاب يتفاعلون، بعضهم لم يكتف بذلك وإنما أرسل له رسائل يطلب منه فيها مقابلة «الأستاذ»، يضحك قائلًا: مجتمع المثقفين عجيب، لم أستطع حتى الآن فهم دوافعهم وطريقة تفكيرهم، أرفع حاجبي وأمط شفتي فيسألني: هل يعرفونك؟ هل فكر أحدهم في قراءة أحد مؤلفاتك؟ يكمل: طالما أنك كاتب عجوز فالكل يحتفي، يهتم ويكتب ويعلق، يتمنى لقاءك ويهرع إلى التقاط الصور التذكارية معك.

يومها لمعت الفكرة بعقله: لنجعل بهيج يتذوق قطعة من التورتة، يجلس على المقاهي وسط المريدين ويحضر الندوات كضيف شرف، يجري بعض الحوارات الصحفية ويستمتع بنظرات إعجاب المراهقين والمدعين والفاشلين، قد يحظى بتكريم أو يحصد إحدى الجوائز، أقاطعه بنفاد صبر: أنت ملاك، يرد: بالفعل ملاك، كنت وحيدًا، تجلس منتظرًا الموت ليخلصك من ملل حياتك ورتابتها، أصبحت منشغلًا بسببي، جعلتك محطًا للأنظار لأول مرة بحياتك، أزعق: وقبضت الثمن، يبتسم قائلًا: ليس لنا ثمن، نحن بؤساء، أصرخ فيه: كان هناك ثمن لكنني أفسدت اللعبة،

يرد بهدوء: وهل إفسادها بطولة؟ أصرخ: كنت تستغلني، يرد: صنعت لك ثقبًا لتمر وأنت أفسدت كل شيء وأضعت فرصتك الأخيرة، أضحك بهسترية: لا بل فرصتك أنت، يرد: أنت طيب للغاية، كل شيء كما هو، أزعق: لا تمثل عدم الغضب، أنا أعرف كل شيء، السنباطي حل محلي وولاء استغنت عنك، يقهقه: لو غاب بهيج هناك عشرون بهيج، ولو استغنت ولاء ستظهر ولاء أخرى، كل ما أردته هو إسعادك، يصمت للحظات ثم يقول: ثم إنها لم تستغنِ عني، انسحبتُ مؤقتًا، اختفيت من الصورة لكنني موجود، دورِي كما هو لم يتغير، السنباطي في الواجهة وأنا من خلفه المسئول عن كل شيء، أنفعل قائلًا: تعاملونني كساذج، لماذا كل هذا القرف؟ لمَ عرضتني لكل ذلك؟ يرد: الدور يليق بك، أنت إنسان نبيل بعكس السنباطي، كان من المفترض أن تحل محله، أقاطعه: أحل محله في ماذا؟ في النصب على الناس؟ يرد: لا، في أن تكون عرابا للشباب، عما للجميع، تلبس الباريه وتجلس في المقهى وسط المريدين، تتذوق الشهرة ولو لبعض الوقت، أزعق فيه: شهرة؟ أنا طوال عمري مغمور، السنباطي مثلي أيضا، لم يسمع أحد باسمينا من قبل، يتحدث بروية، يرد: كلامك صحيح، أنت تتحدث عن الماضي لكن الآن الأمر مختلف، أنها إرادة الله يا أستاذ، أقاطعه: أي إرادة؟ يكمل: أن تظلا أحياء وبكامل صحتكما، الجميع يحن إلى الماضي وأنتما مندوباه الآن، أزدرد ريقي وأرد: مندوبا عزرائيل، يضحك، يتابع حديثة: الزمن الجميل، الكلاسيكيات، النوستالجيا، قطعة الأنتيكة التي يقدرها الناس ويحرصون على رؤيتها من حين إلى آخر، مكاسب بلا مقابل، كل

ما يلزمك هو الجلوس وسط الشباب على المقهى، أي كلام سينطق به فمك سيعتبرونه حكمة، صمتك سيكون وقارا، آراءك حتى لو كانت ساذجة سيسمعونها بإجلال، السنباطي ذكي، عرف كيف يستغل ذلك جيدا على الرغم من قدراته المتواضعة، صار مهما وفاعلا في الوسط الثقافي، محررا للعديد من دور النشر ومحكما في كثير من الجوائز، عضوا بعشرات اللجان، وكاتب مقال في خمس مطبوعات، طاووس يجلس منتشيا وسط المريدين وطوال الوقت يلقي بالأكاذيب عن الماضي، لا أحد يستطيع معارضته، تكذيبه مستحيل، فالجميع قد مات عاداه.

أنظر نحوه بامتعاض، أقول بجفاء: تكرهه فتريد إزاحته من خلالي، لا تهتم إلا بمصالحك الشخصية، يرد: وما المانع ما دامت المصالح متبادلة، لا أجد ردا فأصمت، أنظر إلى النافذة عله يفهم أنني أريد رحيله، لا ينهض من مكانه، يتصفح أحد الكتب الموجودة على الطاولة بيد وبالأخرى يكتب رسالة على هاتفه، أتنحنح فلا ينظر إلي، أقول: لدي موعد بعد قليل، للأسف لم يسمع كلماتي فقد ضاعت وسط صوت الطرق العنيف على باب الشقة، هرولت مسرعا فتبعني، نظرت عبر العين السحرية فرأيت سيف، فتحت الباب فباغتني الشاب بالخبر الصادم: منصورة في المستشفى، حادثة مروعة، قرب بيتك، كانت آتية لزيارتك، كدمات متفرقة وكسر بإحدى أضلع الصدر،شريحة وثلاثة مسامير بالرسغ، أول ما خرجت من غرفة العمليات طلبت رؤيتك، أنهى حديثه وانسحب فتبعناه، ركضت درجات

السلم كما المجنون، استقللنا سيارته وانطلقنا إلى المستشفى، لا أعرف كم استغرقنا من وقت حتى الوصول، لم أعِ إلا وأنا أقف قبالتها وأبكي كما الأطفال، همست: مرحبا يا عم بَهيج، فجلست إلى جوارها واحتضنتها لدقائق، علا نشيجي وأنا أقول: حذرتك قبلا، القيادة بتهور تأتي بنتائج كارثية، حاولت رسم ابتسامة على وجهها وقالت: عمر الشقي بقي.

من الواضح أن سيف قد شعر بالراحة لحضورنا، جلس بأريحية وأمضى دقائق في سرد ملابسات الحادث، هو من بادر بالاتصال، مكالمة استمرت بضع ثوان، أبلغته فيها أنها ذاهبة لزيارتي، بعدها حدث الاصطدام، تجمع المارة وأخرجوها بصعوبة من السيارة، أمسكوا بهاتفها واتصلوا بآخر رقم ظاهر على شاشته، أخبروه بما جرى، قالوا: العربة تهشمت تماما، لكن الحمد لله الآنسة بخير، تساءلت: بخير؟ فضحكت منصورة بصعوبة، سعلت وتألمت بفعل ذلك، رد سيف: نعم، إنها بخير، نجت من الموت، لو رأيت السيارة لحمدت الله أنها ما زالت بيننا، ربت على كتفيها، عانقتها، سألتها مازحا: هل يعد لك العم بهيج قهوة كلاسيكية ماسخة المذاق؟ ابتسمت قائلة: يا ريت، دماغي تؤلمني وفي أشد الاحتياج إلى فنجان من القهوة بنكهة الستينيات المميزة، من الواضح أن سيف لم يفهم الدعابة، قال: ممنوع القهوة، الممرضة أوصت بالينسون. أضحك وأحتضنها، أهمس بأذنها: تعافِ سريعا، بيت ورد في أمس الحاجة إلى مديرته فقد اقترب يوم الافتتاح، تضع رأسها على صدري وتنطلق بلا مقدمات في موجة بكاء أدمت قلبي.

الحياة صعبة، غريبة ومليئة بالتقلبات، مهما ادعينا فهمنا لها تفاجئنا، كلما حسبت أنك قد اقتربت تدفعك إلى الخلف، وأنت على وشك الوصول تلطمك بلا سابق إنذار، تشبه تماما لعبة السلم والثعبان، تجتهد لتجتاز العقبة تلو الأخرى، تقاتل بأقصى قوتك لتصل إلى هدفك، تلوح لك القمة قريبة فتبتهج، تخطو خطوتك الأخيرة بثقة فيظهر أمامك ثعبان ليعترضك، يتضخم الثعبان فتظلم الدنيا، يتحول إلى مسخ، تتبين ملامحه فيقشعر بدنك، يحجب الضوء والهواء عنك، قبل أن تفكر في طريقة لتجاوزه يدفعك إلى الأسفل، تسقط، تحاول التشبث بأي شيء كي تحافظ على توازنك، تفشل في ذلك، تصل بسرعة البرق إلى نقطة الصفر، تحاول تحديد مكانك، تلتفت إلى اليمين واليسار فتتحسر، تلعن الدنيا وتحاول النهوض، لو لم تكن قويًا بما يكفي ستستسلم لا محالة، قد تستجمع شجاعتك، تجرب بفتور المحاولة من جديد، بأمل منقوص تفعل ذلك، مع أول عثرة ستذرف الدموع، ستقر بهزيمتك وتنسحب طوعا من هذه اللعبة غير العادلة، هذا ما حدث لمنصورة تماما

كان أسبوعا للآلام بامتياز، بدأ بتركها لعملها الذي تحبه، لدى إحدى منظمات المجتمع المدني، بعد مرور أشهر قليلة من العمل هناك تم طردها بلا أسباب مقنعة، تؤكد أنها تلقت سيلا من الإشادات من مدير المركز، احتفت واحدة من أكبر المنظمات الأمريكية المعنية بحقوق الإنسان بتقرير من إعدادها، حضرت لأكثر من مرة جلسات مع ممثلي الاتحاد الأوربي، وظنت أن

المستقبل سوف يكون مزدهرا، مرت الأيام ثم استدعاها المسئول المالي لاجتماع، أكد على أن الجهات المانحة قد تأخرت في تقديم الدعم المالي، وهناك تسريبات بشأن إلغائه أو بأفضل الأحوال تقليصه، أكمل: سيتم خفض المرتبات ضمن سياسة تقشفية سينفذها المركز مضطرا، لم تفهم فأوضح لها: مرتبك سيقل إلى النصف، ردت: لا مشكلة، فعقد الرجل حاجبيه، من الواضح أنه دهش من ردة فعلها، صمت للحظات ثم تقمص دور الأب، قال: غادري يا ابنتي، هناك أماكن أفضل، ستقدر مهاراتك وستمنحك راتبا ضخما تستحقينه.

تضحك وهي تنظر نحوي قائلة: من الواضح أنها كانت محاولة لطردي بالذوق، لكنني غبية، بعد أسبوع دعاها مدير المركز لاجتماع عاجل، قابلها بابتسامة وضغط على أناملها وهو يشكرها على تفانيها في العمل طوال الفترة السابقة، مثل الحزن ثم قال: للأسف مضطر إلى إنهاء عملك معنا، تساءلت عن السبب فتملص من الإجابة، بالنهاية ألمح أنها أوامر من جهات سيادية عليا وليس بقادر على الامتناع عن تنفيذها، لم تصدق، تعرف أنه يكذب، تقول لي بسخرية: كل العاملين بالحقل الحقوقي من كبار رجال المعارضة، ينتقدون الحكومة ليل نهار عبر القنوات الفضائية والجرائد، أسألها: إذن فما السبب الحقيقي؟ ترد: إحدى زميلاتي همست بأذني قبل أن أغادر قائلة: هذه هي ضريبة النجاح، اسمك بات يتردد كثيرا داخل أروقة الجهات المانحة، والكل يخاف على كرسيه، أمط شفتي وأشوح بيدي في الهواء، أمثل الحماس قائلا:

يكفيك بيت ورد، أكمل ضاحكا: والهتاف في المظاهرات، تتنهد قائلة: ودعتهما مرغمة.

في البدء أحبها الجميع، شابة فاتنة وممتلئة بالحماس، قطعة البنبون، هكذا كان يطلق عليها أحد قيادات حركة كفاية المعارضة، الكل أثني على مواظبتها حضور الاجتماعات والاشتراك بكافة التظاهرات التي ينظمونها، شهرا تلو الآخر وأصبحت وجها مألوفا للجميع، تعرضت للتحرش فارتفعت أسهمها، لمح أحد القيادات بأنها سوف تكون ركيزة للجنة الشباب المزمع تدشينها، سعدت لذلك وطردت من رأسها الأفكار والتساؤلات التي لم تجد لها إجابة، منذ فترة تتحفظ على طريقة اتخاذ القرارات في الحركة، عبرت عن ذلك أثناء الحديث مع بعض زملائها، قالت ساعتها بوضوح: نهتف ضد الديكتاتورية ولدينا أكثر من ديكتاتور، الأمر والنهي بيد المعارضين الأكثر شهرة، لم تقتنع بالردود الفضفاضة مثل: هم من يتخذون القرارات لأنهم وحدهم يتحملون العواقب، رأت بعدم جدوى تلك المناقشات فصمتت، واستمرت في فعل الشيء الذي تحبه دون التفكير في الأشخاص والمواقف، بالمظاهرة الأخيرة طلب منها أحد مراسلي القنوات الفضائية المشاركة في برنامج يعده، مناظرة تجمع مناصري النظام من الشباب ومعارضيه، اثنان من ممثلي الحزب الوطني وواحد من أعضاء جمعية المستقبل التابعة لجمال مبارك وهي، ردت عليه باستغراب: مناظرة، كيف؟ ثلاثة ضد واحد؟ أجابها: هذه هي الأوامر.

تؤكد أنها أفحمتهم، أكتم ضحكتي وأرد: برافو، رغم التضييق

والدقائق القليلة التي منحت لها أدت جيدا، هذا بالطبع من وجهة نظرها، غادرت الأستوديو وهي بغاية السعادة، قبل أن تصل إلى منزلها بقليل رن هاتفها، رأت على شاشته اسم قيادي بالحركة، هذا الذي يلقبها بقطعة البنبون، ردت وهي تنتظر سماع كلمات الثناء ففاجأها لهجته الخشنة، دعاها إلى الحضور في التو لمقابلته، وصلت فوجدته بانتظارها وبصحبته ثلاثة أعضاء آخرين، أحدهم افتتح الحديث بقوله: لا يجوز المشاركة في برنامج تلفزيوني أو الإدلاء بأي حديث صحفي؛ دون الحصول على إذن مسبق بذلك، أعقب أخر: لكل منظمة هيكل تنظيمي لا يمكن تخطيه، ردت منفعلة: وهل إبداء الرأي يحتاج إلى إذن؟ قاطعها الثالث بنفور: قيمتك يا آنسة تنحصر في كونك عضوه بالحركة، لم يستضيفوك لذاتك، لا تكررين ذلك ثانيًا.

«النظام يكرهني وكذلك المعارضة يا عم بهيج»، هكذا قالت ممثلة المرح؛ بعدما أخبرتني بتقديمها لاستقالتها من عضوية الحركة. أسألها: ولماذا العجلة؟ لا يستدعي الأمر كل هذا الغضب، ترد: ربما اعتقدت أنهم سوف يرفضونها، سيحاول أحد الأصدقاء إقناعي بالعدول عنها، من الواضح أن الجميع قد ارتاح لمغادرتي.

للأسف المصائب لا تأتي فرادى، بنهاية الأسبوع حدثت الكارثة الأخيرة، تحديدا اليوم، قبل حادث السيارة بساعة تقريبا، هبوط منصورة الاضطراري بفعل الظهور المفاجئ للثعبان لم يحطمها، قبل أن تهوي إلى القاع تشبثت ببيت ورد، تمسكت بالأمل الأخير عله ينقذها، للأسف ملاذها الأخير تحول إلى مأساة قادرة على القضاء عليها.

دون عن كل المخالفات الإداريـة التي تعج بها مصر؛ التفت المسئولون إلى حلمها، وقرروا تدميره، حضر رجال الحي الشرفاء إلى بيت ورد، زيارة مفاجئة وخاطفة وصادمة، انتهت بغلق المكان نهائيا، وأخذ الشابة إلى قسم الشرطة لتحرير محضر بالواقعة، لم تفهم جيدا الأسباب التي دعتهم إلى فعل ذلك، حديثهم كان مقتضبا: المكان ترخيصه سكني وليس تجاري، هذه شقة للعيش فيها وغير مصرح بتحويلها إلى كافيه، أحدهم تقدم بأكثر من شكوى ضدك، بالمعاينة اليوم ثبت صدق شكايته، سيتم الإغلاق والحجز على الأثاث، اتصلت بالأصدقاء فتملصوا تباعا، من الواضح أنهم كانوا على علم بالأمر أو هم من خططوا لفعله.

الشابة لم تتحمل كل تلك الصدمات فانهارت، بكت وانتحبت ثم اتصلت بي، بالطبع لم أجب، هاتفي مغلق منذ أيام، يا الله، لو كان مفتوحا لربما استطعت التهدئة من روعها بعض الشيء، على الأقل كنت سأذهب إليها بدلا من حضورها إلي، إنه القدر ولا أحد قادر على الفرار منه، لم أرد فاستقلت سيارتها، امتلأت عيناها بالدموع فلم تر الطريق، ربما ظهر أمامها فجأة الثعبان، حاولت ركله وعندما فشلت في هزيمته أغمضت عينيها، كوسيلة بائسة للهروب.

قبل أن أغادر همس سيف بأذني: والدها سيحضر غدا، هناك فاعل خير أبلغه، أرفع حاجبي فيكمل: أولاد الحلال أخبروه أن الشرطة أغلقت بيت ورد، وقد تسحب ملكية الشقة لاستغلالها بطريقة تخالف القانون وعقد الحيازة.

أصر هادي على مرافقتي فلم أمانع، خفت أن تخونني قدماي

وأعجز عن السير بلحظة،، استقللنا تاكسي وأول ما تحرك بدأ الشاب في الحديث، لم أعقب، ظللت صامتا لحين الوصول. صعدت درجات السلم ببطيء، فتحت الباب ثم ارتميت على أقرب كرسي، أمسكت رأسي بكلتا يدي محاولا طرد الألم الذي يجتاحها، كلماته تتردد بعقلي، لا أستطيع محوها: يحبك الناس ما دمت بعيدا عن مصالحهم، أول ما تقترب سيعتبرونك عدوا، الكل يميل إلى الفتاة الساذجة، الفاتنة ذات الأفكار الطفولية، في اللقاء الأول يبتسمون، يفسحون لها الطريق، بعدها يسعى كل منهم إلى ضمها لفريقه، الشابة المرحة ستودع طفولتها مع الوقت، سيلاحظون بعد فوات الأوان أنها ذكية وطموحة، سيتوجسون، ستتغير نظرتهم نحوها، ستتحول من صديق هامشي لطيف إلى عدو مباشر، قد تحقق بعضا من نجاح، بالتأكيد ستفرح، ستظن أن الطريق سهل، مفروش بالورود ويتسع للجميع، لن تدرك بالوقت المناسب أن التورتة لا تحتمل القسمة، الكل متشبث بموقعه ولا مكان لفرد جديد، سيشهرون سكاكينهم علانية، ستتغير نبرتهم، ستلاحظ متأخرا ذلك، ربما تتجاهل الأمر، تدفعها الثقة إلى المواصلة والاستهانة بالأعداء، سيتحد الجميع ليشكل حائطا يمنعها من المرور، سينجحون لا محالة في إيقافها، فكل مفاتيح اللعبة بأيديهم، سيلفظونها، سيطردونها شر طردة ويشهرون بها، حتى لا يتجرأ أحد على تكرار فعلتها، هذا هو قانون شلة وسط البلد يا عم بهيج.

(23)

حياة

صادفني اليوم على شبكة الانترنت حديث صحفي مع كاتبة نيجيرية، اسمها تشيماماندا أديتشي، يقول المترجم في مقدمته إنها قد أصدرت روايتين حققتا رواجًا كبيرًا في الولايات المتحدة الأمريكية، حب الاستطلاع بالإضافة إلى الوحدة هما ما دفعاني إلى قراءة الحوار كاملًا، إحدى الجمل في المتن جعلتني متوترًا طيلة النهار، قالت الروائية في معرض إجابتها عن أحد الأسئلة: التاريخ يخبرك ماذا حدث، لكن الرواية الجيدة تخبرك كيف شعر الناس بما حدث.

لا أعرف يقينًا يا حبيبتي هل فشلت في كتابة روايتي، ربما أرهقت نفسي بلا طائل في كتابة سيرة حياة فريد حداد، بعد انتهائي من قراءة الحوار شرعت على الفور في تفحص مسودة عملي، قبل حلول الليل بقليل صارحت نفسي بالحقيقة، إخفاق تام، ليست رواية جيدة بالمرة، حسب تعريف تشيما ماندا فإنها تفتقر إلى الكثير، لم أكتب إلا التاريخ، مجرد أحداث متعاقبة، سرد تقريري فقير أدبيًا، لا يليق بالمرة برواية تخلد سيرة طبيب الفقراء، للأسف لم أفعل شيئًا غير إخبار القارئ بما حدث، لا كيف شعر الناس بوطأته، سأحاول العمل على إعادة تحريرها، وإن ظلت على حالها سأرمي بها إلى قاع درج مكتبي.

أظن أن مقدمتي مملة بعض الشيء، تشبه كثيرًا رسائلي الأولى لك، للأسف لقد عدت كما السابق تمامًا، فظًا ووحيدًا، وينحصر انشغالي اليومي في كيفية تمرير الوقت حتى يجيء الليل وأنام، ودعت الإثـارة مؤخرا، انصرف الشباب عني تباعًا بفعل الظروف، لن أنكر أنني قد استمتعت لبعض الوقت، للوحدة مميزات أقدرها، ثم أنني قضيت جل حياتي بهذا الوضع، فلا مانع من العودة إليه مرة أخرى.

عاد والد منصورة، لم يتفاقم الأمر كما توقعت، مر بسلام، هكذا أخبرتني الشابة في اليوم التالي من خروجها من المستشفى، أغدق أبيها العطاء لرجال الحي الشرفاء، بضع رشاوي سخية هنا وهناك ثم حل الموضوع، رغم ذلك أغلق بيت ورد نَهائيا وعرض الشقة للبيع، لحسن الحظ قدر حالة ابنته الصحية ولم يضغط عليها، لا مشادات أو مناوشات، فقط بضع نظرات غاضبة وحديث مبطن، لم تطل الزيارة، لم يتحمل الرجل الذي أمضى نصف عمره في الصحراء ضجيج القاهرة وعشوائيتها المفرطة، لم يستطع قضاء أكثر من أربعة أيام بها ثم استقل طائرته وغادر، لم يرحل وحده، لست متأكدا هل أجبرها على مرافقته أم أنها قد وافقت طوعا، اتصلت بي من المطار لتودعني، قالت بمرح: أخيرا سترتاح من قهوتي يا عم بهيج، رددت: بالعكس سأفتقدكما، لا أعرف لماذا تهدج صوتي، لاحظت تقطع كلماتي فحاولت قدر المستطاع التخفيف من حدة الخبر، أكدت أنها مجرد أجازة لالتقاط الأنفاس، شهر أو شهرين على أقصى تقدير ثم تعود ثانية، أعتقد

أنها كذبة بيضاء حتى لا تثقل على عجوز مثلي الهموم، مثلت الاقتناع، أنهيت المكالمة بجملة حاولت أن أضفي عليها بعضا من مرح زائف، قلت: سأنتظرك، لم تف حتى الآن وعدك لي بجولة لن أنساها في شوارع القاهرة، أغلقت الهاتف وانفلتت من عيني دمعة لم أنجح في منعها من الانسياب.

هادي ابتعد هو الآخر، بعد جلستنا العاصفة بأيام قليلة عاد لزيارتي، بالأحرى جاء ليودعني، ابتسم له الحظ أخيرا، هكذا قال، حصل على وظيفة محترمة ، عين مهندسا في إحدى الشركات الدولية العاملة بمصر، مقرها في محافظة البحر الأحمر، عمل مرهق وبعد عن القاهرة التي يحبها، لكن الأجر مجز للغاية، أعقب بابتسامة: للنقود مفعول السحر، يرد ضاحكا: ذلك أفضل من الهجرة إلى بلاد النفط، أظن أن أغلب جيلك يا أستاذ قد فعل ذلك، أرسم تقطيبه مزيفة على جبيني، أقول: تأدب يا ولد ولا تنطق بكلمة سوء عن الزمن الجميل، نضحك معًا، أتساءل: إذن فلا مشاريع ثقافية، يرد لا مشكلة من تأجيلها لفترة، ربما العزلة والبعد عن مقاه وسط البلد لفترة تكون دافعا للكتابة، أمازحه: البعد عن السنباطي وولاء ومن على شاكلتهما نعمة يجب أن تقدرها، يرد بهذر: وسط البلد كما النداهة، لن أستطيع البعد عنها أبدا، أنا جزء من مجتمع الشياطين الذي لا تحبه. أودعه فيعانقني، قبل مغادرته يخرج هاتفه ويلتقط صوره تجمعنا معًا، يقول: الفيس بوك يشتاق إلى الكاتب الكبير، فألكزه في صدره، يردف بصدق: سأشتاق كثيرا لجلساتنا وبالتأكيد سأثقل عليك كل أجازة بزيارة.

أغلق بابي وأعود وحيدا كما الماضي، لم أعتد بعد على الحياة الخالية من الأحداث، بسبب ذلك صرت ملولا للغاية،، كرهت التلفزيون واللابتوب ومواقع الإنترنت ذات الخط الدقيق والألوان الباهتة، بت كما السابق أقضي أغلب وقتي في استعادة تفاصيل علاقتنا، لا أمل التفكير في الأحداث، عليَّ أن أصل إلى الأسباب التي أدت إلى رحيلك، اسمحي لي أن أخصص جزءًا من دفترك ذات الغلاف المموج لحكايتنا، قصة العجوز الفظ والمرأة ذات العكاز التي قلبت حياته رأسًا على عقب، تبدأ الحكاية بحضور امرأة تستند على عصا إلى عمارتنا، اسمها حياة، شعرها قصير وبأعلى حاجبها الأيسر «حسنة»، أتمت الستين عامًا منذ أشهر وتعتقد أن العمر مجرد رقم، يستمع العجوز إلى دقات عصاها على سقف غرفته فيتوجس شرًا، الملل هو ما دفعه إلى الصعود، يقابلها فيقع في الحب، ربما للمرة الأولى بحياته.

ليس حبًا بالمعنى المعروف، سأصنفه تعاطفًا، الفظ رقَّ قلبه، وحيدة وبقدمها عرج ظاهر، أعرف أنك ستضحكين، قد تباغتيني بسبة، ليس عرجًا، فهمت ذلك في لقائنا الثاني، عملية في غضروف الركبة تستدعي الاتكاء على عصا لفترة، شهران مرا ثم صرت تهرولين كما الشباب، مرت علاقتنا بمراحل عدة، توجس، حذر، حميمية، صداقة ثم حب، على الأقل من طرفي أنا، أقول ذلك فقط لأرضي غرورك، متأكد من أنك تكنين لي المشاعر، أحاديثك الطويلة، تدخلك في أدق تفاصيل حياتي، بوحك لي بكثير من الأسرار، متأكد من أنك سوف تقاطعينني، ستقولين: لست معقدة مثلك يا

بهيج، حياتي كتاب مفتوح للجميع، ولا أمتلك أسرارًا لأخفيها.

أعتقد أنني بعدما وقعت بحبك خفت، لم أستطع لفترة مصارحتك بالأمر بسبب الصورة، ذلك البرواز الصغير المثبت أعلى طاولة الطعام جعلني مترددًا، أنت وزوجك الراحل وخلفكما البحر، قلت لنفسي: قد لا يكون بقلبها متسعًا لك، ربما أغلقته إلى الأبد، لا تتخيلين حجم سعادتي يوم أخبرتِني بقصة زواجك، هبطت يومها إلى شقتي ركضًا، وأول ما أغلقت بابي صفقت وتنططت كما الأطفال.

«لم يكن حبًا، لا يشبه على الإطلاق الروايات الرومانسية، كل ما في الأمر أنه «إنسان طيب، طموح وذو خلق، أعجب به والدي، كنت صغيرة، ودعت المراهقة توًا، لم أفكر مطلقًا، فطالما الرجل مناسب فلا مجال للرفض، هذا هو عرف عائلتي، زواج تقليدي، عقد قران ثم رحلة قصيرة إلى الإسكندرية، لم يتح لي الوقت لأتعرف عليه، عدت بعدها إلى بيت أمي وسافر هو إلى عمله، حمل أعقبه ولادة متعثرة ثم الكثير من الميلودراما التي لا تحبها. مات، بلا مقدمات حدث ذلك. مدرس قرر العمل بالخليج ليؤمن مستقبله فشاء القدر أن يحرمه منه، لا مستقبل لكلينا، هو غادر إلى دار الحق وأنا اكتفيت بابنتي، ولم أرد تكرار التجربة ثانية». هكذا قالت، فلم أعقب، أخفيت ابتسامتي بصعوبة وغيرت الموضوع، لم أطرح الأسئلة كما هي عادتي، لم أفكر حتى في معرفة سر عدم زواجك مرة أخرى، وكيف كان موقف عائلتك من ذلك، كل ما دار بعقلي ساعتها هو الارتياح لزوال العائق.

طوال فترة تقاربنا لم أبالِ مطلقًا بتعليقاتك، الحب يجعل المرء متقبلًا للنقد، صراحتك كانت جارحة بعض الشيء، أسهبتِ في إيضاح مواطن ضعفي، عددتِ خيباتي، الجبن، الخوف، الهروب إلى الظل، في اليوم الذي قررت في أن أكون شجاعًا لأجلك تركتيني. مضطرًا إلى إعادة وصف المشهد الذي أكره، سأدونه بحيادية تامة، علك تقرئينه في يوم وتدركين فداحة فعلتك.

أخيرا ودعتِ العصا، تحسنت صحتك وبدأنا بالخروج معًا، جلنا في أرجاء المدينة الجديدة، لن أنكر أن صحبتك كانت رائعة، تناولنا الطعام واشترينا الهدايا لحياة الصغيرة، ذهبنا معًا إلى المول والحديقة والسوبر ماركت، تناولنا العشاء في المطعم الصيني لمرات، تحولت العلاقة من ارتياح وصداقة إلى حب، اقتربت وابتعدت لأكثر من مرة وبالأخير اتخذت قراري، قلت لنفسي: لا أستطيع العيش دون حياة، استغرقت الكثير من الوقت لإعداد الخطة، حسبت نفسي دونجوان وصارحتك بحبي، للأسف تملصتِ، قطبت جبينك ولم تنطقي بكلمة، هربتِ كما المراهقين، هجرتيني بلا وداع، أرى أن ما آلت إليه علاقتنا سببه ثلاثة مواقف، لن أدافع عن نفسي، لن أرويها من وجهة نظري، سأدون فقط ما حدث.

أتذكر جيدًا أول مرة قلتِ لي صراحة: أنت جبان، حدث ذلك بعد غيبتك الأولى، يومها مررت إلى شقتك وأشعلت سيجارة، استغربتِ فعلتي وتساءلتِ: لماذا؟ أنت ترتعب من الموت، تخشى المرض وتطمح إلى صحة دائمة، رددت مكررًا جملتك: لا مشكلة، صرت لا أخاف الموت، فعندما يأتي سأكون قد غادرت،

ضحكتِ، قهقهتِ، انتابك نوبة سعال، وجدتها فرصة لترتيب كلماتي، كنت أنوي قول الحقيقة، قررت أن أهمس بأذنك: أحبك، وضعت صحتي بكفة وحبي لك بالأخرى، فوجدت أن القرب منك أهم من أي شيء آخر، للأسف قبل أن أفتح فمي انطلقتِ كعادتك في الحديث، تساءلتِ: كيف عرفت بعودتي يا عجوز، أجبتك وكان ذلك هو خطأي الأكبر، أخبرتك أنني قد سمعت سعالك فركضت نحو الباب، تابعت صعودك أنت وابنتك وزوجها درجات السلم، حاولت تأمل ملامح حياة الصغيرة لكنني فشلت لعدم وضوح الرؤية عبر العين السحرية، أكملت: مر الوقت ببطء وأنا أنتظر مغادرتهم، عددت الدقائق بصبر حتى انصرفوا أخيرًا، أول ما رأيت سيارتهم تتحرك هرعت إلى لقائك، يومها فوجئت بردك، قلتِ: أنت جبان يا بهيج، خفت وهربت كما عادتك. ما المشكلة يا حبيبتي في أنني انطوائي، ما الفائدة من تعرفي على ابنتك وزوجها، مر الأمر بسلام، لم تطلقي نكاتك الحادة صوبي، وانحصر اهتمامك في إقناعي بعدم محاولة التدخين ثانية.

المرة الثانية كانت يوم حضور أحد أبناء أبناء الأعمام لزيارتي، ساعتها كنا معًا، جالسين بغرفة مكتبي ونتجادل في موضوع تافه، أتذكر أنه كان متعلقًا بمقال صحفي لأحد الكتاب المعارضين، أخذت في الشرح، قلت لك: لا أحد بمناضل، غير مسموح بذلك في مصر، لم أنسَ ابتسامتك الهازئة، قلت: الغليان عواقبه وخيمة، النظام يعرف ذلك جيدا، لذا يصنع ثقوبًا في فوهة القدر للتنفيس

لا أكثر، يستخدم دكاكين المعارضة لتأدية هذا الدور وكل بثمنه، قبل أن أستوضح منك عن سر تلك الابتسامة الصفراء انطلق جرس الباب، أعرف أنني قد جانبني الصواب، تعلمين أنني غير معتاد الزيارات، أعترف؛ كنت كما المغفل، غزا العرق جبهتي عندما مر الشاب إلى الداخل، لا أعرف لماذا تلعثمت وأنا أقدمك إليه، من حقك أن تغضبي وتسرعي بالمغادرة، كلماتي لم تكن موفقة بالمرة لكنك ضخمتِ الأمر، المفاجأة لجمت لساني، لم أجد مبررًا لوجودك بشقتي، قلتِ: المدام جارتي، تسكن بالأعلى وحضرت لمقابلتي بسبب مشكلة مشتركة لأنابيب الصرف الصحي الخاصة بالعقار، قدرت غضبك، عاقبتِني، امتنعت عن لقائي لثلاثة أيام، في اليوم الرابع تركت باقة ورود أمام بابك فرق قلبك، أخيرًا طرقتِ سقف غرفتي بعصاك، أول ما صعدت انطلق الكلام من فمك كالرصاص: كفى جبنًا يا بهيج، قاربت السبعين وما زلت تخشى الناس.

نأتي إلى اليوم المشئوم، أعتقد أنها كانت آخر مرة تنطقين فيها بكلمة جبان، قبل أي شيء هل تتذكرين تحذيراتي؟ كثيرًا ما نصحتك بالحذر، بعدم الركض وكأنك شابة، من الاندفاع بلا داع، يومها كنا ذاهبين إلى خارج المدينة، نزهة تجمعنا يعقبها غداء، لم ترضِ أن نستقل تاكسي وأصررت على نزهة رفقة عامة الشعب، قلتِ ضاحكة: خالط الناس يا عجوز، ربما لم تقم منذ سنوات بمغامرة ركوب الأتوبيس الحكومي، وافقت على مضض، أرهقتِني يومها، سرنا حتى المحطة، هرولنا وسط الزحام واندفعنا مع الصاعدين،

تجربة مريرة اكتملت بسقوطك، السائق غبي والركاب بغاية الهمجية وأنت من قرر، عند هبوطنا انثنى كاحلك، غادرت قبلك بلحظة ثم تحرك السائق الأرعن، قبل ملامسة قدمك للأرض انطلق، سقطِ فأعماني الذهول، التف الناس حولك، كنت كما المغيب لا أعرف كيف أتصرف، خفت، أصابني شلل مفاجئ، أنا بطيء الاستيعاب لكنني لست جبانًا، تحركت خلفك، خجلت من مزاحمة السيدات لأكون قربك، إحداهن وضعت يدك على كتفها وأوصلتك حتى الصيدلية وأخرى أمسكت بحقيبتك، مر الأمر بسلام، الصيدلي أكد أنه مجرد التواء بسيط لا يستدعي أكثر من رباط ضاغط، كنت بالجوار، أول ما غادرنا الصيدلية أوقفت تاكسي ليوصلنا إلى المنزل، صمتي كان مُبررًا. حزين لسقوطك، خائف أن يكون لما حدث تأثير على عملية الغضروف.

لا أفهم لماذا استأتِ مني، أول ما ظهرت العمارة أمرت السائق بالتوقف، لا علاقة لي بسوء ظنك، فعلت ذلك حتى لا أرهقك، فالرصيف أمام المدخل مرتفع نسبيا، خمس أو ست خطوات هو كل مشيناه، أنت بنفسك قد قلت أن الألم محتمل ولا داعي للخوف، رافقتك حتى باب شقتك، قلت بصدق: أنا بالأسفل ولن أنام، لو أردتِ شيئًا دقي بعصاك وسأصعد على الفور، عصبيتك كانت غير مبررة، لم أنم في تلك الليلة، ظللت منتظرا طرقك، عندما حل الصباح ولم أسمع صوت عصاك هرولت إلى الأعلى، كنت قلقًا بالطبع، استقبلتِني بوجه عابس على غير عادتك، لم تبادليني الحديث، أعددت القهوة وعندما قدمتها لك

لم تلقِ بمزحة، ظللت صامتة لدقائق ثم أطلقتِ من فمك وابلًا من الرصاص، دون مقدمات قلتِ بحدة: لم أتصور يومًا أن أقع بمثل هذا الموقف، أنت جبان، تركتني أتألم وحدي بقارعة الطريق، ساعدني الأغراب وأنت تتابع من بعد وكأنك لا تعرفني، حتى عندما دخلنا الصيدلية انسحبت، لم تواسني، جلست صامتًا في التاكسي بجوار السائق، أصررت على الهبوط بعيدًا حتى لا يراك البواب الجالس بالمدخل رفقتي، وددت التعكز عليك، أن أشعر بالأمان جانبك، تباطأت ولم تقترب مني إلا بعد أن ابتعدنا عن مدخل العمارة، تركتني عند باب الشقة ولم تفكر بالدخول، وكأنك روبوت لا بشر، كلماتك تشبه الرسائل النصية: لو أردتِ شيئا دقي بعصاك، لو احتجتِ لشيء اطلبيه دون خجل، هل هذا هو أقصى ما تستطيع تقديمه؟ امسك بيدي، كن بشرا وعانقني، هدئ من روعي، شاهدت بعينيك دموعي وظللت واقفًا كما الأبله، امسحها، ضمني بحضنك، قبّلني، افعل شيئًا ولو لمرة! أنت جبان وسوف تظل هكذا طيلة حياتك.

لم أستطع الرد، أجزم أنني لم أتعرض لمثل هذا الهجوم من قبل، لم أجد أمامي إلا المغادرة، ركضت هابطًا وأول ما مررت إلى شقتي انطلقت في البكاء، لعنت الماضي والحاضر والمستقبل، تمنيت الموت للمرة الأولى بحياتي، بعد أن هدأت فكرت في الأمر، قلت لنفسي: مجرد سوء فهم، وجب التأكيد لها أنني ودعت الجبن إلى غير رجعة، اتصلت بك في اليوم التالي، مررت إلى صلب الموضوع مباشرة، حددت موعدا للقاء خارج المنزل، لم ترفضي، وافقتِ

بشرط ألا نذهب معًا، لم أعارض أو أستفسر، احترمت رغبتك، لماذا؟ لأنني أحبك، اشتريت خاتمًا وباقة وروود، أعددت مفاجأة، جلسة بمطعمك المفضل وعرضا للزواج، سأختصر، لن أعيد رسم المشهد، أكره تذكر المواقف المؤلمة، انتظرت حضورك، جئت مقطبة الجبين، بعد دقائق من الحديث أمسكت بيدك، احتضنت أناملك بكفي، نطق لساني صراحة بكل ما أحمله لك بقلبي، لم أتخيل قط أن تكون ردة فعلك بهذه القسوة، حررتِ أصابعك، جذبتيها بقوة من بين يدي، هببتِ من على الكرسي، جريت كما المراهقات، غادرتِ المطعم واندفعت داخل التاكسي، ناديتك فلم تلتفتي حتى لتري دموعي.

(24)

حياة

يقول فريدريش هيجل: لا يمكن نيل الحرية إلا بتعريض الحياة للخطر، هتف سيف بهذه الجملة فكتمت ضحكتي بصعوبة، الشاب لم يمل بعد ترديد الاقتباسات، ربتُّ على كتفه وتابعت حديثه مستمتعًا بعودة الحميمية ثانية إلى حياتي.

سمعت صوت منصورة عبر الهاتف فاختنقت الكلمات في حلقي، قبل أن أستطيع إخراجها انطلقت في نطق أحرف كنت أنتظر سماعها بفارغ الصبر، قالت: «ع د ت»، هكذا رنت في أذني فانطلقت دموعي، أكملت: لم أنسَ وعدي، جهز نفسك لجولة لن تنساها في شوارع القاهرة، قاطعتها: لا أريد التجول، أحتاج إلى رؤيتك، ردت بهذر: سأحضر حالًا، استعد لتذوق قهوتك الكلاسيكية من يدي.

لم تأت وحدها، ليس سيف فقط من كان رفقتها كما المتوقع، رن جرس الباب ففتحت، وجدت هادي أمامي وهما خلفه، من الواضح أن الشباب قد عقدوا صلحًا، هجروا المناوشات والجدالات العقيمة، عادوا ليتموا ما بدءوه، ندوة العم بهيج ستعقد في موعدها، بيت ورد سيفتح أبوابه ربما للمرة الأخيرة، احتفالًا بعيد ميلاد الفظ العجوز الذي هو أنا.

رحبت بهم بحرارة، قلت بصدق: الحياة دونكم بلا طعم،

عانقتهم وأطلت كما ولاء تمامًا، أصررت على أن نتناول الغداء معًا، اتصلت بمطعم بالجوار وطلبت وليمة تليق بيوم لم الشمل، لم أوجه لهم أي أسئلة، يكفيني قربهم مني حتى لو كان مؤقتًا، هم من انطلقوا في الحديث، يبدو أنني لم أتابع أي أخبار طوال الفترة الماضية، قامت ثورة في تونس، شاب أحرق نفسه احتجاجًا على الأوضاع فخرج الشعب في مظاهرات حاشدة وأطاح بالرئيس، الرجل الذي قضى نصف عمره في دوائر السلطة ارتعب كما الأطفال، استقل طائرته وهرب.

«أخيرًا استجاب القدر وأتى ربيع يشتاق إليه العالم العربي منذ زمن»، هكذا قالت منصورة بحماس فهززت رأسي، نظرت نحوي منتظرة رأيي فاضطررت مرغمًا إلى الحديث، تساءلت: وما الكلفة؟ فرد سيف بحماس، ردد مقولة هيجل، زعق: لا يمكن نيل الحيرة إلا بتعريض الحياة للخطر، قاطعته: خطر أم موت؟ كم عدد الضحايا المتوقعين؟ غيَّر الشاب بوصلته، استبدل بهيجل توماس جيفرسون، هتف بجملة الرئيس الثالث للولايات المتحدة الأمريكية: يجب إنعاش شجرة الحرية من حين إلى آخر، بدماء الوطنيين والطغاة، فهما سمادها الطبيعي. قلت: إذن فأنتم قررتم الموت طواعية.

يضحك هادي فننظر نحوه، يفتح حقيبته ويخرج منها عبوة رقائق بطاطس، يظهرها لنا وهو يقول بمرح: لا تقلق يا أستاذ، تونس اختارت الثورة أما مصر فقد اختارت الجمبري، لا أفهم معني حديثه، قبل أن أستوضح منه تنطلق منصورة مهاجمة إياه،

تقول: أنت محبط، يائس وبائس، أقاطعها، أوجه نظري نحوه ثم أقول: اشرح وجهة نظرك، يتكلم فتتحول الجلسة التي كنت أنتظرها إلى ساحة حرب، يؤكد أن القنوات الإخبارية في وادٍ والشعب في وادٍ، المصريون منشغلون الآن باختيار أفضل طعم لرقائق البطاطس، شركة شيبسي أعلنت أن الآلاف قد صوتوا لاختيار طعم الجمبري كأفضل نكهة جديدة، منصورة تنفجر فيه، تقول بامتعاض: ملعون أبو المثقفين يا أخي، حديثك كله مغالطات، ليس صحيحًا أن الشعب غير مهتم، مقتل خالد سعيد أصاب الجميع بالصدمة، الكل مستاء ويريد القضاء على القمع والترهيب، أتساءل: من خالد سعيد؟ ترد: شاب مات دون ذنب، مثل فريد حداد بالضبط، لم يعجب الضابط بإجاباته فقتله.

يتبادلون النظرات فيما بينهم، يدركون أنهم قد حادوا عن الموضوع الرئيسي للزيارة فيعقدون صلحًا مؤقتًا، يشرح لي هادي الأمر باختصار، يوم ذكرى ميلادي سوف تقام الندوة، احتفاءً بمنجزي الإبداعي ومناقشة حرة حول مجمل أعمالي، منصورة استطاعت بصعوبة إقناع أبيها بضرورة العودة إلى مصر، وافق بعد الكثير من الإلحاح بشرط عدم مشاركتها في أي أنشطة سياسية أو حقوقية، أكد الرجل أن قرار إغلاق بيت ورد لا رجعة فيه، الشابة تمسكت بالممكن ولم تعترض، ستعمل مؤقتًا في أحد مكاتب الترجمة، وجعلت أمها تحاول إقناعه بعدم بيع الشقة، تريد أن يظل بيت ورد موجودًا، صحيح مغلق لكن سيكون هناك أمل في إعادة افتتاحه يومًا، هادي ارتأى أن لا ضرورة لوجود نقاد بالمناقشة،

أكمل: أُفضل أن يكون حوار ودي، مقدمة تعريفية مختصرة ثم لقاء مفتوح تتخلله الإجابة عن أسئلة الحضور، لم أعقب، لم أهتم مطلقًا بالكيفية التي سوف تدار بها الندوة، يكفيني عودتهم، جلوسهم قربي والاستماع إلى سجالاتهم الفارغة، أتى الطعام فجلسنا كأسرة، لست متأكدًا هل كان شهيًا إلى هذه الدرجة أم أن تناوله وسط أناس تحبهم يجعل مذاقه مختلفًا.

للمرة الأولى بحياتي أُلحُ على أحد ليبقى، كلما هموا بالمغادرة أستبقيهم بأي حجة، شربت أربعة فناجين قهوة من يد منصورة، واستمعت إلى الكثير من اقتباسات سيف، وأنصت إلى فلسفة هادي بشأن الشعوب التي تحترم جلاديها، للأسف تأخر الوقت فانصرفوا رغمًا عني، ودعتهم بحرارة وقلت بصدق: أتمنى أن نعود كما الماضي، سأنتظركم، لن تكفيني هذه الزيارة الخاطفة.

ينبض قلبي من جديد، تدب الحياة في روحي، أستلقي على السرير وأغمض عيني منتشيا، أسأل نفسي: هل ستكون النهاية سعيدة؟ أجيب: ولِمَ لا، تمتلئ رأسي بالتساؤلات، هل أنا سعيد حقًا لأمر الندوة؟ هل أحب أن أكون تحت دائرة الضوء؟ أجيب: لا، إذن فما سبب انتشائك بالخبر يا عجوز؟ أبتسم وأرد: الوحدة مميتة، أقطب جبيني وأقول: ربما التقدم في العمر يغير الطباع، أسترجع جملة منصورة: بعد ساعة واحدة من نشر خبر ندوتك يا عم بهيج حظي بمائتي إعجاب وشارك المنشور عشرات الكتاب، خمس عشرة جريدة وموقعًا إليكترونيًا تناقلوه، صورك وسيرتك الذاتية وعناوين مؤلفاتك يملآن الآن الفضاء الاليكتروني.

أفتح عيني وأنهض من على السرير، أقول لنفسي بصرامة: استفق، عمرك ما كنت ساذجًا، لا تضخم الأمر، يدور بعقلي حديثي ذات مرة مع هادي، أستمع إلى صوته في أذني: نحن بائسون، مجرد دوائر متناهية الصغر، أقصى طموحاتنا نشر كتاب ليقرأه العشرات على أقصى تقدير، أغادر غرفة نومي، أتحرك صوب النافذة، أستنشق الهواء بعمق وأنا أتأمل الحديقة، ينقبض قلبي من مظهر الأرضية الكالحة وأوراق الشجر المتساقطة، أغمض عيني فأراها تبعث من جديد، يحل الربيع وتظهر البراعم، تكتسي الأرض بالخضرة وتتفتح الزهور، أقول: خريف، موت يعقبه بعث جديد، إنها دورة الحياة، أقتنع أن خريفي قد قارب على الانتهاء، نهايته ليست الموت وإنما الحياة، ربيعي على وشك البدء، أبتعد عن النافذة، أسير نحو غرفة المكتب، أخرج ملفي الممتلئ بالأوراق المتهرئة، يقع نظري على صورة الشيخ المعمم فألتقطها، أمسك بها وأبتسم، أمزقها ثم أرمي بها إلى سلة المهملات، أقول بثقة: انتهى خريفك يا بهيج، استعد للربيع، أفكر في لقائي المزمع بالقراء، قاربت السبعين ولم أقم يومًا حفلًا لتوقيع أحد كتبي، أسأل نفسي: لماذا لم تفعلها من قبل؟ أنهض، أغادر الغرفة، أمر إلى المطبخ، أعد فنجانًا من القهوة، أذيب البن في الماء وأغمض عيني، تظهر نهى، تتجسد أمامي، تحاول إقناعي، تقول بحدة: ما مشكلتك؟ يجب عقد الندوة، أتهرب من الإجابة فتبتسم، تقول: لا تقلق، أعرف أنك تخشى المقاعد الفارغة، رفقاء النضال سيملؤونها، صوت فوران القهوة يخرجني من حلم يقظتي، أقطب جبيني وأجفف البوتاجاز، أوجه حديثي إلى نهى الغائبة،

أقول: ربما أخاف بالفعل المقاعد الفارغة، قد أكون أخشى المواجهة، ألمح طيفها فأكمل: سأحاول، سأتحلى بالشجاعة هذه المرة، سأجيب عن أسئلة الحضور ولن أهرب، سأتكلم عن فريد حداد، سأعطيهم نبذة عن حياته، ربما تأخذني الحماسة وأشرح لهم بعض المفاهيم عن الأصول السيريانية للغة العربية، سأودع السير جانب الحيط وسأحب وأكره مثل فؤاد حداد.

أرتدي ملابسي وأقرر الانطلاق إلى قلب القاهرة الملعون، الندوة تلزمها بذلة جديدة، للأسف لا أعرف مكانًا آخر غير وسط البلد، راجعت معلوماتي التي عفا عليها الزمن بشأن المحال، رسمت بصعوبة خريطة للوصول إلى شارع قصر النيل، قلدتك يا حياة ونويت استقلال الباص، قلت لنفسي: كفاك عزلة، يجب أن تحتك بالناس، اعتبره تدريبا للندوة، ربما تعتاد قليلًا الجلوس وسط غرباء.

يناير هذا العام مختلف، السماء صافية بلا غيوم، جو صحو وهواء منعش، الباص نظيف على غير العادة وشبه فارغ، لا نتجاوز العشرة ركاب متناثرين في أرجائه، لم يجلس أحد بجانبي، ربما أنا من اخترت مقعدًا فارغًا، مررت الوقت بتأمل الطريق، لا وقت لاسترجاع الذكريات السيئة، ودعت الماضي، انغمست في الحاضر ويمتلئ قلبي بالأمل في مستقبل مشرق.

غادرنا المدينة الجديدة، شاهدت منبهرًا الطرق الرائعة، واسعة وجيدة الرصف، على جانبيها الأشجار، لم ألاحظ ذلك من قبل، ربما كان تشاؤمي هو السبب، الإعلانات تملأ الشوارع، مضيئة

وضخمة، من الواضح أن مصر باتت تكتظ بالنجوم الذين لا أعرفهم مطلقًا، ألمح النصب التذكاري للجندي المجهول فيقشعر بدني، ذكرى موت هؤلاء الأبطال مؤلمة، تدمع عيني فأشيح بوجهي إلى الناحية المقابلة لأهرب من البكاء، أرى المدرج كما هو، يظهر الماضي أمامي وكأن ذلك المشهد قد حدث أمس، السادات في حلته العسكرية المرصعة بالنياشين، حوله ماسحو الجوخ، يبتسم بين الحين والآخر كممثلي السينما، يشير إلى الجنود المستقلين المركبات، تتلوى الطائرات في حركات بهلوانية، ينطلق الرصاص فجأة، يعم الصمت للحظة ثم يسود الهرج المكان، أتابع المشهد بتركيز، يركض رجاله هربًا، يتركونه وحده لمصيره، الرجل الذي يحتفل بانتصاره في زهو يترنح، يهوي على الأرض فينقطع البث التلفزيوني، يتحول لون الشاشة إلى الأسود وتنطلق المارشات العسكرية.

يلكز أحدهم كتفي فأنتفض، ألتفت نحوه فألاحظ انعقاد حاجبيه، يطلب بضيق ثمن التذكرة، أخرج النقود من جيبي، أسلمها له معتذرًا فيبتسم، يقول بود: نازل فين؟ نام يا حاج ومتقلقش، أنا هصحيك في المحطة، أخبره بوجهتي ثم أتابع النظر إلى الشارع مفكرًا في لقبي الجديد، سأخبر منصورة بذلك، جعلتني عما فامتعضتُ، الآن أصبحت الحاج بهيج.

تظهر اللافتة أمامي، الصورة المضيئة تجبرني على النظر إليها، يا الله، ها هو الكاهن الأكبر يعود، ناصر لا يموت أبدًا، بملامحه التي لا يغيرها الزمن يطل فيعكر مزاجي، بقلمه الرصاص وابتسامته المصطنعة ووجهه المشدود، مر نصف قرن ولا شيء

يتغير، هو لا يشبع من الدولارات وهم لم يجدوا غيره ليتقمص دور العراف، يبتعد الباص فأطلق زفرة، تختفي صورته تدريجيا فأتناساه، أسلي نفسي بالتفكير، ماذا عن يوم الندوة؟ هل سأتحدث بطلاقة وبلا تحفظ؟ فجأة تسري البرودة بأطرافي، يغزو العرق جبهتي ويصيب الجفاف حلقي، أضطرب، لا أستطيع تجاهل هذه اللافتة العملاقة، يقترب الباص أكثر فأجد نفسي بمواجهة صورته، ملعون ناصر، ما زال يطاردني بعد مرور أكثر من أربعين عامًا، للأسف سأموت وسيظل باقيًا، فالمقهورون يقدسون جلاديهم، أحرك رقبتي، أهرب بنظري إلى الناحية المقابلة، أجد أخرى، صورة، صورتان، ثلاث، عشر، وجهه يملأ جانبي الطريق، يحاصرني فأغمض عيني، لا يختفي، ينظر نحوي بتحد، أتنفس بصعوبة وأعد الثواني حتى يبتعد، يتوقف الباص، إشارة مرور لعينة، كأن القدر يعاندني، أشعر بالوهن، تمتلئ عيني بالدموع، تجتاح عقلي الذكريات، أخيرًا ينير الأخضر، ينطفئ الأحمر فتتحرك، أطلق زفرة، بعد ثوان قليلة أسمع صوت الارتطام، نتوقف، يهبط السائق والكمساري، يتردد السباب من حولي، تبدأ المشاجرة ويزدحم الطريق بالمارة والسيارات، أحاول استجماع شجاعتي، أود المقاومة لكني أفشل، الصور تحاصرني، يلوح طيف حسناء موسكو أمامي، أتذوق طعم شفتيها فأشعر بالحاجة إلى التبول، أرتعب، أنهض من على كرسيي، أتحرك في أرجاء الأتوبيس بلا هدى، ينظر الجميع نحوي فأخجل من نفسي، أجلس ثانية، أضغط بيدي على أسفل بطني لأمنع الماء من الخروج، تنفلت قطرة فأدمع، أقاوم الرغبة في البكاء وأنهض من

جديد، أهبط من الباص، أقطع الشارع ركضًا، أشير إلى تاكسي، يتوقف فأندفع داخله، أنطق بعنواني وأنا أعصر مثانتي بفخذي، أطلب من السائق أن يزيد من سرعته، أقول كذبًا: أحتاج إلى الوصول للمنزل بأقرب وقت لأتناول دوائي.

أخيرًا تظهر العمارة، أهبط، أمر إلى الداخل، أتجاهل نداء البواب وأدعو الله ألا يكون قد لاحظ الدائرة التي تتوسط أسفل بطني، أصعد إلى شقتي وأرتمي على السرير، يعلو صوت نحيبي وأتذكر باكيًا يومًا مُرًا عشته منذ أكثر من أربعين عامًا، ولم يغادر عقلي حتى الآن.

النسيان نعمة، قضيت يومين في لعن الماضي ثم تجاوزت الأمر، اختفت صورة ناصر أخيرًا من رأسي، عدت إلى حاضري، أضعت يومي بالتسكع في الجوار، ذهبت إلى المول القريب واقتنيت بذلة رائعة وحذاءً جيد الصنع، لاحظت اختفاء الشباب، لا مكالمات أو زيارات أعقبت حضورهم الأخير، هاتفت منصورة فلم تجب، كررت المحاولة أكثر من مرة ولا جديد، هادي أوضح لي سر اختفائها، قال ضاحكًا: السذج يظنون أنهم قادرون على إقالة وزير الداخلية، الحمقاء تجهز نفسها ليوم الثورة، يكمل: دعوة على الفيس بوك للتظاهر ضد النظام، صفحة خالد سعيد اختارت يوم عيد ميلادك يا أستاذ موعدًا للخلاص، أقاطعه: وماذا عن الندوة؟ هل أُلغيت، يرد: بالطبع لا، أنا من سيتولى الأمر، سأعود يومها من البحر الأحمر، سوف أصحبك بنفسي إلى بيت ورد، بعد أن تنتهي الهانم من يومها الثوري ستلحق بنا، أحدثه هامسًا: لا

مشكلة من التأجيل، يرد: مستحيل، التفاعل على المنشور جيد جدًا، بالتأكيد سيمتلئ بيت ورد يومها بمحبي الثقافة، أصمت للحظات، يستشعر الشاب توتري، يقول: لا تقلق، سيمر اليوم بسلام، كالعادة سيتجمع العشرات أمام دار القضاء العالي؛ وبعد ساعة على الأكثر ستفرقهم الشرطة، أؤكد لك ذلك، سيكون يومًا رائعًا، حضور ضخم وأمسية لن تُنسى، أغلق الخط ثم ألعن عبد الناصر والشرطة والمظاهرات.

عدت يا يوم مولدي، هكذا قلت لنفسي ونحن نهبط درجات السلم، ساعة كاملة أمضاها هادي في منزلي، حضر مبكرًا ليهتم بالعجوز الذي سوف يولد من جديد، ألبسني خمس كرافتات حتى يختار واحدة مناسبة، أصر على تلميع حذائي واستخدم السيشوار البالي ليصفف لي شعري، كوى قميصي وأغرقه بعطر اشتراه خصيصًا لهذه المناسبة، كنت سعيدا لكن التوتر لم يفارقني. أصطنع الابتسام، أمثل المرح، لكن الخوف يسيطر علي، مواجهة الناس أمر صعب، أرتعب من فكرة الهروب من الظل.

نستقل تاكسي، يصر السائق أن نتفق على السعر قبل التحرك، يطلب أجرة مضاعفة وهو يقسم أن وسط البلد قد تحولت إلى ثكنة عسكرية، نوافق فيتحرك، يؤكد هادي أن الأمور طبيعية، يقول ضاحكًا: سندفع لك ما تريده لكن لا تضخم الحدث.

الشوارع شبه خالية، أعداد السيارات قليلة للغاية، لا مارة يظهرون، أطمئن نفسي قائلًا: هذه هي طبيعة نهارات الشتاء، أرى اللافتات الضخمة فيتعكر مزاجي للحظة، نقترب منها فأشعر

بالراحة، ناصر أخيرًا اختفى، نزعت صوره، حل محلها أخرى تهنئ رجال الشرطة بعيدهم، أرى أنها إشارة، أقول لنفسي: انتهى الخريف أخيرًا يا بهيج.

نقترب من الوصول، قبل شارعين من بيت ورد يزدحم الطريق، ألمح الجنود المنتشرين، أرى بضع عربات للأمن المركزي وبجانبها يجلس عدد من الضباط، أشعر بغصة في حلقي، ترتسم تعابير الذعر على وجهي فيلاحظ هادي، يقول: لا تقلق، انتشار الأمن روتيني بأيام الأعياد، يكمل ضاحكًا: تتحول وسط البلد من ملتقى للمثقفين إلى مقهى كبير يعج بالمخبرين، أرفع حاجبي فيشير إلى الضباط قائلًا: مناضد وكراس أخذت من المقاهي القريبة ورُصت على عجل من أجل الباشاوات، إقامة شاملة كليًا، أرى ضابط شاب يحتسي القهوة وآخر يمسك بساندوتش، الطاولات مغطاة بأطباق الطعام والمسليات وزجاجات المياه الغازية، أفهم المعنى فأقول: والمشاريب على حساب مين؟ يرد ضاحكًا: على حساب صاحب المحل بالطبع.

ساعة كاملة تضيع، وكأننا في جراج كبير لا شارع، لا أفهم سبب هذا الزحام، السائق يطلق السباب، يوجهه إلى الجميع، المتظاهرون والبوليس والحكومة وأولاد الزواني، أتوتر من صوته الجهور فأقترح على هادي النزول والسير حتى بيت ورد.

نتخطى السيارات، بعد مئة متر يظهر أمامنا حائط بشري من العسكر، لا مجال للعبور، يقول أحدهم بخشونة: الطريق مغلق. أقف بمكاني وألعن حظي العسر، يبتعد هادي، ألمحه يتجاوز

العسكر ويتحرك ناحية أحد الضباط، يحدثه لدقيقة ويشير في أثنائها بيده نحوي، يعود فيفسح لنا الجنود لنمر، أسأله: كيف فعلتها؟ فيرد أنت مثقف كبير ولا يجوز أن تقف وسط عامة الشعب، يضحك فألكزه في كتفه، يكمل: أخبرت الضابط أنك مريض واليوم هو موعد صرف علاجك الشهري من مستشفى القصر العيني، أبتسم رغمًا عني وأقول: للعمر المديد فوائده.

أخيرًا نصل، نصعد إلى بيت ورد، أجد بمواجهتي بانر ضخم تحتل أغلبه صورتي، أنظر إلى الشاب فيقول: للحق هذه فكرة منصورة، أتجول بأنحاء الصالة فتقابلني مجسمات لكتبي معلقة على الحوائط، بالركن الأيمن ألمح منضدة رصت عليها نسخ من رواياتي، بآخر الصالة منصة تتسع لأربع أشخاص أعلى طاولتها وضعت نسخ من كوثر بشكل هندسي رائع، بجانبها بوكيه من الورود، بالناحية المقابلة وضعت طاولة مستطيلة موضوع أعلاها الكثير من زجاجات العصير وأطباق الباتيه والكرواسوه، بجانبهم غلاية مياه وأكياس شاي ونسكافيه، أبتسم فيقول: ينقصنا فقط السندوتشات وتتحول الندوة إلى حفل عشاء، أجلس على أحد الكراسي وأغمض عيني، أتخيل سيناريو الساعات القادمة، يقطع الشاب حلم يقظتي، يقول مازحًا: هل رأيت المتظاهرين؟ أنظر إليه فيكمل: وسائل التواصل الاجتماعي وهم، من فضلك بعدما تعود منصور اشرح لها ذلك، ليست هناك ثورة بميعاد مسبق، لن ينزاح النظام عن طريق صفحة مجهولة الهوية على فيس بوك، أومئ برأسي وأسأله: متى ستبدأ الندوة، يرد: بعد ساعة على

أقصى تقدير، أبتسم قائلًا: أين الناس؟ يقترب ويجلس بجانبي، يقول: لا تقلق، سيكتظ بيت ورد اليوم بالحضور، أقاطعه: من أين لك كل هذه الثقة، يجيب: التفاعل على الفيس بوك ضخم، يمسك بهاتفه، يرفعه بمواجهة رأسي، يقول: أنظر، مائة وخمسون شخصًا قد ضغطوا على أيقونة الحضور، أضحك: الفيس بوك، لم تمر سوى دقيقة على قولك بأن وسائل التواصل أكذوبة كبرى، يتلعثم قائلًا: كنت أقصد السياسة لا الثقافة يا أستاذ، يصمت فأنهض، أفتح الشباك وأحاول طرد الأفكار السيئة من دماغي، أمرر الوقت بمراقبة الطريق الخالي، أرى الدخان، بعيدًا ومنخفضًا، يشبه السحب لكنه أقل كثافة، أستمع لأصوات مبهمة، أرى العساكر، أعداد هائلة منهم يتراجعون، يهرولون، تنطلق سيارات الشرطة وعربات الأمن المركزي مسرعة، ينفتح الطريق وتعلو أصوات أبواق السيارات، دقيقة تمر ثم يعود الشارع خاليًا من جديد، أبكي، تسيل دموعي، لا أفهم سبب ذلك، أشعر بحرقة في عيني، أمسح قطرات الماء المالح من على خدي، تهبط من جديد فأطلب من هادي منديلًا، يقترب، يناولني إياه، تظهر على وجهه تعابير الرعب، يصيح، أنظر، أرى دخانًا يتحرك، سحابة تمشي على الأرض، لحظات وتتضح الرؤية، عشرات، بل مئات، لا، أكثر بكثير، ألف شخص على الأقل يحتلون الطريق، يحملون أعلام مصر وصور لشاب وسيم الملامح، يمرون تحت بيت ورد ويهتفون بحماس: عيش حرية عدالة اجتماعية، تنفتح النوافذ وتمتلئ بالمستطلعين، المتظاهرين يسيرون ببطء، ينظرون إلى الأعلى، يشيرون إلينا، يهتفون بحماس: يا أهالينا انضموا إلينا،

أبدأ بالسعال، أغمض عيني، أحاول فتحها فأفشل، يغلق هادي النافذة، أهرول إلى الحمام، أضع رأسي تحت صنبور المياه، يتبعني قائلًا: هذا مفعول قنابل الغاز، أتنفس بصعوبة، أشعر أن رئتي منهكتان تمامًا، أستلقي على الكنبة أما هو فيقترب من النافذة، يعيد فتحها، يخرج رأسه وينظر إلى اليمين واليسار فأزعق فيه: أغلِقه، لا أستطيع التنفس!

يجلس بمواجهتي، ننظر إلى بعضنا البعض ويطول الصمت، تمر ساعة، ساعتين، ثلاثة، لا يظهر المريدون، لا أحد هنا باستثنائنا، لا نجد كلاما لنتبادله، يجري هادي بعض المكالمات الهاتفية، شلة المقهى يعتذرون تباعًا، الوضع بوسط البلد غير مستقر، الكل في بيته يتابع الوضع على شاشات التلفزيون، لا مجال الآن للمغادرة، فجميع الطرق مغلقة، إما بالشرطة وإما بالمتظاهرين.

يمسك بهاتفه ويتابع الأخبار، يتحرك في توتر ويفتح ويغلق النافذة لعشر مرات، يوجه نظره نحوي قائلًا: يوم سيئ وسيمر، لا مشكلة من تأجيل الندوة ليومين، أسبوع على أقصى تقدير وسوف نعقدها، لا أرد، أصوب نظراتي نحو الحائط، يحترم رغبتي في الصمت ويغادر الغرفة، أستمع إلى الضوضاء، تقترب فأناديه: أنظر إلى الشارع، ماذا يحدث؟ يرد: لا أحد هناك، أظن أن أذني قد شاخت، خذلتني مثلما الدنيا، ينفتح الباب، الهرج والمرج كان على سلم العمارة وليس بالأسفل، يندفع الشباب إلى بيت ورد، أميز سيف ومنصورة من وسطهم، يتحركون بعصبيه، يتحدثون بحماس: إنها الثورة، عشرون ألف في الشوارع، ليسوا

ثلاثين، ولا خمسين، ربما أكثر، أخيرًا تلاحظ منصورة وجودي، يبدو أنها قد نسيت أمر الندوة تمامًا، تعانقني وتنفلت دموعها، دموع فرح لا حزن على خيبتي، تنطلق في الحديث فينقبض قلبي، تحكي عن قنابل الغاز والرصاص المطاطي، تؤكد بثقة أنه لا أحد بات يخشى بطشهم، يقاطعها سيف: حتى لو أطلقوا الرصاص سنستقبله بصدورنا ولن نتراجع، أنكمش، أنظر إلى هادي المنزوي في ركن قصي، أنزعج من رنين هواتفهم الذي لا ينقطع، مكالمات لا تنتهي: شارع جامعة الدول ممتلئ حتى آخره، ألوف تندفع من كل صوب وتطالب بإسقاط النظام، العباسية، المطرية، عين شمس، عشرات الألوف تتحرك تجاه ميدان التحرير.

الشباب المتحمس لم يروني مطلقًا، عدت ظلًا، حتى منصورة تناستني واندمجت في الحديث معهم، عدت كما الماضي تمامًا، مجرد ممثل ثانوي.

بعد الكثير من الثرثرة الحماسية تحركوا، فتحوا الباب ومروا إلى الخارج، منصورة وسيف لم يهتما حتى بوداعي، فرغ بيت ورد، لم يعد أحد هنا غيرنا أنا وهادي، بعد أن أخرج رأسه من النافذة للمرة المائة أغلقها واقترب مني، ربت على كتفي فأزحت يده، قلت: أريد العودة إلى منزلي بأقصى سرعة، رد: مستحيل، كل الطرق مغلقة، قاطعته: وما الحل؟ نظر نحوي ثم همس بصوت خفيض تملؤه الحسرة: لا أعرف.

نهضت، هببت من على الأريكة وتحركت نحو الباب، لاحقني قائلًا: ماذا ستفعل، لا مجال للتهور يا أستاذ، توقفت فأمسك

بيدي، جررت قدمي وتبعته، خلعت حذائي واستلقيت على الأريكة، ببذلة كاملة ورباط عنق ويأس مطلق أغلقت عيني منتظرًا الموت علَّه يأتي.

تمت

فريد عبد العظيم

2024 /7 /31